غادة السمّان

شهوة الأجنحة

منشورات غادة السمان

شَهوَة الأجنِحة

منشورات غادة السمان
بيروت ـ لبنان
ص.ب ١١١٨١٣
تلفون ٣٠٩٤٧٠
٣١٤٦٥٩
فاكس ٣٠٩٤٧٠

□ **الغلاف الأول**: مقطع من لوحة للفنان سلفادور دالي.
□ **الغلاف الأخير**: غادة السمان (١٩٩٤)، بعدسة حازم الداعوق.

الطبعة الأولى: تموز (يوليو) ١٩٩٥ .

الإهـــداء

أهدي هذا الكتاب إلى ابن بطوطة والسندباد
وبقية أجدادي ـ الحقيقيين والأسطوريين ـ
الذين كابدوا شهوات الأجنحة ورعشات الحرية.
إليهم، من حفيدة وفيّة.

غادة..

ما من مكان يذهب المرء إليه، ولذا نـرحـل، أنت وأنـــا. ولمـاذا؟ فقط لنتوهم أن بوسعنا الذهاب إلى مكان آخر!

ادوارد داهلبرغ

الرحيل يشبه الحوار مـع رجال من عصور أخرى.

رينيه ديكارت

في المـدن الكبـيرة، يصـــير الـوقت مرئياً.

لويس مامفورد

جزء كبير من الرحيل هو في حقيقته تحدي «الأنا» للعالم الخارجي. العالم عتيق كالصخور ومتبـدل كالبحـر. و«الأنـا» تـرغب في الــوصـول إلى الأمـاكن البعيدة سـالمة وفي الـوقت المحدد.

سيبيل بدفورد

في حقيقـة الأمر، أنـا لا أرحل إلى وجهة معينة، بـل أرحل من أجـل متعة أن أرحل.

ستيفنسون

ما ترحل البحار بحثـاً عنه مـوجود هنا!

هوراس

شهوة المجهول في الشرق الأقصى . .

لقد نجوت من الموت في الحرب التي لم تنته بعد، وها أنا هاربة في إجازة أحتفي خلالها بالحياة!

الطائرة تركض في حقول الليل، ورفاقي فيها يرتمون على شواطىء النوم. . . الطفل الصغير في الجانب الآخر من الطائرة غرق في نوم شهي إلى جانب أمه الممتلئة شخيراً، وها هو شاب غريب ينهض ليغطيه بملاءة صوفية، ثم يعود إلى مقعده بهدوء. . وألمح وجهه، ولا يدهشني أنه عربي. هذا العطاء المجاني المفعم بالحنان يتفجر من الذات العربية. ها قد عدت للتفكير بـ «الذات العربية»، أنا المسافرة إلى مدينة تبعد ٦٨٦٩ كيلومتراً عن بيروت هرباً من العشق العربي واللغة العربية **والوطن العربي**[1] **والكفاح العربي والأسبوع العربي والمستقبل العربي والفكر العربي والعربي** وكل ما هو عربي! . . . أنا التي قرّرت الذهاب في «إجازة» للمرة الأولى في حياتي. قضيت زمني أسمع الناس يتحدثون عن إجازاتهم. أرى صورهم وهم يمارسونها. أكتب في مقالاتي متغنية بفضائلها وضرورتها، لكنني لا أذكر أنني عرفت إجازة واحدة، منذ صدور كتابي الأول **عيناك قدري!** . . ربما لذلك اخترت الشرق الأقصى مسرحاً لإجازتي من الشرق الأدنى ووطني العربي. قلت لنفسي: لن أجد جريدة عربية في بانكوك كما في باريس. . . ولن أسمع صوتاً عربياً في الفليبين كما في شوارع روما. . ولن ألتقي برفاقي في الصحافة في الصين كما يحدث لي في شوارع لندن. . ولن. . . ولن. . ولن. . ولن أسمع خبراً ما ينغرس في جرحي كالسكين ويوقظه. . .

وحينما بدَّلت الطائرة في مطار البحرين منذ ساعات، وصعدت إلى طائرة «كاثي باسفيك» المتجهة إلى بانكوك، شعرت منذ اللحظة الأولى أنني أدخل عالماً آخر. . . هل هي الوجوه ذات العيون المشدودة إلى أعلى، أم المناخ بأكمله؟ لا أدري. ولكن، أين المضيفات الباسمات اللواتي نراهن في صور الإعلانات؟

جلس إلى جانبي عجوز صيني يشبه الشجرة، وفي فمه سيجارة مطفأة. وبعد

(١) نشر هذا النص ومعظم بقية نصوص رحلة الشرق الأقصى في مجلة الوطن العربي .

ساعة من الطيران الصامت، قررت أن أشعل لـ «العجوز ـ الشجرة» لفافته عساه يعلمني بعض الكلمات الصينية، وفوجئت بأن ما يضعه في فمه هو عود شجرة جاف! . . وقلت لنفسي: أيتها المرأة الحزينة، ستكون لك إجازة نضرة في عالم من المفاجآت. . .

★ ★ ★

لا تزال الطائرة تركض في حقول الظلام. الساعة تشير إلى الثالثة بعد منتصف الليل. الأضواء شبه مطفأة. المضيفات اختفين، و «السيد النوم» يمر بحضوره السحري على الركاب ويسيطر على الطائرة، ويلوِّح بعصاه أمام عينيّ، وأنا أتأمله بملء صحوي. . .

وفجأة، بدأ الزلزال. بدأ خفيفاً، لم يلحظه النائمون في البداية. ثم صار جسد الطائرة يرتجف كعصفور دوري في العاصفة. وأضيئت الأنوار، وانطلق صوت قلق يطلب منا ربط أحزمة المقاعد. . .

آه حينما الطائرة ترقص، والحقائب الصغيرة تسقط عن الرفوف، والمعاطف والقبعات تتطاير، والقلب يسقط في اللحظة الممدودة بين الظلام والفجر، بين إغماءة الهلع وانفجار الصحو. . . وبعد إغماءة الهلع الأولى، يأتي ذلك الضوء الباهر. . وتنزلق في محرقه مرئيات العمر العادي الرتيب، وقد استعادت مذاقها الحرِّيف وسرعتها المشبوبة. . ها هي المشاهد المختزلة تتلاحق أمام عينيك كطعنات خنجر في يدٍ مسعورة الحمى. . وها أنت تقف خارج الخوف، تنزلق خارج مدار الهلع كمن قذفت به قوة جبارة فانفلت من جاذبية كوكب الذعر. . . الطائرة ترتجف وتهوي في الفضاء، وأنت لم تعد خائفاً. إنك ببساطة لم تعد في داخلها. صرت جالساً على أحد جناحيها، تحدق في أيامك الماضية بصفاء عذب كأنك مت وانتهى الأمر. وها أنت تتأمل زمنك الذي كان بفضول محايد، وتفك عنك حزام الأمان، وتتسلى بتمزيق طوق النجاة الذي علموك لحظة إقلاع الطائرة كيفية استعماله (وكنت لحظتها تنصت للدرس جاهداً ألا تفوتك أياً من التفاصيل: الزر الذي تجذبه لينتفخ الطوق، وضوء الاستغاثة الذي تشعله، وموضع الصفارة التي تصرخ عبرها طالباً النجدة). ها أنت الآن تطفىء الضوء، وترمي بالصفارة، وتتأمل قوافل زمنك. . .

★ ★ ★

تأملت زمني فلم أر شيئاً. .

بالضبط، شاهدت الأشياء متشابهة أكثر مما ينبغي! . . الوجوه كلها يشبه بعضها بعضاً. وجوه الذين أحببتهم ولم يحبوني، والذين أحبوني ولم أحبهم. وجوه الذين غدروا

بي والذين غدرت بهم. وجوه صديقاتي اللواتي تخلين عني، واللواتي بقين إلى جانبي.. وسمعت الكلمات التي قيلت في المناسبات «الكبيرة» المختلفة، وكانت هي نفسها تتكرر وإن تعددت الايقاعات...

بدا لي زمني الشخصي مثل مسرحية من فصل واحد يعيد تمثيلها كل مرة أشخاص مختلفون، ويبقى الجوهر واحداً، والمسرحية نصف مملة، بكاؤها يدفع بك إلى التثاؤب، وضحكها يدفع بك إلى الأسى المشفق.

وسط قحط زحامي هذا، لم تلمع في كثبان اللامبالاة غير أوراقي المتطايرة في الفضاء.. وصرت أركض بين ركام الأعوام المكومة كأثاث عتيق معروض للبيع. فلا أجد حقاً ما أرغب في التحديق به غير هذه الأوراق الهاربة.

ولكن احساساً واحداً شرساً داهمني فجأة: أريد أن أكتب الآن، حتى ولو احترق السطر الذي سأخطه بعد لحظات، وصار من بعض رماد الطائرة، أو تطايرت كلماته في الريح.. (مرة تطايرت أوراقي في الريح. أوراق قصة قصيرة قضيت أسبوعاً لا أنام لأجل إنجازها. كنت أحملها كالطفل بين يديّ وأترجل من السيارة في الروشة ببيروت، حين هبّت ريح شتائية نفخت كوحش خرافي، وتطايرت الأوراق.. وبدأتُ أركض وصديقتي نهى سمارة كي نلملمها، والأوراق تعبث بنا وتمعن تحليقاً كأنها طائرات ورقية هاربة... وفجأة، كففت عن الركض، وجلست على الرصيف أتأملها بنشوة حقيقية، وهي هاربة هكذا، منسية هكذا، راحلة عن عيوننا في موكب شيطاني من الطيران العابث السوداوي السخرية... وانفجرتُ أضحك وقلت لنهى سمارة: كفّي عن الركض أيتها الحمقاء. صحيح أنني كتبتها لهم، لكنني كتبتها أيضاً لأجل ذلك. وكنت سأكتبها على أية حال، حتى لو عرفت مصيرها هذا سلفاً)...

* * *

وهكذا، والطائرة تنوس بين الموت والحياة، أخرجت دفتري الصغير وبدأت أكتب لكم.. أو للنار...

في البداية، كتبت لكم أغنية صغيرة عن الفرح، وكان رفاق الطائرة مشغولين برعبهم عن جنوني، وظنني جاري «الصيني - الشجرة» أكتب وصيتي، فغادر مقعده هارباً متعثراً.. وكنت أكتب لكم فرحي.. فقد كنتم دوماً معي... تسكنون حياتي وموتي، وتركضون داخل دورتي الدموية. وكتبت لكم: لا أشعر بالخوف. أشعر بالأسف لأننا سنفترق، ولأنكم لن تقرأوا هذه الكلمات التي ما زلت أرغب في أن أكتبها وما زلت لا أعرفها... أشعر أيضاً بالأسف لأنني قد لا أكتبها!...

لم تسقط الطائرة. لعبت قليلاً مع الزلزال. قفزت فوق الحبل كالأطفال. تأرجحت عدة مرات على منصات لامرئية كبهلوان محترف، ثم ضجرت من اللعب فعادت تمشي في وقار وتؤدة كأميرة أسطورية غادرت جنونها الليلي مع خيوط الفجر الأولى...

بعد العاصفة، كل شيء يستطيع أن يرجع كما كان... أما القلب، فلا...

مع خيوط الفجر الأولى، كنتم قد احتللتم المقعد الذي أخلاه جاري الصيني لحظة بدأت الكتابة، وربطتم حولكم حزام المقعد بانتظار أن أنتهي من الكتابة... لتبدأوا بالقراءة... وعلى الورقة كتبت لكم: «صباح الخير أيها القراء»، ووضعتها لكم على المقعد المجاور الذي توهمه رفاق الطائرة خالياً...

إذاً سنرحل معاً.

وكل يوم يمر بي، يزيدني يقيناً بأن الرحيل هو أسوأ طريقة للابتعاد... وأسخف وسيلة للفراق.

أي هرب، ما دامت الأشياء تسكننا، وما دمنا حين نرحل هرباً منها، نجد أنفسنا وحيدين معها وجهاً لوجه!... والذي تسكنه الكتابة، لا يستطيع أن يكسر قلمه ويذهب في إجازة غير مكتوبة!...

★ ★ ★

أكتب إليكم في تلك اللحظة المذهلة بين موت الليل وولادة الفجر. (والذي يحدث حقاً هو أن الليل لا يموت، والفجر لا يولد، وكل ما في الأمر هو أن الزمن يرتدي الوجه الآخر المضيء لمعطفه، ويعود ليبدله لحظة الغروب)...

أكتب إليكم كما فعلت دائماً... وكما سأفعل دائماً على ما يبدو!.. وأقول لكم: يعيش الموت... الموت كتابة!...

أكتبها بالطباشير على جدران الطائرة والليل والعاصفة وصالات الترانزيت، ثم أوزعها كالمناشير على الركاب...

أعود إليكم، لنقتسم معاً رغيف الحزن وماء الحلم. ونمشي معاً في مظاهرات الصدق والغضب، وجنازات أزهارنا الميتة، فأنا لست أكثر من نملة في مملكة المحبة.

أعود إليكم مثقلة بالحكايا والموسيقى والأمطار، متوردة بأشواق المنفى، أنفض عني أوراق الأشجار: أشجار شتاءات ثلاثة من العزلة، وتتدلى من عنقي كالخطيئة عشرة كتب أنجزتها في فترة غيابي «الأسبوعي» هذا عنكم...

أعود إليكم. تحبونني أحياناً وأحبكم. تكرهونني أحياناً وأكرهكم. لأنني لا أستطيع أن أعيش حقاً بدونكم، ولا أعرف السبيل إلى إخراجكم من دورتي الدموية.

أعود إليكم مثقلة بكل شيء، إلا الندم.

* * *

أعود إليكم؟

لم أغادركم حقاً كي أعود إليكم! . . .

من حيث الجوهر، كنت باستمرار معكم. ولكن صورة اللقاء هي التي كانت تتبدل . . .

وكنتم معي في عزلة أعوامي الثلاثة، وبينما كنت أعد «الأعمال غير الكاملة»[1] للمطبعة، ورفاقي يدهشون لقدرتي على قطع شريط الهاتف وبناء جدار في موضع الباب والنوافذ، كنت في الحقيقة أعيش حياتي السرية معكم . . وكنتم دوماً معي، تركضون على أصابعي حين أكتب، وتتسلقون عنقي وشعري وتصرخون في أذني أحزانكم وآمالكم، وتملون عليَّ إرادتكم. وحين تنامون كالأطفال، كنت أتجول بينكم، وأقطف عن شفاهكم الكلمات التي لم تقل، حزمة من الأزهار الوحشية، والورود السوداء النادرة، وأقضي بقية الليل في صفّها كلمات فوق السطور . . .

وحين انقضت أعوام عزلتي الثلاثة، وأنجزت «الأعمال غير الكاملة»، خطر لي ذات ليلة أن أتسلى بإحصاء النجوم. لكن السماء كانت غائمة، فقررت أن أحصي صفحات كتبي (بدلاً من الخرفان) ووجدتها ٤٢٠٠ صفحة. وأصبت بالذعر، ولم أنم ليلتها، ومع الفجر قررت أنه قد آن الأوان لأعيش إجازة من كل شيء، أعود بعدها إلى كل شيء . . .

ولكن حياتي السرية معكم تستعصي على الهجر والطلاق والإجازة وتتسع لمرونة صيغ اللقاء . . . وها أنا أعلن اعترافي بفشل إجازتي!

أقطع رحلتي؟ . .
لا. سنتابع الرحلة معاً
سننام الآن قليلاً، ثم نفتح عيوننا معاً في بانكوك! . . .

١٩٨٠/٥/٢٣

---

(١) سلسلة من ثلاثة عشر كتاباً صدرت لي في تلك الفترة.

بانكوك: الوثن من ذهب والناس جياع

ها أنا أخرج من التثاؤب، وأدخل في الأفق والأزهار البرية.

ها أنا أغادر الجدار، وأدخل في الريح . . .

لأكتشف مدينة جديدة.

★ ★ ★

محطتي الأولى كانت في مطار البحرين حيث النظافة البالغة والترتيب والنظام بطاقة دعوة لزيارة البلد الجميل. وقبل أن تستسلم للإغراء يا عَابر الترانزيت تلحق بطائرتك. ما تكاد تدخل الطائرة «الباسيفيكية» حتى تشعر أنك دخلت عالماً جديداً حقاً ومختلفاً. هل هي الوجوه أم كهارب الحضور؟ لا تدري . . .

★ ★ ★

بعد طيران ليلة، وعاصفة رعدية مرعبة في الطائرة، حطّت بي مع صباح اليوم التالي في فرن شديد الحرارة اسمه الحركي: «مطار دون موانج»، وأنا «دون كيشوت» منهك. و«الفرن» شديد الازدحام بالغرباء أمثالي، والحر يسيل من الوجوه والثياب والأصوات المختنقة، والأوداج المتورمة والعروق النافرة بدم يغلي، والذباب يتوج اللوحة بتوقيعه اللاسع.

قلت لنفسي: «ها أنت قد طرت حوالى ٧٠٠٠ كيلومتر كي تهبطي في فرن تايلاندي اسمه بانكوك». وندمت قليلاً خلال الساعة الكاملة التي استغرقتها الرحلة في الباص من مطار «دون موانج» إلى مدينة بانكوك.

ولم أكن بعد أدري، أن بانكوك هي أجمل مدينة في الشرق الأقصى، وأغرب مدينة شاهدتها في حياتي (حتى الآن!).

★ ★ ★

كل شيء هنا غريب ومختلف عما ألفناه في بلادنا.

لنبدأ بالطقس:

درجة الحرارة في «أبرد» يوم في السنة «تهبط» هنا إلى ٣١ درجة مئوية (أي تصير معادلة لدرجة الحرارة في أكثر أيام الصيف حراً ببيروت!)، ودرجة الحرارة القصوى هنا هي ٣٦ درجة مئوية! أي أن درجة الحرارة في الفصول كلها تكاد تكون متساوية، لا فارق بين أي يوم وآخر أكثر من ٥ درجات مئوية!...

أما الفصول كما نعرفها نحن فغير موجودة. الشتاء كلمة لا معنى لها هنا وكذلك الخريف. لديهم ثلاثة فصول هي: فصل الحر، وفصل المطر، والفصل المعتدل.

ماذا نفعل؟ نمزق ثيابنا الشتوية، ونرمي بمعاطفنا في نهر «تشاوفيا».

* * *

كل شيء هنا في «سيام» يبدو مختلفاً، حتى الوجوه. لنحدِّق في وجه دليلتنا الشابة «كايفالين». إنه جميل وغير مألوف، ويشبه فعلاً وجه قطة سيامية. العيون مشدودة إلى أعلى، حتى لنتوهم للوهلة الأولى أن وجوه أهل تايلاند «صينية» الملامح، لكنها في الحقيقة تختلف عن الوجوه الصينية كما يختلف وجه القطط السيامية عن وجوه القطط العادية مثلاً.. والوجه التايلاندي أكثر حدة، وعمقاً في التقاطيع، وشراسة في التعبير، واستدارة.

كل شيء هنا مختلف.

الأشجار. البيوت. المعابد. الغيوم. شكل الفواكه وطعمها. الثمار. الخضار. الروائح. مخالب الراقصات. الموسيقى. الأعياد. الحيوانات. الأزهار. العادات. الثياب. القبعات. حتى السماء لونها مختلف.

فالسماء هنا احتفالٌ باللون الرمادي، تكسوها سحب شفّافة باستمرار، ولم أرها مرة واحدة زرقاء (بمفهوم سكان البحر الأبيض المتوسط للزرقة).

* * *

تريد أن تعرف بالضبط أين نحن؟

نحن في سيام المسماة حالياً بـ «تايلاند». تحيط بنا البلاد التالية: كمبوديا. فييتنام. لاوس. بورما. ماليزيا.

تحب الأرقام؟ حسناً، ولكن على طريقتي!

مساحة تايلاند تعادل مساحة فرنسا. وتسكنها ٣٥ مليون ابتسامة. أما «بانكوك» العاصمة فتسكنها ٤ ملايين ابتسامة. والابتسامة نصف الحزينة التي تغطي الوجوه، تدل على التهذيب واللطف أكثر مما تعلن فرحاً ما (رغم أكاذيب الكرّاسات السياحية).

الابتسامة لدى هذا الشعب الآسيوي العريق تعبير عن التواضع والرقة والخشية في التعامل مع القدر والآخرين. ومعنى «الابتسامة الآسيوية» يختلف تماماً عن «الابتسامة الأوروبية»، حيث الابتسامة عتبة للضحك.

هنا، من الممكن أن تبتسم كخطوة أولى في درب بكاء أخرس مرير.

★ ★ ★

بانكوك مدينة مسحورة طالعة من قلب الأساطير، كأنها ولدت في مخيلة شاعر محموم، فكتبها فوق صفحة الغابة الاستوائية قصيدةً من شلالات الذهب والحرير والعاج والدانتيل الحجري، والجاد فاحم الخضرة، والفل الاستوائي والبامبو والبخور والنخيل والأناناس والأفيال والقوارب والأفاعي والأقنعة والمظلات والتماسيح والقمر والموز. بانكوك غابة استوائية عذراء يجري فيها نهر من العسل - في لونه - هو نهر «تشاوفيا»، وقد تناثرت بين أشجارها بيوت مذهلة بفنها المعماري العجيب، و ٣٥ ألف معبد آهلة بالغرائب وحوالى ٣٠٠٠ باجودا (الباجودا بناء غريب الشكل يشبه هرماً أسطوانياً).

القصور والمعابد تتميز بقرميد متعدد الألوان والطبقات، كأن جنّية أحبت أن تلعب بالبيوت الغريبة التصميم لتزيدها غرابة، فأدخلت بيتاً وسط آخر أكثر اتساعاً، ثم أدخلتهما معاً في بيت أكبر، ثم أكبر، وهكذا. . . فاختفت البيوت داخل بيت واحد وبقيت الطبقات المتعددة للقرميد ظاهرة، ولم تكتفِ بذلك، وإنما جعلت أطراف القرميد تنتهي مدببة نافرة كمخالب ترتفع نحو الغيوم، وهذه المخالب مصنوعة من زخارف ذهبية أو برونزية تزينها أحياناً تماثيل الأفاعي (رمز تايلاند).

★ ★ ★

تماثيل الكلاب والأسود والأفاعي في القصور والمعابد هي للحراسة! وكذلك تماثيل العفاريت والجان والشياطين التي شهرت سيوفها، والوحوش الأسطورية نصف البشرية، والحيوانات المجنحة التي شحذت أنيابها.

في البداية ستضحك من الفكرة، وبعد يوم من تأمل تماثيلها المتقنة، سيخيل إليك أنها تتمتع بحياة ما، وأن الكلاب الحجرية تنبح حقاً في الليل، والأسود الحجرية تتجول، وتماثيل الجان تتنفس بصوت كالحشرجة، والوحوش الأسطورية تشتعل عيونها ليلاً كالمصابيح، وستخاف منها حقاً ولن تجرؤ على الاقتراب إلا في ضوء النهار. . . وستشعر بالأنس أمام تماثيل الأفيال (والفيل الأليف رمز للسعادة عندهم ربما لسماكة جلده!).

★ ★ ★

تكتمل الغرابة، حين نعلم أن هذا الحلم الخرافي من البيوت والقصور والمعابد، تقطعه أبنية حديثة شاهقة، وفنادق فخمة أوروبية الطراز، وأن في بانكوك ـ التي تقع عند مفترق طرق الشرق الأقصى ـ سبع جامعات و ٢٤ صحيفة يومية ومجلة، ومئات من سيارات التاكسي، ولستَ مضطراً إلى استخدام الفيل للتنقل إذا كنت لا تحب ذلك!

ولكن الغرابة تظل مصرة على سيادتها. ها هي بعض سيارات التاكسي تدعى الـ «توك توك» نسبة إلى الصوت الذي تصدره، وتتألف من دراجة نارية لها هيكل سيارة مفرطة في الصغر! . . .

وها هو أحد فنادقها الحديثة (انتركونتيننتال) يزهو في حلة «سيامية»، ويتوج رأسه بقرميد من ١٢ طبقة ويشبه بمجمله معبداً محلياً، لكنه يخلو من الأطراف الحادة المرتفعة إلى أعلى التي ينتهي بها موزاييك قرميدهم عادة، والشبيهة بمخالب مدببة موجهة نحو الغيوم الاستوائية الخانقة.

نقودهم غريبة أيضاً. عليها رسوم إنسان مجنح كأنه عباس بن فرناس. ورسوم أسماك. ورسوم أخطبوط. ولكنك لا تجد عليها أي رقم لاتيني. وهكذا فأنت عاجز عن معرفة قيمة العملة المعدنية، إلا إذا كنت قادراً على قراءة الأرقام باللغة التايلاندية! . . .

أما المخازن، فعليها كتابات باللغة التايلاندية، وإذا عجزت عن قراءتها فعليك باللغة الصينية التي تحل هناك محل الفرنسية أو الانكليزية على واجهات مخازننا!

في البداية، يعجز الإنسان عن التمييز بين الكتابة التايلاندية والأخرى الصينية. لكنه بعد أيام يصير قادراً على ملاحظة الفرق بين التايلاندية شبه البسيطة والمسطحة، والصينية البالغة الجمال والدقة كالخط العربي الساحر.

حتى الكومبيوتر، يتأثر بالغرابة هنا، ويصبح غريب الأطوار.

ويوم وصولي إلى بانكوك، كنت مرهقة حتى الإعياء، ووعيت معنى عبارة «مادت الأرض تحت قدميه»، فقد توهمت أن بلاط غرفة الفندق تحول إلى رمال متحركة أو أن زلزالاً ما قد وقع. فسارعت إلى دواء الطبيعة الشافي: النوم.

ويبدو أنني نمت بقية النهار بطوله والليلة التالية دونما انقطاع، حتى أيقظني في عتمة أول الفجر صوت رنين الهاتف. واستيقظت وأنا لا أذكر بالضبط أين أنا. ورفعت سماعة الهاتف فسمعت صوتاً أنثوياً يقول بالإنكليزية: لقد طلبتِ منا إيقاظك. وقاطعتها وأنا أصرخ: لكنني لم أطلب من أحد إيقاظي. بيد أن الصوت المسجل تابع كلامه بلهجة محايدة باردة لا تسمع رداً ولا توسلاً: «لقد طلبت منا إيقاظك. الساعة الآن الخامسة

صباحاً». . . وأغلقت سماعة الهاتف وأنا ألعن الكومبيوتر الذي ما زال ينفِّذ أوامر نزيل الغرفة السابق، واتصلت بموظف توزيع المخابرات أرجوه إلغاء حكاية الايقاظ الصباحي هذه. . . لكنني مع فجر اليوم التالي، استيقظت على صوت الكومبيوتر المزاجي المصرّ على ايقاظي. وحين اتصلت بالموظف محتجة، أكد لي أنه ألغى الأمر، وأن الكومبيوتر لم يتصل بي. . . ومع ذلك ظلّ الكومبيوتر الغريب الأطوار يوقظني كل فجر طوال مدة إقامتي في بانكوك!. . غرابة في الأطوار؟ أم أن الكومبيوتر يتحول في البلدان المتخلفة من نعمة إلى نقمة؟ ومن خادم إلى ديكتاتور؟. . .

* * *

أغادر فندق «مونتيان» في الرقم ٥٤ من شارع «سوراوونغ سي» وأتسكع طويلاً وسط الغرابة كمن يخطو داخل شاشة حلم عجيب. تمر بي سيارات فارهة ونساء ثريات يترجلن منها إلى الحوانيت. أمشي طويلاً حتى «الحي الصيني» وأضيع وأجد نفسي في أزقة ضيقة متفرعة من «شايناتاون»، وأضيع ثانية وأجد نفسي في أزقة الفقر والأوحال وبرك الماء والنفايات وفقير يحاول أن يجد قوته في أكوامها. دوماً أحزمة بؤس تزنّر مدناً تحاول بيع ماضيها استجداء للقمتها.

يوم غادرت بيروت في إجازتي هذه عاهدت نفسي على نسيان كل شيء عنها خلال الإجازة. وها أنا أشتري صحيفة بالانكليزية وأفتش فيها عن أخبار لبنان وأنا أمشي في الشارع. أفتش في الصحيفة عن عبارة واحدة بالعربية فأعثر على إعلان في جريدة ذي ناشن عدد ١/٤/٨٠ بالعربية والانكليزية يقول حرفياً: كازينو شهرزاد. رقص وموسيقى شرقي يومياً. شارع سوكومنيت. وإلى جانبه صورة راقصة (هز بطن)! أتذكر جدي مصعب بن الحارث الذي وصل حتى الصين في الجاهلية، وسواه من أجدادي قارعي أبواب الصين في الإسلام. . وأغص على حالنا هذه الأيام.

وصلت أخيراً إلى شارع «جاڤاراك» وثمة تاكسي «توك توك» يطاردني وأستسلم، ويصعد راكب ومعه قرده الذي يصر على مداعبتي ويسرق لي قبعتي وأنا أغادر التاكسي!

في بانكوك يسيل من الناس مناخ الرقة، لكنها رقة متوحشة غامضة كقوة طبيعية مجهولة تشعر أنها يمكن أن تنقلب في أية لحظة إلى عنف بالغ.

دليلتنا اليوم تايلاندية اسمها بي Bee أي النحلة، وتقول لنا إن درجة الحرارة اليوم ٣٧ مئوية وإنها تعمل لتعيل كلابها الأربعة. تتحدث بعدة لغات، الصينية واليابانية من بينها. قال الطفل: يا ليت في كوكبنا لغة واحدة لأستريح!

في الطريق إلى كمبوديا ترشدنا الدليلة إلى مبنى عمروه كنسخة عن البيغ بن، محاط ببيوت خاصة بالأرواح! ولكن من يبالي حقاً بمشاهدة البيغ بن اللندنية هنا؟ الدليل لا يفطن دائماً إلى أن السائح يفتش عن روح المدينة وبالتالي قديمها واستثنائيها وتراثيها. وهذا متوافر في تايلاند إلى أبعد مدى، وتبذل مدينة «شيانج ماي» الجميلة في الشمال جهداً استثنائياً للحفاظ على طابعها الشعبي المحلي القديم، ولذا يؤمها السواح بكثرة بالرغم من خلوها النسبي من «السياحة الجنسية» المزدهرة في بانكوك كما يعرف جيداً زوار شارع «. . . .» فيها! . . ولكن سوق «اللحم الأسمر» ليس أهم أسواق بانكوك وإن كان البعض يتوهم ذلك. ثمة أسواق عديدة لا تخلو من الطرافة منها السوق العائمة حيث البسطات ـ المراكب، و«سوق الحرامية» كما دعوها ربما اعترافاً منهم بأنهم سيسرقونك إذا لم تفاصل وتساوم في الأسعار التي تهبط عادة إلى النصف!

وسط كل جديد يهيمن القديم، وينحدر أحياناً من الأسلاف فارغاً من مضمونه الأصلي ومن المعنى. عليك مثلاً أن تخلع حذاءك قبل الدخول إلى البيوت (كما عندنا من زمان) وفي المعابد وحتى في بعض الملاهي الفولكلورية حيث الرقص الشعبي الأصيل. ولكن تلك العادة في بلادهم وعندنا المقصود منها أن لا توسخ المكان بحذائك، ولكن ما حيلتك إذا كان المكان أكثر وساخة من حذائك؟ . .

الطعام التايلاندي شهي المنظر ولكن حذار من أن تصرخ متوجعاً من البهارات الحريفة (الفلفل، الشطة) ومن الأفضل لك أن تأكل ما تعرفه حتى ولو كان حريفاً بدلاً من التهام الغامض كنخاعات القرود وأمعاء الثيران مثلاً!

رقصهم الفولكلوري انحدر إليهم من الأسلاف. عذب ورقيق. لا يخلو من العنف، لكن يفيض بحركات تنم عن الكبرياء والعنفوان البعيد كل البعد عن الابتذال والايحاءات الجنسية والاثارة المصطنعة. عليك أن تخلع حذاءك قبل الدخول إلى المرقص وتجلس على الأرض أمام خوان وتضع ساقيك في حفرة طولانية تشبه الجدول الجاف، وتتأمل الراقصات الجميلات بقبعاتهن المعدنية وأظافرهن الاصطناعية الذهبية الطويلة. وبوسعك شراء هذه «الإكسسوارات» كتذكار!

بالمقابل ثمة أماكن للرقص مكرسة لإثارة من نمط مرعب (للناضجين فوق العشرين) وتقدم فيها راقصات أفعوانيات وصلات جنسية مع الأفاعي مما يخيف المتفرج أكثر مما يثيره! . . فالسياحة الجنسية صناعة قائمة بذاتها إلى جانب تجارة الأفيون والمخدرات!

* * *

الليل في بانكوك عجينة سحر حين لا تقوم العاصفة الرعدية كما لو جُنَّت الأبالسة والتنينات وينقطع التيار الكهربائي عن فندق «النجوم الخمسة»، وتتذكر الحرب وتشعل شمعتك وقد عاودتك ذكريات أحزانك معها.

حين يكون الطقس صاحياً، يبدو القمر نضراً ومجلياً، والغيوم الشفافة ترقص فوقه وهو يؤدي خلفها رقصة آسيوية لا تنسى كما في لوحات الشرق الأقصى ذات الطابع الخاص. وسط ذلك الليل المفعم بحرارة آتية من تنهدات التراب والأزهار توقظك بانكوك من سباتك المألوف وترهف حواسك وتسوقك مخفوراً بالياسمين والفل إلى ساحات الفرح المهجور.

في مطعم «سوانا هونغ» حيث الرقص الشعبي، تضايقت لأنهم أرغموني على خلع حذائي والأرض قذرة. كشرقية ألفت هذه العادة ولكن في البيوت النظيفة. أعرف أن المقصود منها إلى جانب النظافة، عقد مصافحة خاصة بين أخمص القدم وأرض البيت هي بمثابة تحية حميمة، ولكن كيف تفعل ذلك وسط القاذورات؟ وهكذا ما كدت أخلع حذائي حتى ارتديت جورباً كالخف حملته معي خصيصاً لحالات كهذه ككل الموسوسين بالنظافة! فخلع الأحذية في الملاهي يبدو أقرب إلى الصرعة السياحية منه إلى روح التراث.

★ ★ ★

الحب والكراهية، الكآبة والأحلام المشرقة؛ الحنان والخيبة، العنف والذهول، هذه كلها نجدها في رقصهم الشعبي.

رقصة «الخون» الشهيرة وعمرها ٣٠٠٠ سنة لا تزال شابة مليئة بالحيوية، وبدائية يرتدي الراقصون فيها أقنعة حيوانات لتمثيل دور الشر (لماذا أقنعة حيوانات لا أقنعة وجوه بشرية؟!)..

وللرقصات الإيمائية معان رمزية على ألحان غريبة آتية من آلات موسيقية قديمة وعجيبة الأشكال.

هنالك أيضاً رقصة «لاكون» التي تشبه باليه بدائياً غريب الايقاع. ويظل أجمل ما في الرقص التايلاندي بُعدُه المطلق عن هز البطن، فالخصر ثابت والجذع يتحرك بأكمله كشجرة غضة في الريح، مع الاقتصاد في الحركة وتكثيف مدلولها والالحاح على حركة الأصابع. إنه رقص «الباسفيك» كما يدل عليه اسمه: جميل. رشيق. بريء. لطيف ومسالم جنسياً. وتتركز حركته في ايماءات الرأس واليدين والقدمين لامرأة. غرسة ورد

ثابتة الجذع مهتزة الورود والأوراق. وتأتي الثياب الفولكلورية فتتوج بعد المرأة عن الابتذال والرخص والبذاءة بسحر القديم والغريب الشبيه بموزاييك ملون من الحرائر المذهبة والتيجان التي تذكّرك بالباجودا، وتدخل عبرها إلى عوالم الأساطير.

ولكن، حين تغادر المطعم، يلتف حولك سرب من الأطفال ويقدمون لك رقصة لا تُنسى هي رقصة الفقر ويحاولون بيعك عقودهم من الياسمين الاستوائي والفل نفّاذ الرائحة المزين بشرائط حريرية ملونة، وعدة عقود منها تساهم في إطعام أسرة، وتغطي جسدك بثوب آسيوي من العطر.

★ ★ ★

من الأفضل لك أن لا تكون من فئة الذين يخافون من الأفاعي إذا رغبت في مرافقتي إلى «معهد سوڤانا» لتربية الأفاعي في قلب بانكوك. وهم لا يربون الآلاف منها خصيصاً لتخويفك بل لاستخراج سمها واستعماله في صناعة الأدوية. وبوسعك أن تتأمل ـ عبر الزجاج ـ طبيباً يمسك بأفعى هائلة الضخامة لتنفث سمها في أنبوبه ويحوِّله بعد ذلك إلى لقاح ضدها. إحدى رفيقات الرحلة أغمي عليها وهي تتأمل المشهد ومئات الأفاعي تفور حولنا (من وراء زجاج)!

★ ★ ★

في معبد «وات تريميتر» نرى تمثالاً شاهقاً من الذهب الخالص وزنه ٥٠٠٠ كيلوغرام فقط هو «بوذا الذهبي». وجهه في حالة تأمل مرفّه، وعلى فمه ابتسامة متعالية ساخرة. تُراه يتأمل في أحوال الفقراء ساخراً لأنهم مخدرون بالبوذية ولا يجرؤون على مد أيديهم نحوه؟ عمر التمثال أكثر من ٧٠٠ سنة، وكان مغطى بتمثال آخر من الجص، وانكسر الغلاف الخارجي ـ الذي كان مجرد قناع ذكي لحماية الذهب من عشاقه الكثر ـ وانكشف عن التمثال الآخر منذ أعوام قريبة. وتروي الدليلة لك هذه الحكاية، ولكنك لا تتعاطف مع بوذا الذهبي الثري الذي نجا من السرقة بخدعة كحكاية ألف ليلة وليلة. إنك ببساطة تشعر أمامه بالحسد، والغيرة من ثرائه الفاحش، وربما بالغضب: ها هي ما زنتها خمسة أطنان من الذهب مجمدة أمامك باسم العبادة في وثنية كريهة. وثمة من يشجع هذه الممارسات ويحض عليها، لأنها تساهم في تخدير الجياع وإلهائهم عن كنوزهم المادية والبشرية والإنسانية... خُمس سكان هذا البلد ينامون بلا عشاء والوثن من ذهب وماس!...

★ ★ ★

في معبد «وات بو» نلتقي بالأخ بوذا ممدداً في صورة تمثال مطلي بالذهب طوله ٤٩ متراً وارتفاعه ١٢ متراً ورأسه يستريح على أزهار اللوتس وفي وجهه هدوء الأثرياء ولامبالاتهم. . .

ولكن الغرائب في الطريق إليه تطفو فوق الذاكرة. . . ففي أحد المداخل حيث الحراس تماثيل حجرية، وحشية وآدمية، هنالك عفريتان حجريان ساخران يرتديان ما يشبه قبعات السموكن، كأنهما عفريتان بورجوازيان خارجان من حفلة صاخبة معاصرة، وقد مسخهما إلى حجر ساحر فقير وجائع. وفناء المعبد عجيب غريب. . يحتوي فيما يحتوي على سوق لبيع الفواكه الاستوائية والثمار واللحوم المقددة للسلاطعين والأفاعي وأسماك القرش والحراذين والنمل وغيرها. . .

ابتعدت قليلاً عن الرائحة النفاذة شبه الخانقة المتدفقة من هذه البضائع العجيبة. فتقدم مني رجل يحمل أفعى طولها متران ونصف، وعرضها يعادل عرض ذراعي، وعَرَض عليَّ أن يطوق بها عنقي! وتركته يفعل ذلك واستسلمت لعدسات رفاق الرحلة. وحين قرَّعوني فيما بعد على ذلك قلت لهم: ما دام هو ممسكاً بها، فلا ريب في أنه لم يغامر وإنما انتزع سمها. وقالوا: ولكن ملمسها رهيب وقد تلتف على عنقك وتخنقك. قلت: ولكنه ليس أكثر فظاعة من ملمس بعض الناس، وخنقهم «الودي» لنا!. . .

كانت هذه أكبر أفعى أمسكتها في حياتي، وقد أعادت إليَّ ذكرياتي في قرية «الشامية» قرب دمشق، حيث كنت أطارد الأفاعي وأمسك بها لأخوّف بها الصبيان «الملاعين». . . وامتلأتُ بدفق فرحة طفولية منسية. . .

★ ★ ★

بوذا ثري وكهنته فقراء والناس جياع. . . الكهنة يتسولون طعامهم كل يوم من الناس الأكثر فقراً منهم، وبوذا يرفل في حلله الذهبية، أو المنحوتة من أحجار كريمة، مثل «بوذا الزمردي» المنحوت في صخرة نادرة من حجر الجاد الثمين، والذي شاهدته في «معبد بوذا الزمردي» وحوله كهنته ورعاياه.

فالكهنة هنا صعاليك حقيقيون، غارقون في الصمت والفقر والساري الأصفر والبشرة المحروقة إكراماً لبوذا أو للكسل الجسدي والعقلي بذريعة الدين. ١٣ ألف «راهب» بوذي يقرعون أبواب الناس كل يوم متسولين طعامهم. نراهم في الشوارع ووسط المزارع يحملون أوعية خاصة بـ «الشحاذة»، ويتسولون طعامهم وشرابهم ويقدم الناس إليهم أزهار اللوتس أيضاً. ولكنهم لا يأخذون نقوداً أبداً. وكل تايلاندي من

البوذيين يساق إلى الخدمة الدينية الإجبارية لمدة ٣ أشهر في حياته يتسول خلالها طعامه وشرابه، وبعضهم يتابع ذلك بقية حياته. وإذا علمنا أن ٩٤٪ من السكان هم بوذيون، ندرك مدى هذا الرعب التخديري الذي يتعرض له الذكور هناك تحت شعار «الدين»، بينما النساء يعملن باستمرار لإعالة هذا الجيش من العاطلين عن العمل باسم الدين. . .

آه، الوثن من ذهب وماس، والناس جياع. . . والقلب لا يملك إلا غصة حزن أمام أي امتهان لإنسانية الإنسان في أي موضع من كرتنا الأرضية. . وتحت أي شعار.

١٩٨٠/٥/٣٠

بانكوك: سوبرماركت للموت ومعلبات للغفران

نحن الآن في مكان شاعري ولطيف يغص بأزهار اللوتس. إنه «محرقة الجثث»! في تايلاند لا يدفنون موتاهم، وإنما يحرقونهم. ورماد الموتى يلقى معاملة خاصة من بوذا إذا كان «الفقيد» ثرياً، وينتظر رماده برنامج حافل قبل أن يُنثر فوق الأنهار والجبال. أما الفقير، فينثرون رماده فوق تلال النسيان بلا طقوس، إلا إذا استدان ودفع!

رماد الغني يوضع في علب خاصة توجد في قاعدة تماثيل بوذا. ويحفظ هناك زمناً يطول أو يقصر وفقاً لثروته. ولكل تمثال من هذه التماثيل تسعيرة خاصة، ولكل علبة إيجارها. . وهكذا، شيئاً فشيئاً تتضح الصورة الاستهلاكية البشعة المختبئة خلف قناع الغرابة. تماثيل بوذا المنتشرة في المعابد (٣٥ ألف معبد في بانكوك وحدها) هي بمثابة سلسلة تجارية كثيرة الفروع لـ «سوبرماركت» الموت ولوازمه من معلبات البركة والغفران وغيرها. . وخلف هذا المظهر «الديني» الأسطوري هنالك تعاونية لدفن الأموات ومافيا لبيع صكوك الغفران، وهذه التماثيل الذهبية والمعتقدات الغريبة والأماكن الخرافية الأجواء، صارت اليوم تخدم وظيفة استهلاكية في مجتمع بدائي الطقوس. . . وحينما نعلم أن دولاً أجنبية تهيمن على الحكم هنا، ندرك هذا الحلف الجهنمي بين جمعية المنتفعين من بؤس الشعب التايلاندي وتخلفه الفكري وسقوطه في فخ الممارسات الوثنية والغيبيات والخرافات، وبين القوى الخارجية التي لها مصلحة مباشرة في الحفاظ على الشعب مخدراً جاهلاً وثنياً.

* * *

في الأيام الأولى أذهلتني غرابة بانكوك، ثم اكتشفت أن الغرابة قناع يفرح له السواح، ويضمن بقاء الشعب واقعاً في شبكة عالم شبه سحري، مخدراً بأوهام دينية وثنية وببقية معتقداته المروعة عن الأرواح وغيرها. . فبيوت الأرواح منتشرة أكثر من الأفران. وفي كل حي عدة بيوت تترك خاوية تماماً لتسكنها الأرواح، إذ يؤمنون بأن لكل شخص روحاً تحميه وهو يقدم لها الطعام والشراب والأزهار ويعتمد عليها كلية، ولا يفكر أحياناً بحمل العلم سلاحاً يحميه بدلاً من «الروح».

وأعيادهم هنا مكرسة لمتابعة «برنامج التخدير» الذي يشرف عليه خبراء.

فالكراسات السياحية تروج أكذوبة «الابتسامة التايلاندية» دون أن تذكر أنها أكثر حزناً من ابتسامة الموناليزا، ثم تباهي بكثرة الأعياد، وبأنهم يحتفلون بأعيادهم الخاصة بالإضافة إلى الأعياد الغربية. . . وهكذا فالوقت الذي لا يقضونه في التخدّر بوثنيتهم، يقضونه في الاحتفال بأعيادها. وخوفاً من توفر الوقت لإعادة النظر، لا بد من تخدير العقل جماعياً بأعياد العالم الغربي أيضاً. . . وهكذا يشعر الإنسان بالكآبة وهو يرى هذا الشعب الطيب يحيا في ظـل مـا يشجعـه على الخروج من العصر والعيش في عالم مزيف من الأساطير والرؤى. وتتلاشى غرابة الصورة تماماً حين تتضح الحلقات الجهنمية من التحالفات التي تكمن وراءهـا. . . وهكذا، بعـد أيام، يصـير للمرئيـات كلها معنى آخر. .

★ ★ ★

في معبد «وات سوذات»، نرى ١٦٠ تمثالاً مذهباً لبوذا تمثله جالساً فوق قاعدة ضخمة، وهي مصفوفة على طول الجدران كالعساكر.

هذا المشهد معناه وجود مئات العلب الخاصة بحفظ رماد الأموات الأثرياء والتي توجد عادة في قاعدة التمثال! . . . وبدأت أحصي عدد العلب في كل تمثال، وايجارها التقريبي، وبالتالي ما يدرّه هذا المكان من ربح سنوي مقابل بيع البركة للرماد مع وعد بأن يكون تقمصها المقبل في جسد أفضل! . . .

أماكن عبادة كهذه، عليك أن تزورها مزوداً بآلة حاسبة! الدولار هنا هو السيد، وهو المعبود الحقيقي الجالس كضمير مستتر داخل تماثيل بوذا. (كل دولار يعادل ٢٠ باهت، والـ «باهت» هو وحدة عملتهم المحلية)، أما الدولار في لبنان فيعادل ٣ ليرات ونصف فقط.

★ ★ ★

حلم.

ها هو تنين ذهبي يركض على صفحة نهر «تشاوفيا». طوله حوالى ٥٠ متراً. بعد قليل أتبين فيه مركباً جميلاً مذهباً فيه عشرات الرجال بثياب أسطورية حمراء وخوذات ذهبية، وهم ينشدون ويحركون المجاذيف على ايقاع غنائهم. إنها «سري سوبانا هونجز» أي البجعة الذهبية التي يستقلها «ملكهم» في الأعياد. وهي دونما شك أجمل «يخت» ملكي في العالم بنقوشها المذهبة، وبجعتها التي تشبه التنين اللطيف ترتفع برأسها حوالى ٩ أمتار فوق سطح الماء وتتهادى كحلم. . .

وحين يصير القمر بدراً في شهر نوفمبر، ويعتدل الطقس - نسبياً -، يخرج أبناء المدينة هنا إلى طرقات الليل للاحتفال بالقمر. . . يأتون بأوراق الموز، ويصفون داخلها أزهار اللوتس حول شمعة في الوسط، ثم تضاء الشمعة، ويترك هذا كله على وجه النهر كمركب صغير أخضر، فيطفو وتجرفه المياه الهادئة وتركض ملايين الشموع في موكب مسحور من أزهار اللوتس على الصفحة الليلية السوداء وتتعالى الأغاني. . . ترى هل يأتي يوم يشعلون فيه هذه الشمعة، لمباهج التطور بدلاً من الخرافات؟

★ ★ ★

أنا في الطريق إلى شاطىء «باتايا»، جنة السباحة والغطس - كما يلقبونها - وتقع على مقربة من كمبوديا. وفكرت: «سأرى التماسيح البشرية وهي تتشمس وتطارد ذيلها فوق الرمال وتسبح. ولكن لماذا لا أذهب لرؤية تماسيح حقيقية غير متنكرة في هيئة آدمية؟». وهكذا طلبت من السائق «بيون» أن ينعطف بي إلى ضاحية «ساموتبراكرن» حيث توجد أكبر مزرعة للتماسيح في العالم، وتضم ٣٠ ألف تمساح.

المكان حار جداً، فيه أزهار استوائية فاحشة الحمرة والجمال، وفيه فيل لطيف، وقرد يركب دراجة ويداعب الأطفال.

أتجول بين آلاف التماسيح، وأرى لبعضها وجوهاً بشرية أعرفها. تخرج إليَّ من الماضي وجوه نسيت طعناتها، فترتدي أجساد التماسيح التي تليق بها، وتتابع بكاءها العتيق وهي تلتهم ضحاياها. . وأرى تماسيح كثيرة التهمتني وأنا راضية، وقمت بعدها من موتي ليلتهمني سواها. . . ثم استيقظت من خواطري هذه على مشهد مرعب. . كان هنالك رجل شبه عار يقف بين التماسيح في حفرة، وخيل إليَّ أنه سقط بينها. وقبل أن أصرخ مرتاعة، لاحظت أنه يقدم استعراضاً عجيباً. . . إنه يضرب التمساح ويمرغ رأسه وأنيابه في الطين. ها هو الإنسان البدائي يمارس سلطته الاستعراضية على كائنات الطبيعة، والناس بين مهلل ومصفق. ها هو يقلب التمساح على ظهره، ويركب تمساحاً آخر يسبح به فيهتف المتفرجون بحياته، ويقذفون إليه بنقودهم. وها هو التمساح يتعلم، فيلتقط الدولار بفمه، وينحني للسادة شاكراً!. . أشفقت على الرجل الشجاع وربما المذعور: ما الذي لا يفعله الإنسان لتحصيل قوته وقوت أسرته! ويا لها من مهنة خطرة حين تدخل رأسك داخل فم التمساح لتلتقط رزق أطفالك!. . لعن الله ذل الفقر.

لا تضع حقيبة يدك على الأرض هنا، كي لا تقرر احتلالها رتيلاء سوداء، وتحوّلها

إلى مسكن كما فعلت بي رتيلاء لطيفة «صافحتها» في حقيبتي حين مددت يدي لإخراج الكاميرا وتصوير «الشيخ والتمساح»!

★ ★ ★

وسط هذا الحر اللافح، تحس بالعطش إلى الماء بالذات. لكن الماء ملوث هنا، وقد حذّرونا من شربه. وتضطر إلى شرب الكوكا كولا وماء جوز الهند، وتتساءل غاضباً: أولئك الرهبان العاطلون عن العمل، لماذا لا يبنون مصنعاً لتنقية المياه وتوضيبها في زجاجات بدلاً من التسول؟ (يبدو أنني مصرة على إيجاد عمل لهم قبل أن أغادر بانكوك!).

نودع بانكوك بلقاء أجمل ما فيها: «السوق العائمة». وهي سوق للبيع والشراء فوق وجه الماء في منطقة «كلونغ» أي القنوات. بانكوك تلقب أحياناً بـ«بندقية الشرق الأقصى» أو «ڤينيسيا الشرق» نسبة إلى مدينة البندقية الايطالية التي شوارعها قنوات مائية يتجول الناس فيها بالجندول. ولكن الفن الأرستقراطي في مدينة البندقية يحل محله هنا مشهد بدائي مدهش الفرادة والمذاق بعفويته.

ها نحن نخترق «شايناتاون» - الحي الصيني - ونستقل مركباً يمضي بنا إلى عرض نهر «تشاوفيا» ثم ينعطف، وبعد دقائق نجد أنفسنا وسط عالم مذهل. ها هم الفلاحون يحملون محاصيلهم، ويمضون في الطريق التي عرفوها منذ أقدم العصور: النهر. إنهم يرفضون الشوارع المعبدة والسيارات، ويفضلون درب أجدادهم العتيقة، متابعين تلك الملحمة المائية عن استمرارية الحياة وتلونها وحرارتها المذهلة البساطة والتعقيد في آن معاً.

بعضهم اتخذ من مركبه بيتاً، وها هو الطفل العاري تماماً لأحدهم يلوّح لنا وعلى رأسه قبعة، وها هي زوجته تنشر الغسيل على حبل ممدود بين سارية المركب ومقدمته، ورائحة طعامها تهاجمنا ببهاراتها النفاذة. مركب آخر فيه صبيّة تنظف أسنانها مستعينة بماء النهر الوسخ، وإلى جانبها وعاء يجمعون فيه ماء المطر للشرب. عشرات المراكب محملة بأطايب الفواكه الاستوائية بأشكالها الغريبة التي نجهل أكثرها. . . امرأة في مركب صغير هو بمثابة «تاكسي نهري» وقد جلس الزبون تحت مظلة بيضاء تقيه الحر. الصبية يسبحون ويتسلقون زورقنا متسولين. . أحدهم يحاول بيعي حرذوناً كبيراً وينجح في ذلك.

يمر بنا موكب من المراكب، مثل قبيلة من بدو النهر الرحل، راكضة بخيامها الخشبية على صفحة الماء، وسكانها يمارسون التفاصيل اليومية الحميمة لحياتهم تحت

الشمس، دونما سرية أو ارتباك، ونحن نراقبهم ونرتبك قليلاً. لكن ذلك الرجل يتابع حلاقة ذقنه أمام مرآة مكسورة، وطفله يتابع قضاء حاجته، وزوجته نصف العارية تغسل الثياب، وكهل يتمطى متثائباً وقد فتح فمه كتمساح سعيد، والتمعت تحت الشمس أسنانه الذهبية، وكلب صغير يتمسح به ويهز لنا ذيله. ومركب آخر يكاد يصطدم بمركبنا كي يبيعنا ٢٠ نوعاً من الموز وفاكهة لم نر مثلها من قبل تدعى «السومو» (تشبه الجريب فروت) وأخرى تدعى «نجور» تشبه الفريز و «اللاموت» البنية بطعم التين و «دوريان» ذات الأشواك، هذا إلى جانب المانغو والأناناس وسواهما. وحين ترفض شراء الفاكهة يعرض عليك شراء زهرة الأوركيدة رمز البلاد، واحدة باهية الزرقة تدعى «فاندا كورووليس» وأخرى عاجية تدعى «سيركيت». وتذعن للغة الأوركيدة!

* * *

بالإضافة إلى غجر الماء المتنقلين ببيوتهم تلوح لنا بيوت طافية مثبتة إلى دعائم خشبية وركائز وسط النهر، وينحدر من بابها سلم طرفه الآخر غارق في الماء وقد ربط إليه مركب هو وسيلة التنقل الوحيدة. وها هي امرأة تهبط السلم حاملة صحائف الطعام، وراهب بوذي يتقدم بمركبه متسولاً ويأخذ نصيبه، لكنه يحاذر أن تمس يده يدها كي لا تدنسه، رغم أنها هي العضو العامل الفعال وهو الطفيلي القابع خلف قناعه الوثني الديني.

يتابع مركبنا مسيرته وسط هذا المهرجان البدائي الذي تحيط به على الضفتين تلك الغابة مفترسة الجمال، بزنابقها البرية الوحشية الألوان، وخضرتها المتفجرة بالضياء والسحر، والأشجار الكثيفة، ومزارع البامبو والرز وغابات جوز الهند والبابايا والأناناس والمانغو والماندارين والجسور والشرفات الخشبية وبيوت الأرواح والباجودا.. إنه عالم روبنسن كروزو المترع برائحة البداءة وزعيق الطيور الملونة وواحات الضوء والعتمة، الحيوية والغموض، وأراجيح النيام والمراكب التي نبتت على خشبها أعشاب وأزهار وأصوات.. إنها لوحات روسو البدائية بغاباتها المدارية أمام عينيك كيفما تلفت، ورقصة اللون في الماء لوحات مونيه ورينوار: أي تطابق بين ذروة العفوية، وذروة العطاء الفني الراقي الخالد! ها هو رجل على الضفة يبني طَوْفاً، وآخر يركض عارياً بين الأشجار فتظنه أبانا آدم. وتكاد تنسى عصرك لولا أسلاك الكهرباء بين الأشجار، وذلك البراد الذي نراه وسط أحد البيوت أو تلك الساعة أو ذاك المذياع. يخفق القلب كأن موسيقى سرية تعزف داخله وسط هذا السحر كله. ولكن، ثمة رجل لم يرفع رأسه عن جوزة هند وهو منذ أول الزيارة إلى السوق يتابع تقشيرها بإتقان وشرب عصيرها على مهل ثم قصقصتها والتهامها قطعة بعد أخرى دون أن يرفع رأسه عنها كأن الكرة الأرضية في عينه

جوزة هند يأكلها! ما أشد غربتي حين أرى أشخاصاً مثله!

وأخيراً يرسو المركب، وأهبط، فتطالعني سوق أمضي نحوها. هنالك فيل يتأملني متفحصاً، وقرد يتأملنا معاً ـ الفيل وأنا ـ بضجر. وفجأة بدأ الفيل يطلق صيحات الغابة بصوت مرعب ـ بينما كان صاحبه يحاول إقناعي بركوبه ـ وخفت، لكن القرد لم يخف، وتأمل القيد الحديدي للفيل باحتقار، وصار يقلد صيحاته المزمجرة ساخراً!

في المرة الثانية، رسا المركب أمام باجودا هائلة الارتفاع هي «معبد الفجر» ـ رمز بانكوك كما برج إيفل رمز باريس ـ طبقاتها محمولة على أكتاف تماثيل عفاريت ووحوش لها وجوه عابسة، وأخرى ساخرة. تزين الباجودا ملايين من قطع الخزف الزاهي والبورسلين البديع قدَّمها أهل المدينة يومئذ من صحونهم الفاخرة وتم كسرها وإلصاقها وها هي الآن تضيء تحت الشمس بآلاف الألوان، الخارقة الايحاء، البسيكاديليك.

* * *

لا تصدقوا أنني أحدثكم عن بانكوك، فأنا لست دليلاً سياحياً محايداً.

لا يوجد شيء اسمه بانكوك حقاً، أعني بانكوك واحدة لكل الناس. إنني أحدثكم عن ارتسام بانكوك في مرآة روحي، فإذا ذهبتم ووجدتم مدينة أخرى لا تلوموني، فهذا معناه أن مرآتكم مختلفة عن مرآتي، وموجة بثي الروحية شيء آخر. . وما يبهرني لا يستحق منكم رفع رأسكم عن «جوزة هند» تلتهمونها!

لا توجد حقاً لندن واحدة مثلاً بل ملايين اللندنات. كل مدينة هي ملايين المدن، بعدد الناس الذين زاروها. وكلما زارها ضيف تناسلت وصارت مدينة إضافية. مع المدن لا حياد، والموضوعية أكذوبة، ولن نبدأ رحلتنا معاً بكذبة!

ويميل الناس أحياناً إلى تجميل صورة المدن التي شاهدوها ما داموا قد تكبدوا نفقات الانتقال إليها وعناءه تجنباً للشماتة أو للشفقة على الذات! ويحدث العكس أحياناً، حتى إننا نميل إلى تعظيم مساوىء مدينة ما انتقاماً منها بعدما خاب أملنا فيها وأنفقنا نقودنا هدراً.

وأعدكم بأن أحاول قدر الإمكان عدم السقوط في أحد هذين الفخّين.

* * *

سألتني الدليلة كايڤالين دافيدسون: هل تذوقت «ويسكي الرز» المحلي؟ قلت لها: أشكرك. إني ثملة بالحياة، ولست بحاجة إلى الكحول ما دام دمي مصنوعاً منها! . . .

١٩٨٠/٦/٧

هونغ كونغ: اطلبوا الحب ولو في الصين

إنه الليل المفعم بالغصات والمخاوف، المترع بشهوات غامضة، ليل طائرات ما بعد منتصف الليل، حين تهبط مع الفجر المغبر في مطار مدينة جديدة، ويصير اسمك: ترانزيت.

في مطار هونغ كونغ، سألني الموظف عن اسمي، فقلت له: ترانزيت. وحين فتش جيوبي وجدها محشوة بحصى الغربة الملوّنة والضباب، وحين فتح حقائبي طارت منها كلمات الحب فراشات ملونة، وهبت منها روائح الغابات وبخور الجزر الاستوائية... وحين فتش قفازاتي البيض المخرمة، وجد فيها يد حبيبي، وحين فتش عيني وتحت جفوني رأى صورته... فتركني أمر، وحياني بتنهيدة!.. ولكنهم لا يفعلون ذلك إلا مع أحفاد ابن بطوطة أمثالي، الذين أنعم الله عليهم بمصيبة الحب: حب الترحال...

السيدة الأنيقة الواقفة أمامي، تم تفتيش حقائبها بدقة زوج مخدوع يفتش مخدع زوجته ليلاً بعد عودته من السفر فجأة!... لقد قلبوا ثيابها قطعة بعد أخرى، ولم يتركوا نملة تختبىء، أو كلمة منسية في مفكرتها إلا وقرأوها. وحتى الكلمات قلبوها وفتشوا تحتها على الورقة، ثم فتحوا علبة البودرة واستنشقوا رائحتها وذاقوا طعمها، ثم فتشوا تحت قبعة السيدة: وداخل كعب حذائها وتحت أظافرها الطويلة. أحد رفاق الرحلة كان قد اشترى سيفاً أثرياً جميلاً من بانكوك، فصادروا السيف واحتفظوا به برسم الأمانة كي يحمله معه حين يغادر المدينة. إنهم يكرهون دخول الأسلحة إلى هونغ كونغ حتى ولو كانت أثرية... أو مصيدة فئران!

* * *

في الطريق من مطار «كاي تاك» إلى الفندق، تتدفق من خزان الذاكرة تلك الصورة البشعة التي طالما رسمتها السينما الأميركية لمدينة هونغ كونغ... مدينة العنف والشراسة والقتل والمخدرات والجانحات والمافيا والجنون والدم... المدينة التي لا ينجو منها إلا «جيمس بوند» المغوار.. وتتحسس عضلاتك التي قد لا تصلح لغير حمل قلم «بيك» وينتابك خوف طفولي... تتخيل شرطة السير أعضاء في مافيا تلاحقك، وأنت

لن تصدق تنكرهم هذا. . . إنهم يتحدثون في «التوكي ووكي» بعد مرورك لـلإنذار بوصولك. في الفندق ستجد رتيلاء تحت وسادتك، وأخطبوطاً في حمامك، وتمساحاً تحت سريرك، أما الرجل الذي سيحمل إليك طعامك المسموم، فهو لاعب كاراتيه ويحمل الزنار الأسود للجودو، لكنه متنكر في زي «جرسون». ويستولي الخوف عليك، فتحدق في وجه سائق التاكسي وتلحظ أن الشر المستطير مرتسم على قسماته، وكلما مر بطريق جانبية تتأكد من أنه سينعطف بالسيارة ليقتلك بمسدس مزود بكاتم للصوت. . .

لكن التاكسي يتوقف أمام باب الفندق، والسائق يفتح الباب لك بتهذيب صيني جم عمره ٧٠٠٠ عام، ويحمل لك حقيبتك، وينحني لك كطفل في كنيسة، ويحييك بضم راحتي يديه أمام وجهه في لطف حميم. . .

وتخجل. . . وتشتم المسلسلات التلفزيونية الأميركية، وتشتهي رؤية فيلم صيني الإنتاج، تدور أحداثه في أميركا، ويكشف أنها هي أيضاً موطن العنف، لكنها «تسقِطُ» ذلك على شعوب العالم الثالث، الراكضين خلف رزقهم ـ حتى ولو كانت اللقمة حصيلة تصوير فيلم في مدينتهم يسيء إليها ـ. وتدرك لماذا صوّر المخرج الايطالي انطونيوني أميركا في أحد أفلامه بشعة. . . بشعة العنف والقسوة. كأنه كان ينتقم لعشرات المدن التي عهَّرتها أفلامهم زوراً. . .

★ ★ ★

هونغ كونغ شهية كالخيانة. . . مثيرة كالخطيئة وحزينة كالخطيئة. . . وهونغ كونغ صينية حتى قاع عظامها. «ولدت في هونغ كونغ من أبوين صينيـين، تلقيت علومي الجامعية في أوروبا ثم في أميركا. ولكن مشاعري وجذوري تظل صينية». هذا ما تقوله المصورة الشهيرة بات فوك وما يقوله كل صيني تقريباً. أكرر هونغ كونغ صينية الروح والتراث رغم أقنعتها، لا تصدقوا هذه الأبنية الزجاجية الحديثة. لا تصدقوا ناطحات السحاب الفخمة. . . لا تصدقوا السوق الحديثة المزدحمة بالبضائع والذهب واللؤلؤ. . . لا تصدقوا قشرة أعشاب ملاعب الجولف والكريكيت. . . لا تصدقوا الفندق الأوروبي الحديث. . . لا تصدقوا خارطة الـ «جوكينغ» Jogging في الغرفة، التي ترشدكم إلى درب ما تسلكونها في ممارسة «الهرولة»، كما لو كنتم في نيويورك لا في الصين. . . لا تصدقوا «الراديو التجاري» كما يسمي نفسه والذي يوقظنا كل صباح. . . لا تصدقوا الأسماء الانكليزية المستعارة لسائقي التاكسي حيث يصير «فينغ تشـاو» السيد تـوني، ويتحول «تشويانغ كوان» إلى ويني!. . . لا تصدقوا البارات الأوروبية المظهر. . . لا تصـدقوا حبـة الزيتـون على وجـه كأس «الـدراي مارتيني». . . لا تصـدقوا الهـاتف

الأوتوماتيكي وماكنات الكومبيوتر والبغايا وملابس «السموكن» والشعار الاستهلاكي للفنادق: «ستحصل على ما جئت لأجله!». ذلك كله قشرة على جسد المدينة... قناع أوروبي عصري على جلدها، جهدت بريطانيا لتكسو به وجه مستعمرتها هذه... لا تصدقوا الطائرات الأميركية في سمائها، ففي قاع المياه تحتها، هنالك ٧٠٠٠ سنة من العراقة الصينية، تحيا، وتتحرك، وتفيض، وتغسل وجه الجزيرة سراً وعلناً... وحتى الضباب الصباحي الذي يكسو وجه هونغ كونغ فجراً ليس ضباباً أوروبياً، إنه حرارة أنفاس الصين ورطوبتها، وهي لا تلبث أن تتبخر، لتترك تحت الشمس قطعة من الصين تنبض كالقلب العاري، المسكون بأحزان الشرق وهمومه، بعراقته وحضارته المغرقة في القدم... وهي حضارة تتجلى حتى في الصناعات اليدوية كالحفر على العاج. ناب كامل يحوله الفنان المحلي إلى مدينة ودنيا تزخر بعالم من المنمنمات المدهشة.. تتأمل آلافاً من السنين الحضارية في زجاجات صغيرة منفوخة بالفم. تدهش للأشياء المحفورة عليها كالطيور التي تكاد تحرك أجنحتها، وتشع بألوانٍ كالصدى إذ إنهم يدهنون الزجاجات من الداخل بحذق بديع وريشة خاصة رفيعة وأصباغ.

ويا لسحر الحفر على الجاد (اليشم). بوم أو تنين من الجاد. صناعات يدوية جميلة تتأمل الصيني يتابعها بصبر لا تعرفه سوى الشعوب العتيقة العريقة.

إنهم يطعِّمون الذهب باللون ويزوجونه إلى رسوم باهرة في حرفة «المينا» الصينية، كما ينقشون مشاهد بديعة على خشب المقاعد والطاولات و«الباراڤانات». قطع فنية كاللوحات يطعِّمونها أحياناً بالذهب ملتصقين بالتراث، إذ يرسمون مشاهد صينية تقليدية آتية من الطبيعة في بلادهم: بيت صيني وسط الأشجار، وجسر، وطيور، وقمر، وغابة مميزة الطابع بأشجارها المحلية.

أما الحرفة «اليدوية» الأكثر شهرة في العالم «الكارتيه» فلم أشاهدها بعد ولم ألتق مع بروس لي، بل مع آلاف يشبهونه يهرولون في الشوارع.

★ ★ ★

لا تصدقوا الدليلة «ليندا» وهي تتباهى بأن في مدينتها ٤٥٠ سيارة رولز رويس، وتشرح لكم معنى أن يمتلك أحدهم سيارة رقمها ٨٨٨٨ في دنيا الثراء ما دام رقم ٨ يرمز عندهم إلى المال، وتستفيض لتؤكد أن ثمن رقم السيارة وحده حوالى عشرة آلاف دولار... لا تصدقوا فخرها بقصور المنتج الأول للأفلام هنا وطائراته الخاصة... هذا ليس بصوتها... إنه شريط التسجيل الذي جعلوها تبتلعه في مقابل توظيفها في وكالتهم السياحية كي لا يخدشوا عين السائح بلحظة كآبة شرقية أو حزن

صيني أو جرح نازف. و«ليندا» نفسها، تتحدث الانكليزية بلكنة صينية، حتى لتكاد لا تفهم حرفاً مما تقوله، وإذا لم ترهف السمع، سيخيل إليك أنها تتحدث باللغة الصينية!.. فعادات عضلة اللسان على طول ٧٠٠٠ سنة من التحدث بلغة تأتي من أعماق الرئتين، لا تقوى على مسحها بسهولة لغة جديدة مركزها عضلة اللسان ومغارة الفم فقط. كل ما في المرافق السياحية في هونغ كونغ مكرس لتنسى... لتنسى همومك، لتنسى مسؤولياتك، والأهم، لتنسى أنك في الصين!...

ولكن القناع لا يجدي... وبينما الدليلة تتباهى بالمحاسن «الاستهلاكية» للجزيرة، تتسلل عينك خلسة فترى المراكب الصينية العتيقة (جانكس) بأشرعتها الملونة المرقعة، الكثيرة الطيات كمروحة، وترى بيوت المهجرين الآسيويين. ها هي البيوت من تنك، والخيام من إسمنت، وبؤس يذكر بحزام البؤس الذي كان يحيط ببيروت، حتى غطاها!.. وفي السوق الصينية العتيقة ترى الفقراء، الحفاة. الحلاق الذي اتخذ من الرصيف دكاناً، وقد أجلس زبونه فوق صندوق خشبي، وربط مرآة إلى عمود الكهرباء وتابع عمله وسط زحام المارة. البسطات العجيبة حيث تبصر أعشاباً صينية لم تر مثلها من قبل. الباعة الفقراء، والزبائن الأكثر فقراً، وتتعالى أصوات «المفاصلة» والمساومة وتهب مع روائح ذبائح عجيبة غريبة لتتدفق عبر السلال القشية والقبعات الشاسعة التي يغطيها أحياناً قماش ما فتبدو كمظلة مثبتة إلى الرأس، ويبدو الصيني المهرول مثل مظلة ماشية على ساقين قصيرتين. وترى بسطات الأزهار البرية الشبيهة بأشواك ملونة، ويمر بك رجل يحمل على كتفيه عصا وقد تدلى من طرفيها حبلان رُبط إلى كل منهما وعاء قشي كبير مملوء بالثمار والخضار... وهو يركض بأثقاله هذه مصدراً أصواتاً كأصوات الطيور الاستوائية، لكنك تفهم أنه يريد أن تبتعد عن دربه... وتكاد تتعثر به وأنت تتأمل طريقتهم العجيبة في كتابة أسماء المخازن على أعلام ملونة تتطاير في الريح...

وبينما الدليلة تسترسل في وصف محاسن المرافق «الاستهلاكية» للجزيرة، وتكاد تقنعك بأنك في لندن نفسها (وهو أمر لا ترغب فيه الآن)، تقع نظراتك على حاوي الأفاعي الجالس مقابل حديقة «تايجرز بالم» (حديقة كف النمر)، وتمر به، فتحييك أفاعيه راقصة بلطف وقد مدت جسدها إلى الأعلى مثل نباتات أسطورية حية، وإذا وجد أنك في «حالة تجاوب» فإنه يبدع حقاً في العزف على مزماره، وتحس ألحانه كالأفاعي الشفافة التي تتسلل إلى روحك، وتشعر بلحظة غبطة كونية، وبحب نحو كائنات الله كلها بما في ذلك الأفاعي، وتدرك أن الكهارب التي تشع منك في لحظة الحب هذه، ستمسّ حاسة ما مجهولة في الأفعى، وستقبّلك دونما «عض»... وستفهم كيف استطاع «أورفيوس» بموسيقاه تطويع أبالسة الجحيم.. وستدهش لماذا يكره الناس الأفاعي

والبوم رغم حاجتهم الماسة إليها. فالناس بحاجة إلى الأفعى لتبرئة أنفسهم واتهامها هي بالخطيئة... وبحاجة إلى البوم لاتهامه بالشؤم!.

★ ★ ★

نحن الآن في مطعم صيني، وقد قررنا التهام وجبتهم المحلية الشهيرة «ديم سوم». الشوكة والسكين من الكلمات المنقرضة هنا. الأكل يتم بالعصي.

في مطعم آخر أحضروا لنا حساء أولاً. هجم عليه رفاق الرحلة، وكان طعمه لذيذاً وظنناه «حساء الدجاج» مع حبات من الذرة، حتى أن أحد الرفاق قرر أن يطلب إلى زوجته طبخ حساء الدجاج مع الذرة منذ الآن فصاعداً...

وبعد أن التهم كل نصيبه، تناولت قائمة الطعام الموجودة على المائدة وقرأت لهم اسم الحساء: «حساء القردة». وحين قلت لهم ذلك، أصيب بعضهم بالهستيريا، وركضوا إلى الحمّام وعلى رأسهم الزوج المتحمس!!... وبعدها استنكف من استنكف عن متابعة العشاء. أما أنا فقد التهمت كل ما قدموه لي من عجائب فيما بعد، لكنني لم أجرؤ على قراءة بقية قائمة الطعام!!...

بالمناسبة، حساء النمل ولحم القرود والكلاب والأخطبوط وسمك القرش والسلاطعين والحراذين والضفادع تقدم في لحظات المبالغة بإكرام الضيوف، أما الحلوى فمن الجراد والحشرات بالسكر أو بدت لنا كذلك.

★ ★ ★

في الصين معجزة صغيرة اسمها «شاي الياسمين». كأنك تشرب بياض الياسمين وحنان رائحته ودفء نكهته.. كأنك تمتص في قطرة واحدة شجيرة ياسمين بأكملها، وبكل ما فيها من عذوبة واحتضان. وأنا ابنة مدينة الياسمين، دمشق...

حينما أشرب «شاي الياسمين» أشعر كأنني دفنت وجهي في أحضان أمي دمشق، وأشم رائحة طفولتي فيها، فأنام بسلام، حتى ولو كنت قد ابتلعت قبلها «وجبة» صينية فيها ما لذ وطاب (على طريقتهم)، ونتج عنها مغص ما... مغص جسدي أو مغص نفسي... لا أدري!

لا تنسَ زيارة المطعم الصيني الشهير المركب: «جامبو».. ولا تقرأ قائمة الطعام بل التهم ما يقدمونه لك فهو شهي أياً كان.

★ ★ ★

ذهبت بنا الدليلة إلى مخزن كبير فيه البضائع الصينية التي يمكن أن تشتريها في أي

مكان. في الطابق الأخير منه يبيعون شاي الياسمين والأعشاب الصينية والعقاقير الخاصة بهم.

لاحظت وجود نبتة في إناء شفاف، شكلها غريب كما لو كانت طفلاً لم يكتمل نموه ثم جف بعد أن قددوه في ضوء القمر فصار نباتاً غريباً. طوله حوالى ٣٠ سنتيمتراً وثمنه يعادل عشرة آلاف ليرة لبنانية (أي ٣ آلاف دولار تقريباً).

إنها «عشبة الحب»، وبعبارة أخرى، عشبة «رجوع الشيخ إلى صباه».. فليس مهماً أن يبقى الإنسان على قيد الحياة.. الأهم أن يظل على قيد الحب!... حاولت أن أحاور البائعة... أن أقول لها إن الحب تدفق نفسي لا مجرد تصلب عضلي... أن أسألها هل هنالك حقاً من يدفع نقوده ليشتري عقاراً كهذا... حاولت أن أقول لها إن «عشبة الحب» تنبت من الداخل... واكتشفت أنها لا تفهم أية لغة غير اللغة الصينية... فاسترحت، وقلت لها ذلك كله باللغة العربية، وكانت تجيبني باللغة الصينية، وهي تبيع عشرات الزبائن المسنين بينهم بعض الشبان... وأنا أتابع استجوابها وهي تجيبني بالصينية وتضحك. وكان ذلك الحوار أجمل ما عشت في رحلتي، وربما أكثر «حواراتي» تفاهماً ووضوحاً في العام الأخير!... حينما نتحدث عن الحب، لا يمكن للحوار إلا أن يكون هكذا، إذا كان صادقاً!... تريدون أن أترجم لكم حوارنا؟ لقد قالت لي بالصينية التي لا أفهم منها حرفاً واحداً ما موجزه: «اطلبوا الحب ولو في الصين»... وحين قلت لها: «اطلبوا العلم ولو في الصين»، مدت لي لسانها ساخرة وجمعت طيور الشارع كلها لتضحك مني! لكنني ظللت مصرة على أن «عشبة الحب» لا تنبت إلا في القلب! وما تبقى تفاصيل هامشية!

★ ★ ★

أنا في حجرة زجاجية تركض بي بين السماء والأرض. إنه «تلفريك» حديقة «اوشن بارك». في القاع، يطالعني الجمال الخارق لعناق زرقة البحر وخضرة الجبال مسودة الصخور وأساطيل الصيد الملونة الأشرعة.. وقد تناثرت هنا وهناك جزر وهاجة الخضرة من تلك التي تزخر بها الشطآن الجنوبية للصين... الجبل الذي سأسقط فوقه وأموت ـ إذا انقطع حبل التلفريك ـ مكسو بأشجار داكنة الخضرة، وقد رسموا فوقها بعشب أقل خضرة رمز الحديقة: حصان البحر... إنه يغطي نصف الجبل تقريباً وتتخيله حياً يتحرك وقد ارتدى ثوباً من أعشاب البحر، وهو في طريقه إلى البحر من جديد بعد أن تعب من حمامه الشمسي!...

هونغ كونغ باهرة الحسن وكأنها عروس بحر غضبت عليها الآلهة وحولتها إلى

جزيرة... الجزء الثاني من هونغ كونغ يدعى كاولون، وهو شبه جزيرة ملتصقة بالصين الأم. يربط بين هونغ كونغ وكاولون نفق حديث تحت البحر، لكن المراكب العتيقة لا تزال تلعب دور التاكسي بين شطري هونغ كونغ.

كاولون تشبه بأسواقها بيروت ما قبل الحرب... ولكن فورة الازدهار هذه، المحاطة بحزام بؤس من اللاجئين والفقراء، تجعلك تخشى من انفجار ما.. وتدرك أسباب التفتيش الدقيق في المطار الذي يخضع له كل داخل إلى هونغ كونغ... إنهم ببساطة يخشون شيئاً ما.. إنك لا تستطيع تمثيل «مسرحية الازدهار» داخل ديكورات الرفاهية المزيفة أمام آلاف من «أهل البيت» الجائعين والمتعبين!...

* * *

البارود والورق... القلم والرصاصة...

ترى هل هي مصادفة أن أهل الصين هم أول من اخترع البارود وأول من اخترع الورق؟... كأن الزواج بين البارود والكتابة محتوم بطريقة ما... آه، متى تتطور البشرية نحو الإنسانية ويتم الطلاق بين البارود والكتابة، ونحوّل البارود إلى حبر ـ باختراع ما ـ؟ متى تنتهي مرحلة «السيف أصدق إنباء من الكتب»؟.

١٩٨٠/٦/٢٠

هونغ كونغ: قناع غربي على وجه صيني!

هذه أيامنا الأخيرة في الصين. . .

إنها مكرسة للوداع. ووداع المدن كوداع الحب: لحظات شهية الصدق، كثيفة الفضول، بالغة التوتر. تختزل فيها التفاصيل التافهة، وتنسى المضايقات الصغيرة، وتتعامل مع الجوهر.

في لحظات الوداع تتألق البصيرة، وتتوهج الروح محاولة اقتطاف آخر زهرة على شجرة الحب. .

في الوداع نحن لا نودع حقاً. . . إننا نزداد التصاقاً بالمحبوب، وبعد أن نمضي ندهش: آه، كيف مضينا؟ كأن الفراق أكذوبة اخترعناها لإنعاش حاسة الحب! . . .

★ ★ ★

إنه الليل،

فتعالوا نطل على هونغ كونغ من أعلى قمة فيها وأجمل موقع: «فيكتوريا بيك». أستطيع أن أرى رؤوس الأشجار التي تغطي الجبل حتى السفح، مرقطة بظلال مقمرة. . . وفي القاع تبدو أضواء كاولون وهونغ كونغ مثل مجوهرات تطرز ثوب غجرية، نزلت تستحم في بحر الصين ولم تعد. . وبقيت حليها الخرافية وحلتها تضيء أطراف الليل والمدينة. . .

يقول الكراس السياحي إن هذا المشهد هو واحد من أجمل ثلاثة مشاهد في العالم. وترك الكراس أمر المشهدين الباقيين مفتوحاً. (قررت أن المشهدين السريين الباقيين هما: مشهد وطنك الأم كيفما كان، ووجه الحبيب أينما كان). . .

لنحاول وصف المشهد بطريقة مباشرة فجة: إنه جميل مثل بطاقة سياحية (كارت بوستال).

هذا المكان الشهير، طالما شاهدناه في السينما مسرحاً لقصص الحب العنيفة. إنه المكان المفضل لدى مخرجي «الدراما» العاطفية. (تذكرت تلك الأفلام التي شاهدتها

صغيرة، يوم كنت لا أزال أبكي في السينما سراً لعذاب العشاق، ولا أجرؤ على مسح دموعي في الظلمة كي لا يكتشف والدي فضيحة أنني عاطفية!). ها أنا أقف هنا خارج السينما، خارج الأكاذيب، وحيدة وشرسة مثل فراشة قرضت شرنقتها وغادرتها... ويتدفق ذلك الزمن العتيق إلى قاع الوادي كشلال سري من الظلمات... ها أنا أقف حيث حلمت بقصص الحب كلها، لكن السحر الوحيد الذي يستولي عليَّ هو «سحر السقوط» الذي ينتابك في الأماكن المرتفعة!.. هنالك إفريز حجري من المفترض أن يقينا من السقوط في الهوة الجميلة، وقد تعانق فوقه عاشقان سقطا في «هوتهما الخاصة»، وأنا أقف فوق الإفريز إلى جانبهما لكنني أحدق في القاع وأتذوق سحر الهلع... إن التحديق من مكان مرتفع هو تماماً كالتحديق في الحب.. جذاب. مخيف. إن أفواهاً لامرئية تناديك بصوت الريح كي تقفز.. شيء ما يشدك لممارسة احتضان مستحيل: احتضان الجمال اللامتناهي، لا احتضان مجرد كائن آخر جميل.. وتقف مذهولاً ممتلئاً بجاذبية القاع، وترى أضواء أساطيل الصيد، والمراكب المبحرة الغامضة، وكل سفينة مشروع اكتشاف كوكب وجزيرة، وكل مركب ضوء، وتزداد شهيتك للقفز لامتلاكها مرة واحدة. وها هي لمسة يد بشرية على كتفك توقظك من ذلك كله. تشهق وتلتفت. إنه الدليل يؤنبك على شرودك، فأنت تخالف قواعد السياحة على الطريقة الأميركية: كان من المفترض أن تهرول وتلتقط لنفسك صورة أمام المشهد (دون أن تنظر إليه غالباً!) ثم تهرول عائداً إلى «الباص»، وفيما بعد، تتفرج على الصور لترى أين كنت، لحظة نظرت ولم ترَ (!)...

★ ★ ★

عامل قلبك كما لو كان مضخة صدئة. اغسله بزيت «موبيل» وشحّمه، ولكن حذار من غسله في مياه بحر الصين الملونة حين يكون الليل مقمراً، والروح مشرّعة الأبواب لاستقبال الأصوات اللامسموعة. حذار من نبش صناديق الذاكرة أمام هذا السحر كله.

آه من صناديق الذاكرة!...

إنك لا تسافر حقاً أبداً... وحين تتوهم أنك ذهبت إلى الصين، تجد نفسك جالساً فوق صناديق الذاكرة، وتجد نفسك مسافراً إلى داخلك أنت.. وإلى وطنك أنت، وزمنك وجرحك أنت... كأن السفر هو محاولة للتفرغ لسفر آخر سري... سفر الإنسان إلى داخل خارطة ذاته.

★ ★ ★

صديقي الصيني شاب في ربيعه السبعين، يحدثني عن أعشاب تمد في عمر من يتناولها. إنها أعشاب «طول العمر».

لقد خبر شعبه طقس الاكتشاف، ودخل أسرار النباتات الغامضة التي تملك مقدرة حقيقية على «إطالة» عمر الإنسان وتجديد حيويته، وتناقل تلك المعارف جيلاً بعد جيل، وها هي حصيلة تلك الخبرات أمامي داخل أوان زجاجية شفافة، تحمل أسعاراً خرافية (١٥ ألف ليرة ثمن «عشبة طول العمر». إنها أغلى ثمناً من «عشبة الحب» نفسها!).

وهي تبدو مجرد عود شجرة جاف ميت. (تذكرت العجوز الصيني في الطائرة، الذي كان يشبه الشجرة ويضع في فمه لفافة حاولت إشعالها له فاكتشفت أنها عود شجرة. ظننته يومها يحاول الاقلاع عن التدخين بطريقة صينية عجيبة.. تراه كان يضع في فمه نبتة تمده بطول العمر والحيوية، ويمتص منها الزمن مثل طفل رضيع؟)...

قال لي صديقي الصيني: سأعيش أكثر من مئة وخمسين عاماً. وسأعلمك هذه الأسرار كلها. ستعيشين معي مئات الأعوام كالسحرة.

قلت له: ما جدوى أن تطيل عمر الإنسان إذا كنت عاجزاً عن جعل هذه الحياة أقل ألماً، أو ضحالة، أو أكثر جدوى؟ لماذا تريد أن تكون مثل الدكتور برنار الذي زرع لمريضه قلباً فأطال بذلك عمر عذابه في عالم بلا قلب؟... يا صديقي الصيني، لا أريد أعشابك. لا أريد حياة طويلة. أريدها عميقة!... أريدها حادة وملتهبة ومتفجرة كأصبع ديناميت!..

* * *

قال لي: سأعلمك أسرار الإبر الصينية، وكيفية التخدير بها.

قلت: لا نريد في وطني إبراً نتخدر بها. نحن بحاجة إلى إبر للصحو!

قال: وسأعلمك كيف تغادرين ألمك بمزيج من الأعشاب والإبر واليوغا... والأسرار الغامضة الراقدة في رحم الشرق العتيق، ومعارف كهنتها المتوارثة عصراً بعد آخر.

قلت: لا تسرق مني ألمي، ولا تعلمني كيف أخدره. علمني كيف أكتبه، وكيف أحاصره وأقبض عليه وأسوقه مخفوراً إلى الكلمات والسطور...

* * *

يا صديقي الذي يحب الأرقام، أنت الآن غاضب مني. سأسترضيك!

مساحة هونغ كونغ ٢٩ ميلاً مربعاً.

مساحتها مع الـ «نيوتيريتوري» ـ المستعمرة البريطانية ـ هي ٣٦٥ ميلاً مربعاً.

ارتفاع «فيكتوريا بيك» التي حدثتك عنها «شعرياً» هو ١٨١٧ قدماً عن سطح البحر.

٩٩ بالمئة من سكان هونغ كونغ ونيوتيريتوري صينيون، تقاسمهم الحياة فيها الغزلان والنمور والأفاعي والحراذين والضفادع والوعول والعناكب.

* * *

يا صديقي الذي يحب الأرقام، سأعود إلى إغضابك بعد أن استرضيتك! إذ ماذا يمكن أن تعني لك مساحة هونغ كونغ (إذا كنت لا تنوي شراءها)؟ السحر لا يقاس بالأمتار المربعة. هل تستطيع أن تقيس مساحة الليل؟ وزن الضوء؟ طول الحزن؟ ارتفاع الدهشة؟

هونغ كونغ ككل المدن، هي أحياناً كبيرة بحجم القلب، وأحياناً صغيرة كحجم الجبل!... ذلك يتوقف على لحظة النظر إليها.. في ليل الوحشة، تصير المدن شاسعة كالقفر.. وفي لحظات التواصل الإنساني والحنان، تصير دافئة ونابضة، وتحتويك كرحم يكتنز طفلاً!...

* * *

يا صديقي الذي لا يحب الأرقام، الآن دورك لترافقني إلى سهرة صينية.

نحن الآن في «أبردين». الاسم بريطاني، وما تبقى «صيني» حتى نخاع عظامه. الاسم قناع، كأن يكون اسمك «محبوب» وأنت مكروه، أو «رفيق» وأنت عدواني، أو «حازم» وأنت متردد مثل «هاملت»!.. أبردين مرفأ للصيد، فيها ٣٠٠ ألف شخص يسكنون المراكب! البيوت هنا مراكب. المطاعم مراكب. الملاجىء مراكب. التاكسيات مراكب. حتى القصور هنا، يخبرونك أنها كانت في قاع البحر ثم خرجت. وتقول أساطيرهم مثلاً إن قصر التنين كان موجوداً في قاع البحر ثم عام على سطح الماء واستقر. وبعض بيوت الشاطىء مبنية بشكل قارب رخامي مقدمته تمخر الماء (هذه العادة تجدها في أكثر من مدينة صينية، كما في قصر «مركب الرخام» في بكين).

نستقل «المركب ـ التاكسي» من الشاطىء إلى مطعم «جامبو»، وهو بدوره باخرة كبيرة... لو رافقنا داروين إلى هذا المكان المائي العجيب لغير نظريته، ولقرر: أصل الإنسان سمكة لا قرد.

ندخل معاً في أحشاء التنين، وعباءتنا الظلام والحرير والبخور. التنين وسط الماء.

والماء وسط الصين. والصين وسط الظلام. لكن شوقاً غـامضاً إلى الـوطن يتنابـك. يعلقك بين الذاكرة والنسيان!.. حين تصير في الداخل، تتوهم أنك في قصر صيني عتيق يلخص فنهم بمعاني الكلمة كلها، سقفاً وجدراناً ومناخاً... وها هو تنين آخر يحدق بك متأهباً للقفز عن موضعه في لوحة الجدار. والشرر يتطاير من عينيه. كأنك ركبت البحر وقصدت المطعم ليأكلك هو، لا لتأكل أنت!...

يقدمون لنا الطعام الصيني الشهير «ديم سوم» مع وجبة شبيهة بـ «المازة» اللبنانية من حيث تعدد الأطباق وكثرتها. تلتهم حساءً غامضاً قدرت أنه حساء دماغ القرود بعد أن ألفت طعمه، وتتابع الأكل من الصحون المشتركة ـ على طريقة المنسف العـربي ـ (هنالك شعوب كثيرة يشترك الناس فيها بالأكل من طبق واحد، ربما ليحسوا بالمشاركة والألفة). وقد تقرر الانفراد بصحنك، وتأكل الرز بالعصي متوهماً أنك صرت «مثلهم»، ثم تصحو على أصوات ضحك زبائن الطاولة المجاورة. يتأملونك والرز يغطي وجهك وثيابك، فتطلب من الجرسون شوكة وسكيناً أو تكتفي بأصابعك!... لكنهم يستمرون في الضحك منك. ربما لأن عينيك ليستـا مشدودتـين إلى الأعلى كعيـونهم. وبما أنهم الأكثرية، فهم على حق، و «عيناك» على خطأ...

بعد أن تشبع، يصير بوسعك أن تتأمـل ما حـولك من تحف فنيـة... فأكـثر مطاعمهم العائمة هي كهذا المركب: آية من آيات الفن الصيني في الحفر على الخشب والعاج. وتقول لنفسك: إنه يشبه حقاً «بطاقة بريدية» تذكارية. ويفاجئك الجرسون وأنت تغادره بإهدائك «كارت بوستال» يحمل صورة المطعم، وعصوين لأكل الرز!...

★ ★ ★

المفارقة هي القاسم المشترك بين كل ما نراه في هونغ كونغ. هذه ناطحة سحاب، وفي طابقها الأربعين صيدلية شعبية لبيع الأعشاب العتيقة. وتلك ناطحة سحاب أخرى يعمرونها فضائية مستقبلية الهندسة، ولكن دعـائمها الخـارجية كلهـا (السقالات) من خشب البامبو. وهذا بيت من التنك وبلا كهرباء لكن التلفزيون يتصدره ويعمل على بطارية مسروقة!

الزحام خانق إذ تبلغ كثافة السكان في المدينة ٥٠٠٠ شخص لكل كيلومتر مربع، ولكن الهدوء لا يصدق على صفحة الماء وأنت تستقل الجنكغ (المركب العتيق) بعيداً عن حمى «الشوبينغ» في كاولون.

وتأتي المفارقة بين الفقر والثراء لتضيف لمسة مؤلمة. فثمة بيوت من التنك والبؤس

تزنر المدينة ولكن تمر أمامها سيارات أصحاب الملايين الفارهة، وها هي مثلاً «الست برندا» في سيارتها الرولز رويس الوردية هدية من زوجها المليونير شو، ترتدي معطفاً من الفراء الوردي في هذا الحر الخانق (لضرورات التصوير) وإلى جانبها سائقها الذي بدت بشرته الداكنة طريفة وهو يضع قبعة وردية ويرتدي ثياباً وردية ويتوج المشهد الكلب (البودل) المصبوغ بالوردي. لقطة كهذه تخرج من باب الطرافة إلى التقزز! . . .

وفي حلبة سباق الخيل يقبل الصينيون على المراهنة بكثرة في محاولة من الفقراء لالغاء المفارقة الكبيرة بين الفقر وأحلام الثراء التي تركض في الخاطر كحصان خاسر. وهم لا يدرون أن أحد أجدادهم كان أول من اخترع الورق والعملة الورقية من أوراق الكاغد (أفضل أنواع الورق) بشهادة ابن بطوطة الذي ذكر في **تحفة النظار**: «وأهل الصين لا يبتاعون بدينار ولا درهم. . . وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع «كاغد» والقطعة منها بقدر الكف، مطبوعة بطابع السلطان، وتسمى الخمس والعشرون قطعة منها بالشت، وهو بمعنى الدينار عندنا».

ماض مجيد وحاضر بائس. كأنها حكايتنا نحن أيضاً كعرب!

★ ★ ★

لا تصدقوا القشرة الانكليزية في هونغ كونغ على السلوك والعادات والرياضات، ففي قاع الإنسان هنا شخصية مميزة عريقة التراث والحضارة. لا تصدقوا القناع الغربي فخلفه وجه صيني.

أجلس في أحد المقاهي في الصباح الباكر وأتأمل مهرجان الحياة حولي. من سقف المقهى تتدلى عشرات من أقفاص العصافير المغطاة بقماش خاص يغلفها كالستائر: لم تستيقظ العصافير بعد. يلتهمون «ديم سوم» في إفطارهم مع الشاي. أقلدهم. تركض في رأسي المشاهد الصينية ويتطاير داخل جمجمتي الحرير الملون والورق والعقاقير القديمة والأعشاب الطبية الشعبية التي يفترض أن تطيل العمر وتجدد «القوى». . تتطاير أهم صناعتين في الصين وأقدمهما: الحكم والأساطير، وتتكسر آنية خزفية صينية بديعة النقوش والرسوم والزخرفة الملونة وتتناثر حولها الإبر الصينية. .

الذين حولي يطالعون صحفهم بلغات لا أعرفها، ويتحدثون بأصوات طالعة من معدتهم لا أفهمها، وثمة رجل يمشي على الرصيف حاملاً عصفوراً في قفصه كأنه آت من سوق الطيور. يتوهم الصينيون أن الطير يجلب لصاحبه القوة والسلطة والسعادة، كما يتوهمون أن لحياة المرء وأقداره صلة ببرجه وسنة تولده. وهكذا فلديهم سنة الخنزير وسنة

البقر والنمر والتنين والأفعى والقرد والعنزة والحصان والديك والكلب والأرنب. اكتشفت أنني ولدت في إحدى سنوات النمر رغم أنني كمعظم أهل بيروت عشت الحرب على خانة «برج الفأر»، وحمدت ربي لأنني لست من مواليد برج الخنزير!

★ ★ ★

نغادر هونغ كونغ وكاولون مخلفين وراءنا واحدة من أكثر بقاع العالم كثافة بالسكان، ونمضي باتجاه قلب الصين. وبعد كيلومترين نجد أنفسنا في قلب الريف الصيني شبه الخاوي. نقطع «تسون وان» الصناعية، وتتوالى أمام أعيننا القرى الصينية الزراعية «أوون لونغ» و«لوك ماتشو»، وعبر نهر «تشام شان» نتأمل الصين وهي تمد جسدها الشاسع تحت الشمس.. ونرى قرى كثيرة... «اوه تاو». «يونغ لونغ»، والمشاهد الريفية واحدة... حقول الرز الشاسعة المغمورة بالمياه، ورؤوس المزارعين المغمورة بالقش على هيئة قبعات، والبط يسبح بتكاسل متأملاً أولئك الفلاحين بأدواتهم البدائية، وطريقتهم الخاصة في حمل الأثقال متدلية من حبلين ربطا إلى عصا تمتد أفقياً فوق الكتفين. قرية «كومودين» يحيط بها سور من الجهات كلها، وهي ضيقة الأزقة جداً، فقد عمّروا بيوتها متلاصقة تسهيلاً للقفز على السطوح من بيت إلى آخر لأجل الهرب - لمن يشاء - في حال اقتحام المدينة! لقد شاهدت مدناً كثيرة عمّرها أصحابها متخذين الاحتياطات كافة دفعاً لهجمات الأعداء، بما في ذلك خنادق المياه والجسور المتحركة.. ولكنني لم أر في حياتي مدينة شيد نصفها للقتال ونصفها الآخر للهرب. في هذه القرية حكمة صينية عريقة، تتفهم ضعف الطبيعة البشرية وتغفره، بل وتحتويه!...

★ ★ ★

سور الصين يشبه قلادة حجرية خرافية، قذفت بها الجنّيات فوق الجبال والوديان، وها هي القلادة تتعرج على طول ٢٥٠٠ ميل، وعمرها ٢٠٠٠ سنة!...

سور الصين قد أذهب لمشاهدته.

أكره الأسوار.
لكنني أكره أيضاً الذين يجعلون من الأسوار ضرورة.

★ ★ ★

نحن الآن في منطقة «شاتين» التي يلقبونها بـ«صحن أرز الأباطرة»، ولكن الفقراء يسكنونها!

هنالك تل باهر الخضرة يشرف على البحر، وعلى قمته حجر طبيعي نحتته الرياح والأمطار وربما أظافر الجنّيات العاشقات، وإذا به تمثال بالغ الروعة، يمثل امرأة واقفة تحدق في البحر والسهوب وقد حملت بين يديها طفلاً. ويسمون هذه المرأة التي حجّرها الانتظار «آماه».

تقترب منها وتسألها: أيتها السيدة، من تنتظرين؟

تجيبك: أنتظره.

تسألها: هل هو رجل أم تنين أم حلم أم بحار؟

لا تجيب.

تسألها: لم لا تذهبين وتستريحين؟

تجيب: لست متعبة.

تسألها: لم لا تذهبين وتستحمين؟

تجيب: الأمطار تغسلني والريح تمشط شعري.

تسألها: تحبينه؟

تجيب: ألا تسمع قلبي الحجري ينبض؟

تسألها: من هو؟ ما هو؟

تحدق في وجهك، بعينين حجريتين، وبصمت.

تُراها تنتظر رجلاً تحبه، كما انتظرت «بينلوب» زوجها «يوليسيز» في الأسطورة اليونانية؟

أم تراها هربت من زوجها لتنتظر رجلاً آخر فعاقبها الليل؟

هل زوجها بحار، وهي امرأة سئمت الوحدة، وها هي تنتظره لتسحره مثلها صخرةً، وإذا عدتُ إلى الصين مرة ثانية، سأجد إلى جانبها تمثالاً لرجل متحجر؟...

لا أدري... لكنني قطفت زهرة برية، وقدمتها إليها. فمدت يدها الحجرية، وتناولتها مني وابتسم لي طفلها...

١٩٨٠/٦/٢٧

مانيلا: التعايش بين النار والبارود

كل شيء هنا في الشرق الأقصى شرقي، ما عدا «لغة الإغراء» فهي مستوردة من الغرب.

سؤال للترغيب: هل شاهدتِ «فينيسيا الشرق» و«تور إيفل» الشرق؟ (يقصد مدينة بانكوك، وباجودا «معبد الفجر» فيها!).

قلت له ممتعضة: نعم. شكراً.

تابع الدليل السياحي: يجب أن تشاهدي باريس الشرق (يقصد شانغهاي)، ومونتي كارلو الشرق (يقصد جزيرة ماكاو)، وغابة بولونيا الشرق (يقصد غابة في نانكينغ)، وشانزليزيه الشرق (يقصد شارعاً في بكين).

وتمتلىء غيظاً من محاولة ايجاد مرادفات غربية لهذا العالم الذي لا يشبهه مكان في العالم.. عالم الشرق الأقصى المختلف حتى جذوره. الثري بمعاييره المختلفة. بسحره الخاص. برموزه. بتوابله. بكهوفه وغاباته وتماسيحه وفيلته وأغانيه وأعشابه وتقاليده. كل ما فيه يطالبك بإيجاد لغة خاصة به تنبع من داخله، بدلاً من استيراد مفردات العالم الغربي لوصفه. لماذا يتوهمون أنهم بتشبيهه للغرب يقرِّبونه إلى الأذهان؟ إنهم ببساطة يبعدونه تماماً عن مرمى الفهم. كأن تُشبّه الغيمة بالبيضة، لأن كلتيهما لونها أبيض!

ويلح الدليل السياحي، ما دمت لا تحبين رؤية الأشياء «المتشابهة»، اذهبي لمشاهدة سور الصين. ليس في الدنيا ما يشبهه، وعمره ٢٠٠٠ سنة. وأكدت له أنني أكره رؤية الأسوار ولكنني فعلت. وسور الصين الذي أحب عمره ٧٠٠٠ سنة، وهو ذلك السور اللامرئي الذي سوّروا به مخطوطاتهم القديمة الأدبية والفنية وثقافتهم طوال عصور، فحفظوها من الضياع، إنه سور الحرص على التراث.

فالأدب الصيني هو أكثر الآداب المحفوظة جيداً في العالم كله، ومخطوطاته القديمة موجودة بأكملها تقريباً. ثم إنهم منذ القرن الثاني عشر الميلادي استخدموا «الطباعة» وحفظوا بذلك تراثهم من الضياع والتلف.



اليوم صففت شعري على الطريقة الصينية ووضعت فوقه قبعة قش محلية كقبعات زارعات الرز وارتديت كيمونو طويلاً حريرياً على ظهره صورة تنين، وكانت النتيجة مذهلة. أحد رفاق الرحلة لم يتعرف عليَّ وظنني صينية فجاء يدعوني إلى العشاء في أفخم مطعم. قبلت بسرور وأنا أتظاهر بأنني لا أتكلم إلا إنكليزية مهشمة، واعترفت له بالحقيقة مع الملعقة الأخيرة من حلوى التفاح المقلي بعد العشاء!

★ ★ ★

الدليل السياحي لا تقنعه السياحة في الأصقاع اللامرئية والأسوار اللاحجرية. ولن يسمح لك بمغادرة الصين إذا لم تزر جزيرة «ماكاو». وإذا رفضت فسيحدثك عنها. فهي حصيلة ٤٠٠ سنة من الزواج بين الصين والبرتغال. تسأله: هل كان «زواج حب»؟ يقول: ككل الزيجات، المهم أنها تحدث.. وكفى!

لماذا «ماكاو»؟ لأن المقامرة ممنوعة في الصين وهونغ كونغ ونيوتيريتوري، ومسموحة فقط في جزيرة ماكاو (المكرسة للقمار) والتي يصر على تسميتها بـ «مونتي كارلو» الشرق. ثم إنها قريبة من هونغ كونغ، على بعد ساعة منها إذا ركبت إليها «الهوفر كرافت ـ الهايدروفويل» أي ذلك المركب السريع الذي يطير فوق سطح الماء تقريباً. هناك تستطيع أن تراقب الناس وهم يقامرون في «كازينوهات» القمار العائمة (بواخر كبيرة فخمة) وفي صالات تجمع الفن الصيني العريق إلى الفن الأوروبي البرتغالي في زواج موفق فنياً لو لم يكن القمار طفلهما!... وفي هذه الجزيرة المكرسة للقمار توجد الألعاب الأوروبية منها مثلاً «بلاك جاك والروليت والباكارا» إلى جانب ألعاب المقامرة الصينية المحلية أمثال «بيغ أند سمول» وسواها.. ولا أعرف المزيد من التفاصيل لأنني لا أحب المقامرة. (فأنا مقامرة كبيرة من النوع الذي يقامر بعمره كله، وحياتي «بوكر مكشوفة»!).

الدليل لا يتعب. فهم في هونغ كونغ يصرون على بيعك أي شيء. قال لي: ما دمت تحبين السياحة داخل الزمان لا المكان فقط، سآخذك إلى جزيرة «لانتاو». إنها الأخت التوأم لهونغ كونغ من حيث الجمال الطبيعي، لكنها لا تزال تعيش في القرن الثامن عشر بمعاني الكلمة كلها.. إنها تبعد عن هنا ٨ أميال فقط، و...

قلت له: لو أن الأرض مسطحة، لسقطت عنها وأنا أركض حتى نهايتها دون أن أشبع... لكنها لحسن الحظ كروية، وسأظل أركض حتى أصاب بالدوار... ويغمى عليَّ... وقبل أن يحدث لي ذلك، وداعاً، فأنا ذاهبة إلى... الفليبين.

ولكنني رافقته في اليوم التالي إلى لانتاو! السياحة الليلية هناك تجربة استثنائية إذا لم

يبتلعك حيوان نصفه تنين ونصفه الآخر أخطبوط!

* * *

في الطائرة بين هونغ كونغ ومانيلا، تظل مرئيات الصين تغلي داخل رأسك وتختلط وتفور كما في قدر الساحرة. التنين. الحرير. البخور. العاج. التوابل. شاطىء «شيخ أوه»، شاطىء «ريبالس»، وذلك الخليج الشفاف حيث سبحت وعدت سمكة!. الأوبرا الصينية والإبر الصينية. الراقصات والعيون المشدودة الحزينة خلف مساحيق الوجه. الباجودا في حديقة «تايجر بالم»، حيث خيل إليك أنك لمحت بروس لي يطل من إحدى شرفاتها ويلوح لك بيده. أجاد داكن الخضرة كالزيتون المبارك. الزحام. الدولفين في «اوشن بارك». المراكب. وكل ما في «جوهرة الباسفيك» ـ كما يسمون هونغ كونغ ـ يتراكض داخل رأسك ويتطاير، ثم يتكسر كالأواني الصينية حين تعلن المضيفة عن هبوط الطائرة في مانيلا، عاصمة الفليبين، وتدلق كوباً من الجعة فوق ثيابي!

* * *

«فابوهاي».

تستقبلك شمس مانيلا الشرسة الحرارة، وهي تصرخ بك «فابوهاي» ـ أي مرحباً بلغتهم ـ، وتتلقى صرختها على قمة رأسك، فتصاب بضربة شمس (جفت ثيابي من الجعة في ومضة عين!)

كل هذا، وأنت لا تزال تقطع المسافة مشياً بين الطائرة ومبنى المطار.

وترى ـ وأنت شبه مخدر ـ شاباً يحوم حولك وفي يده كاميرا وهو يلتقط لك الصور خلسة، فلا تصدق عينيك، وتحذر نفسك من الإصابة بـ «عقدة العظمة»، إذ من يريد التقاط صورتك أنت الغريب (اللاأحد) في هذه الدنيا البعيدة؟.

وتنتقل من «عقدة العظمة» إلى عقدة الاضطهاد. تخاف وتتساءل: لماذا يريدون صورتك؟ من هم؟ ما هدفهم؟ وتستيقظ في رأسك من جديد تلك الصور اللعينة التي تعكسها الأفلام الأميركية لهذه الأصقاع النائية، فتغذي مخاوفك من الرجل الذي التقط حقاً صورتك وأنت تمضي من الطائرة إلى المبنى...

وحين تصل إلى السيارة التي ستقلك إلى الفندق، تكون الشمس قد حولتك من حبة عنب إلى حبة زبيب، وعندها يتقدم منك ذلك «الشاب الغامض» الذي التقط صورتك، ويعرض عليك شراءها مقابل حفنة من «البيزوس» ـ عملتهم المحلية ـ أو الدولارات. إنك لن ترفض تذكاراً كهذا، وتدفع النقود وأنت تشعر بالخجل. هذا

«الرجل الغامض» هو مجرد جائع آخر يركض وراء لقمته. . . وككل جائع، يحتال للحصول عليها، ويبتكر الوسائل لذلك.

تتساءل: ما دامت السينما الأميركية والغربية تعشق حقاً تصوير أفلامها في هذه الأصقاع الجميلة النائية، لماذا لا تقدم لنا ـ ولو على سبيل التنويع ـ الوجه الحقيقي لهذه الشعوب الفقيرة، والغنية بعالمها الروحي؟. . لماذا ترسم أبناءها حفنة من الرعاع والمجرمين ـ كما تفعل بالعرب ـ؟

★ ★ ★

ها أنت جالس في «روف» فندق هيلتون في الطابق الرابع والعشرين. قضيت نهارك معي، نتسكع في شوارع مانيلا. حملونا إلى القلعة. .إلى الكنائس. إلى القصور. إلى المتاحف، لكننا لم نبصر سوى الفقر. الفقر المدقع. ولم نبصر سوى محاولات التحايل لكسب الرزق يقوم بها حتى الأطفال. فوق تلك الترعة الجميلة، تسلق الأطفال «ونشاً» شاهق الارتفاع خارج السور بيننا وبينهم ونحن في القلعة التاريخية، وحاولوا التسول منا بشباك صيد الفراشات وبالصنارة! . . . لقد ربطوا إلى صنارات الصيد أوعية، وكانوا يقذفون بها إلينا، وهم يرسلون بأجسادهم الدقيقة في الريح، ويمدونها في الفراغ، وتشهق خوفاً عليهم من السقوط من ذلك الارتفاع الشاهق. وبعضهم اكتفى بالنزول إلى الترعة ملوحاً لنا ونحن نقف على الجسر، صارخاً بلغته الفليبينية التي لا نفهمها، تلك الصرخة التي لا يمكن لأحد إلا فهمها بأية لغة كانت: نحن جياع! . . . نحن جياع! . . . وكانوا يشيرون بأصابعهم إلى أفواههم. وشعرت ببؤس هائل. إنهم يتوهمون أننا لا نفهم ما يقولون. كأننا سكان كوكب آخر. وها هي سائحة أميركية تحاول أن تتظارف فتقول لي: هل تظنين أنهم يشكون من ألم في أسنانهم؟ قلت لها: بل إنهم يشحذون أسنانهم وحين يكبرون سيشحذون سكاكينهم أيضاً وذاكرتهم! . . .

ها أنتَ جالس في «روف» الفندق. أمامك مزيج استوائي شهي لعصير فاكهتهم، ومقصف يحوي ما لذ وطاب من الأعشاب الحريفة، و«فاكهة البحر» من أصداف وكركند وأسماك وحلزون وقريدس. في وسط المكان سرب من الراقصات بارعات الجمال، بوجوههن الفليبينية المميزة، وقاماتهن الفارعة الأوروبية بعد امتزاج الفلبينيين بالأوروبيين الإسبان على طول قرون من حكمهم لهذه البلاد. . إنك تحاول أن تنسى مشاهد الصباح. . . تحاول أن تغرق في الملذات الحسية الليلية، ذلك الجوع العاري الذي شاهدته ممدداً تحت الشمس كيفما تحركت. . . وأنت عبثاً تنسى. . . الجدران هنا زجاجية. . . ترسل نظرك عبرها، فترى مانيلا تحيط بك بركة من الضوء الملون الباهر.

المدن كلها جميلة في الليل من بعيد، لكنك لا تستطيع أن تنسى كم هي في بعض أحيائها فقيرة وبائسة في النهار. . لا، ليست فقيرة بأكملها. هناك حي فخم وأكثر! . . .

خبراتك كمواطن «ملدوغ» تؤكد لك: هذا التعايش بين النار والبارود لا يمكن أن يدوم طويلاً. . ولا مفر من الحريق. الجوار بين عيدان الكبريت والديناميت ليس مستحباً. . .

وتظل ترسل نظرك عبر النافذة، وتقنع نفسك بأنك هنا سائح، وأنك بحاجة إلى إجازة إذا كنت تريد حقاً أن تستمر. . . ويتحالف عليك جمال الرقصات وطعم شراب الفاكهة الاستوائية، فتبدأ بالزحف الممتع فوق أعشاب النسيان الرطبة شيئاً فشيئاً. . . تتأمل الرقص. . . شلال من ضوء يتدفق من الأعلى ليغسل ثياب الراقصات الملونة، الإسبانية الطابع في بعض الرقصات. ثم تنشغل بمراقبة رقصة «البامبو» المحلية حيث يمكن للراقصة أن تكسر قدمها إذا فشلت في ملاحقة ايقاع الموسيقى بدقة وسرعة. إذ يجلس على الأرض أربعة شبان في ثيابهم الفولكلورية، ويمسكون بقضبان البامبو الناضجة، فيضربونها بعضها ببعض على ايقاع موسيقاهم، والراقصات يرقصن بين القضبان ثم يقفزن خارجها لحظة عناق البامبو الذي يتمّ بعنف يمكن أن يقطع أي شيء يقع بينهما حتى ولو كان. . . قدماً. . إنه رقص بديع خطر مغامر لا ابتذال فيه ولا «دلع» ولا هز بطن، يرقصن بينما أسنانهن البيض تضيء ابتسامات كالفجر. . وقبل أن تنتهي الرقصة، يفرض المشهد أن تنسحب إحداهن لتقف خارج الحلبة قليلاً ثم تعود حين يحين دورها. وهكذا انسحبت واحدة، وما كادت تخرج من دائرة الأضواء حتى ذبلت ابتسامتها تماماً واختفت أسنانها وبدت حين وقفت إلى جانبنا حزينة ومرهقة، وقد تعبت من حمل ابتسامتها الاصطناعية «المنشّاة». وتأملت الراقصة الواقفة في الظل، ونسيت ما تبقى. إذ شاهدتها ترمق مائدة الطعام بنظرة اهتمام ملتاع. وكومض البرق ارتسمت الكلمة داخل رأسي: جائعة.

هذا الفرح كله الذي يقدمونه للسواح ليس حقيقياً. شيء ما في هذا الوطن يغلي. .

★ ★ ★

عدت أتأمل مانيلا عبر النافذة، فشاهدت حريقاً هائلاً عند الأفق. . . وركضت نحو «الجرسون» أشير إلى الحريق واستفسر، فرمقه بنظرة، ثم عاد إلى عمله كأن الحريق هو دوماً هناك، أو كأنه جزء من معالم المدينة. فقمت إلى «الجرسون الأكبر» وأشرت إلى الحريق، فقال لي بدون مبالاة: هذا يحدث عندنا كل أسبوع! . .

وتمنيت أن أقول له إنني شاهدت بيروت من قبل تحترق من «روف» فندق «الهوليداي إن» ثم احترق الفندق والمدينة، وإنني أعرف مدلول مشاهد كهذه. . . لكنه كان مشغولاً عني بمهمة أكثر أهمية هي تقطيع سمكة «السومون فوميه» لبعض الزبائن. . . وشاهدت للسمكة رأساً آدمياً. . . شاهدتها تنزف والدم يتدفق ويُغرق أقدام الراقصات والسواح الذين قاموا للرقص معهن. . .

وهربت إلى غرفتي، ونمت داخل حقيبة سفري بعد أن أقفلتها بالمفتاح من الداخل. . وكنت أرتجف كمن شاهد رؤيا. . .

★ ★ ★

كل صباح، أفتح عينيّ في غرفة جديدة.كأني لم أرها من قبل، وأبذل مجهوداً صغيراً لأتذكر، أين أنا؟ في أية مدينة؟ جزيرة؟ قارة؟ أي حلم؟ أي كابوس؟

واليوم، هربت من هذا الشعور الغامر بالوحشة إلى النافذة، وعبرها استطعت أن أرى شجرة استوائية تتفجر بأزهار ليلكية مدهشة النضج والتوهج تضيء تحت نور الشمس كالمصابيح الملونة.

في صباح اليوم التالي، عاودني ذلك الحس بالغربة، فهرعت إلى شجرة الدفلى الاستوائية، وفوجئت بأن مئات آلاف الأزهار التي كانت تشع البارحة، قد ذبلت وماتت في يوم واحد فوق كفنها الأخضر. هكذا الشمس الاستوائية، تُنضج الأشياء، وتسرّع دورة الحياة، وإذا الزهرة هنا أجمل منها في أي مكان آخر، وعمرها أقصر منه في أي مكان آخر. عمر الزهرة هنا ليلة واحدة، كأنها برقية موجزة من الجمال. إنها باهرة، وهشة، وعابرة: كالحب.

★ ★ ★

هنا جنة الأصداف والبامبو والبراكين والجسور الخرافية المصنوعة من الحبال المجدولة مع القصب، الممدودة بين جبل وآخر فوق وديان سحيقة مرعبة الجمال والخضرة. هنا جنة البحيرات والأنهار والشلالات والغابات الاستوائية وجوز الهند والينابيع، ومزارع الرز المبنية على «جروف» منذ حوالى ٣٠٠٠ سنة. هنا جنة النسيان لمن يستطيع تخدير أصواته الداخلية. هنا في «مايا مايا» أو «مايون» أو «تاجايتان» أو «باجسانجان» يستطيع الإنسان أن يعيش حياة خرافية في جزر منسية وشواطىء مذهلة السحر. . لكن عليك أن تكون قادراً على فتح نوافذ الفرح في روحك، واستئصال ذاكرتك ولو لفترة عابرة.

١٩٨٠/٧/٤

مانيلا: انصهر ميزان الحرارة!

أقف أمام التمثال. إنه لا يحدق في البحر. إنه لا يحدق في الأفق. إنه لا يحدق في الخلود، إنه يحدق في الرصيف الثاني فقط!!... في الساعة الكبيرة المعطلة، والفقير الذي يمشي تحتها منذ عشرات السنين...

التمثال لبطلهم القومي الدكتور «خوسيه ريزال» في الحديقة العامة المسماة باسمه، والتي تتوسط العاصمة مانيلا.

لقد ثار ضد الاستعمار الاسباني لوطنه. بدأ النضال عبر الفن: كتب روايتين يصور فيهما بشكل حي «فظاعات» الحكم الاسباني للفليبين، ثم ألف كتاباً أثبت فيه أن لبلاده تاريخها الخاص بها وشخصيتها القومية المميزة. ثم انتقل إلى النضال وقام بتأسيس حزب لتحرير الفليبين.

وهنا سارعت السلطات الاسبانية إلى اعدامه عام ١٨٩٦ بعد محاكمة «مسرحية» وجدته مذنباً طبعاً بجرم التواطؤ ضد النظام!.. وتحررت الفليبين فأقيم له تمثال وسميت الحدائق والشوارع باسمه. لاحقت نظرات التمثال فوجدتها مسلطة على الساعة الكبيرة المقابلة له، ولاحظت أن الساعة معطلة وعقاربها ماتت فوق التاسعة والربع ـ ونحن الآن في وقت الغروب ـ.

حينما ترى «ساعة» معطلة في الساحة العامة لمدينة، فاعلم أن «زمنها» أيضاً معطل لا ساعتها فقط!.. وهذا الشهيد المسكين الذي ضحى بحياته كي يدفع بعقارب الساعة إلى الأمام، محكوم الآن بأن يحدق في ساعة معطلة ترمز إلى فشله في بعض ما كافح لأجله. لقد كافح لتحرير بلده من قبضة الاستعمار الاسباني الصريح، وها هي بلاده تسقط في قبضة ماركوس، الظالم المحلي. وها هو الدكتور ريزال بعد أن أعدمه المستعمر، يتابع موته اليومي الأشد إيلاماً، وهو يرى تخلف بني قومه مجسداً في ساعة ميتة ترمز إلى زمن بحالة تخدير.

هكذا هي البلدان المتخلفة، دوماً تعذب شهداءها، حتى بعد موتهم!

★ ★ ★

الحر هنا لا يوصف. حتى «ميزان الحرارة» الذي أحمله معي باستمرار عاجز عن وصفه. فقد وضعته في الشمس، وهبطت لأسبح مع سلحفاة مائية لطيفة، وحين عدت، وجدته قد انصهر بنار الشمس ـ بدون أية مبالغة!! ـ ومات تماماً!

★ ★ ★

تجاهلت مصير «ميزان الحرارة»، واتكلت على إرثي الجسدي البدوي في مقاومة لهيب الشموس الصحراوية، واسترخيت على الشاطىء حتى كدت أنام. . . واستيقظت على عقصة موجعة في ذراعي. وفوجئت بأنها نملة فقط. النمل هنا خرافي الشراسة. كأن تلك التي عقصتني هي عقرب متنكر خلف قناع نملة. كل شيء في الشرق الأقصى مختلف، حتى النمل.

جمال الشواطىء هنا خارق، بدائي، مظلاته من القش والبامبو كتلك التي نراها في مشاهد أكلة لحوم البشر في السينما!. . ولكن الشمس هي التي تشوينا هنا، بدون قدْر يرقصون حوله ويشعلون النار ويقرعون الطبول. . .

قرب منتصف الليل، استيقظت على أنين فرنسية شقراء مصابة بضربة شمس ترجوني أن أقدم لها النصائح حول الاسعافات الأولية بصفتي «صحراوية»! كانت بشرتها محروقة، وهي محمومة ترتجف وتهذي في اغماءة راعشة. آه ماذا أفعل؟ جسست نبضها فلم أجده، وقرأت عليها قصيدة المتنبي في الحمى وفيها يقول: «وزائرتي كأن بها حياء / فليس تزور إلا في الظلام / فرشت لها المطارف والحشايا / فعافتها وباتت في عظامي»، وظللت أكرر الأبيات كرقية من التمائم، فتحسنت حالها. هل يعقل ذلك؟

★ ★ ★

تحزنني زيارة حديقة الحيوانات. لا أحب مشاهدة «روح» في قفص. ولكن زيارة حدائق الحيوان في البلدان الفقيرة تزيدني غماً، ومخلوقاتها هنا في مانيلا تبدو كحراسها، يجمع الفقر بينهم ويوحدهم، كأن ذل السجن لا يكفي تلك الحيوانات المسكينة، فركبها الفقر أيضاً!

★ ★ ★

لم أنسك اليوم يا صديقي الذي يحب الأرقام. والأرقام هنا تحرّض الخيال. الفليبين تتألف من سبعة آلاف جزيرة. تحبُ الدقة؟ حسناً. تتألف من ٧١٠٧ جزر، بعضها صغير جداً، و ٤٠٠٠ جزيرة منها غير مكتشفة ولم تطأها قدم. فيا لها من جنة لعشاق المغامرة المائية، وهي التي تضم حوالى ٢٠ ألف فصيلة من أحلى أصداف العالم. «فينوس» هنا لم تخرج من الصدفة. إنها هي الصدفة!. .

الفليبين تقع على بعد ٥٠٠ ميل جنوب شرقي شواطىء آسيا. عدد سكانها ٤٧ مليون فم، وأكثرها جائع. معظمهم جاء من ماليزيا وسومطرة وبورنيو ومنغوليا والجزيرة العربية إذ تضم حوالى ٤ ملايين مسلم ـ ٨٣٪ من سكانها يدينون بالمسيحية (كاثوليك). عام ١٨٩٨ انفجرت الثورة الوطنية في الفليبين (بعد مقتل بطلهم ريزال) فتنازلت اسبانيا عنها للأميركان. والمفروض أنهم حصلوا على الاستقلال عام ١٩٣٤، لكن «الرعاية» الأميركية تأبى مفارقتهم!..

★ ★ ★

إحدى رفيقات الرحلة المصابات بهستيريا التسوق اشترت حذاء من جلد التمساح بمئات الدولارات ولم تساوم البائع. لحق بنا صبي يريد أن يبيعها تذكاراً بسيطاً فظلت تساومه على بيزوس واحد وهو يركض خلفها حافياً. يا للعجب!

★ ★ ★

مسلمو الفليبين يقطن معظمهم في بلدة ساحرة اسمها «زامبوانجا». يعملون في صيد اللؤلؤ والأصداف والسمك والإسفنج ويمهرون في بعض الصناعات اليدوية. مراكبهم جميلة حقاً، لها أشرعة مائلة، وذات نقوش عربية زاهية الألوان، كأنها خارجة من إحدى حكايا ألف ليلة وليلة، وقد بُعثت حية بين أحضان الموج والريح.

★ ★ ★

عام ١٥٢١ وصل أول «سائح» أوروبي إلى الفليبين، وكان اسمه فرديناند ماجلان (الرحالة العظيم والمكتشف الكبير). فاستقبلته قبيلة «لابو لابو» ورفاقه استقبالاً حافلاً جداً: ذبحوه خلال الاحتفال ورفاقه الأربعين!..

ولكن لا تخافوا. فالفليبين لم تعد تعامل سواحها اليوم هكذا. إنها تدللهم وتفسدهم، وتقدم لهم موسيقاها ورقصاتها وأزهارها وفاكهتها وأصدافها وآثارها التاريخية... وإذا لم يرضوا بذلك قدمت لهم بعض بناتها كـ«مرافقات» للسواح. ولديهم عدة صحف تصدر بالانكليزية وتحمل إعلانات بهذا المعنى. ففي صحيفة «فليبين ميرور» ـ العدد رقم ٣ ـ ١٩٨٠ إعلان عما يدعونه بلغة حيية «معاونة علاقات اجتماعية!». ولا ينسى الإعلان امتداح جمال بنات هذه «المهنة». هنالك أيضاً فرع لنادي «البلاي بوي» في مانيلا!

ولو جاء اليوم «السائح المسكين» ماجلان العظيم، لأدهشته حرارة الاستقبال غير الدموي، ولوجد مقاصف فخمة وأندية ليلية «راقية»، ولكان بوسعه أن يلعب التنس

والجولف، ويشهر عليهم بطاقة «الأميريكان إكسبريس» فيخرّوا أمامه راكعين، ولاستمتع بالمساج والسونا والرقص ليلاً على شاطىء البحر (في الموضع الذي ذبحوه فيه من قبل!)، ولشاهد شروق القمر الباسيفيكي الجميل، ولامتلأ صدره بتلك الرائحة البخورية الزكية التي تفوح من الأزهار لحظة احتضارها كل فجر، وتملأ الجزر بمناخ من الدفء الحزين كوداع.. أو كذكرى وداع.

★ ★ ★

الغابة استوائية، والنهر سريع، وشلالات «باجسانجان» تتدفق وتغسلك والمركب البدائي الذي تستقل، ومفتول العضلات الفليبيني الذي يمسك بالمجذاف، يمضي بك إلى كهوف غامضة ترتفع فيها المياه أحياناً فيكاد رأسك يرتطم بالسقف.. لا متعة تشبه سحر التوغل في المجهول، واختراق تلك الستائر المائية المسدلة على مداخل المغاور.

تدخل الشلال حزيناً وجافاً، وتغادره سعيداً ومبتلاً!...

★ ★ ★

حينما تقف أمام بركان ما، ينتابك شعور بأنك تقف أمام إنسان حي غريب الأطوار. تتحفز. تستنفر حواسك كلها، فأنت تعرف أن الحوار غير ممكن مع هذه الكتلة الجبلية المحشوة بالنيران والحمم. البركان الهادىء يفجِّر فيك مشاعر متناقضة. تحس بمزيج من الخوف والفضول. الفضول، إذ تشتهي أن ترى كيف تحدث نوبة الهياج هذه للتراب الذي ألفت رؤيته ممدداً وميتاً.. كيف يمكن لهذه الحجارة والصخور أن تتحول إلى مادة حية متحركة؟ وهنالك الخوف. إنك تشتهي أن ترى البركان ينفجر، لكنك تشتهي أيضاً البقاء حياً لتهرب بالذكرى بعد ذلك... هذا ما أحسسته وأنا أتأمل بركان «تاآل» المحاط ببحيرة وديعة ساكنة، صافية كعيون جميلة تضمر الشر بإتقان.. إنك لا تستطيع أن تصدق أن هذا الجبل الباهر الجمال والسكينة، يتربص بك الدوائر (والمربعات والمثلثات أيضاً!).

استضافوني. أكرموني، فأطعموني السمك النيىء. للوهلة الأولى وجدت الفكرة «رهيبة». ثم تذكرت أننا هنا في لبنان نأكل لحم الخروف نيئاً ونستسيغه وندعوه «كبة نيئة». فلماذا ننكر عليهم لحم السمك نيئاً؟ لماذا هذا التمييز العنصري بين الخروف والسمكة؟.. ولماذا يتوهم كل منا أنه مقياس العالم بدلاً من احترام الاختلاف والتنوع برحابة؟

وهكذا اقتنعت «عقلانياً».. لكن للحواس منطقها الخاص فيما يبدو، لأن نفسي ظلت تعاف السمك النيىء.

وذات يوم التهمتني فيه شمس إحدى الجزر، شعرت بالحاجة إلى شرب اللبن الرائب. . . وطلبت منهم ذلك، فأحضروه لي مثلجاً بشكل «بوظـة». . منطقيـاً، ما الفرق بين أن يكون سائلاً مملحاً أو مثلجاً بالسكر؟ ولكن الإنسان ليس منطقاً مجرداً، ويبدو أن العادة هي التي تتحكم بحاسة الذوق، لا العقل وحده.

وبما أن طعامهم المحلي هنا «يمتاز» بطبخ الفاكهة مع اللحوم، والحلو مع الحامض، والسكر مع الملح والبهارات الحريفة، فإن بعض السواح عاشوا هنا عشرة أيام لم يذوقوا خلالها سوى «الهامبرغر» الكريه، ولكن المألوف! . . (وأنا منهم!).

★ ★ ★

في مانيلا حزن عذب اسمه الغروب. الأفق يودع الشمس كل غروب في احتفال لوني خلاب، تشارك فيه الغيوم وطيور البحر وأمواجه، وتتنهد أزهار الجزر كلها ـ وزفراتها أبخرة عطرية ـ، وتلتمع الأصداف وهي تغسل وجهها بالمساء الوردي.

★ ★ ★

خلف القشرة السياحية من وهم العيش الرغد، تستطيع أن ترى الفليبين الحقيقية إذا غافلت وكالات السياحة، وتمشيت وحيداً في طرقات مانيلا.

مانيلا الشوارع الحزينة الحارة التي تفوح منها رائحة الشواء والبهارات والمياه الآسنة، وتقبع أمام أبواب باراتها الفتيات الكئيبات بحثاً عن نسمة باردة، ودولار. . مانيلا التي تطارد البراكين والزلازل والحرائق والرياح جزرها الـ ٧١٠٧ . مانيلا اللزجة الرطوبة، التي تنوء تحت شمسها وجوه متخمة بالخيبة والجوع، تكافح لتقدم للسائح اللعين حامل الدولار ابتسامة ورقصة، وتحرص على تلميع الواجهة السياحية وذلك كي لا يعي السائح النزف الإنساني الموجع داخل ديكورات مسرح الازدهار، وصالات «السونا والمساج».

ترى قصوراً، ولا تدري لماذا تشم رائحة البارود تفوح من برك سباحتها وشرفاتها الفخمة ومن دانتيل الستائر المسدلة على الزخارف الاسبانية لنوافذها. . وثمة حدائق عامة تغافلك وكالات السياحة المحلية وتحملك إليها، وإلى زنابقها الجميلة وأزهارها الباهرة الحسن، لكنك تفاجأ بأن هذه الحدائق الغنّاء هي مقبرة خاصة بالجنود الأميركان في الحرب العالمية الثانية، وسترى عبر الأزهار حوالى ١٧ ألف قبر. .

★ ★ ★

علم الفليبين ككل شيء هنا: غريب، ويتأثر بالطقس. فهو الآن أزرق وأحمر.

الأزرق في الأعلى، والأحمر تحته. ولكن حين ترتفع «درجة الحرارة السياسية»، وتكون البلاد في حالة حرب، يبـدلون مـوضع الألـوان في علمهم، ويضعون الأحمـر فوق، والأزرق تحته!! . . .

★ ★ ★

اللعبة المفضلة لدى الرجل هنا هي «قتال الديكة». الرجل يربي ديكه ويدربه على القتال ويفاخر بأنه يحبه أكثر من حبه لزوجته. ترى هل عشقهم «للديك المقاتل» هو من قبيل التعويض (والإسقاط)؟

١٩٨٠/٧/١٢

مايا ـ مايا

مايا ـ مايا،
بوابة الفرح البريء المعافى، وعتبة الضحك للمنفيين إلى دنيا الحزن. .
مايا ـ مايا، لحظة الخروج من زمن الغبار إلى زمن الضوء. . ومن لذعة الجمرة إلى حلاوة التمرة. .
مايا ـ مايا،
حلم في خاطر شاعر، بدأ خيالاً مباركاً ثم تقمص العناصر. .
مايا ـ مايا،
لا أتحدث عن صبية تحمل هذا الاسم. لكنني أتحدث عن جزيرة منسية في البحار الاستوائية. . . قرب شواطىء الفليبين.

★ ★ ★

في مايا مايا يستقبلني النسيان، حاملاً ممحاته الحنون. . يمسح بها عن قلبي كدماته، ثم يقودني إلى الشاطىء ويمنحني صدفة شاسعة كيخت، قبطانها حصان بحر، ومجذافها نخلة، وبوصلتها الضياع الليلي المالح. .

وعند الفجر، أجد نفسي في جزيرة خرافية الجمال والبراءة، يدعونها مايا ـ مايا.

هناك يصدر الزمان عنك «عفواً عاماً»، ويغفر لك أحزانك ولوعاتك ويزيِّن جراح نفسك بنياشين الفرح المعافى. . شطآن أسطورية الهدوء، تشتري بطاقتك من الشمس لتدخل إليها، وتدفع الثمن ابتسامة!

★ ★ ★

في «مايا مايا» التقيت بسمكة تتمشى على الشاطىء، وقد ارتدت قناعاً مائياً لتغادر البحر دون أن تختنق، وكنت في طريقي إلى الغطس وقد ارتديت قناعاً هوائياً وعلى ظهري أنبوبة الأوكسجين. قالت لي: ما أغربك! . . .

★ ★ ★

في مايا ـ مايا يحوم الحزن كالشبح، فيطرده الغروب مورَّد الشفاه وتفوح من صوته

رائحة الأناناس والفاكهة الاستوائية العطرية الأنفاس.

وإذا أصرت الذاكرة المثقلة بالألم على مجالستك وأنت ممدد بين الرمل والموجة، واستحضرت عزيزاً غدر بك، طعنته مايا ـ مايا بالنسيان.. حتى إذا ما حضر طيف الحبيب، عابثاً، ممعناً في الإيلام، متجاهلاً ما اقترفه، لم يلق منك غير إجابة بسيطة كالوردة: لماذا؟

في مايا ـ مايا عُدتُ سمكةً. وكالأسماك كلها لا أعرف غير لغة الموج والمغاور والشمس وكهوف المرجان... وضحكت مع بقية أسماك الشاطىء، ولعبنا كرة السلة دون أن نخشى تفخيخ الكرة بالديناميت، وسبحنا في مياه غير مكهربة، وشوينا طعامنا ليلاً على الرمال، دون أن يتلصص أحدنا على حياة الآخر.. وفي اليوم السابع سألتني إحداهن عن اسمي، فقلت لها إنني لم أعد أذكر. وسألني صديق عن مهنتي، قلت له: ممرضة.

لم أرغب في إخبار أصدقاء الشاطىء بأنني كاتبة، لأن حديث الكتابة سيجر إلى حديث الألم والذاكرة، وهذا مرفوض في مايا ـ مايا التي تحكمها ملكة اسمها الضحك البريء.

* * *

ثم إنني لم أكذب حقاً على رفاق البحر في مايا ـ مايا. فأنا ممرضة بمعنى ما. أليست الكتابة مهنة تمريض ثقوب القلب وأوجاع الروح وكسور النفس المزمنة والعابرة، والزكام العاطفي، والسعال «الديكي» المؤذي لبعض دجاجات «القن»؟...

ومرت أيام، واسمي سمكة، ولا أحد يحدثني عن مهنتي كممرضة في جزيرة النضارة والعافية... وظننت أنني نجحت في أن أكون امرأة أخرى دون خسائر... غير الذاكرة.

وذات ليلة مقمرة، شاركتنا فيها كائنات الجزيرة رقصة الامتنان للحياة على الرمال حتى مطلع الفجر، أويت إلى خيمتي القشية لأنام منهكة بعد يوم طويل سبحت فيه فوق قرص الشمس وأشرقت عليّ زرقة بحره الحارة، ساكبة على جلدي أنهار العسل الكاوية الدفء...

ولم أكد أغرق في أرجوحة النوم حتى أيقظتني يد أحد رفاق البحر وهي تهزّني بشدة، وقال لي بالانكليزية ـ وكنا قبلها قد هجرنا اللغة واكتفينا بحوار الصمت والإشارة ـ: أرجوك أن تستيقظي.. إننا بحاجة إليك.

سألته بدهشة: ماذا يحدث؟

قال لقد فاجأت أوجاع المخاض إحداهن.. ولم نجد طبيب الجزيرة.. وأنت كممرضة تستطيعين مساعدتنا... وحدقت فيه بذهول، وقد سقط فكي الأسفل عن شفة لم تجد كلمة واحدة ترد بها...

وانفجرت أضحك...

★ ★ ★

قال لي: أرجوك أن تسرعي... إنني جاد.

وضحكت طويلاً وقلت له: وأنا أيضاً جادة في ضحكي!...

سرت معه فوق رمال مايا ـ مايا الحارة، وأنا عاجزة عن التوقف عن الضحك.

لقد هربت آلاف الأميال، وخلعت اسمي، ورميت بحبري الأخضر في دواة البحر، واستبدلت بقلمي عصا من البامبو.. وتقمصت ممرضة في جزيرة الفرح، ولم أجد الراحة. والمطلوب من الممرضة أن تجري عملية ولادة!!...

لم أكن خائفة، كنت مطمئنة إلى أنني سأصاب بالإغماء لحظة تقع عيني على دماء المرأة، أو يمسني صراخها.

★ ★ ★

وصلت إلى الكوخ...

شابة صغيرة، تصرخ بأعلى صوتها وقد تلاحقت أنفاسها وجحظت عيناها، كأنها على وشك الولادة.. وقد تحلقت حولها صديقات الشاطىء، والرجال يدورون خارج الكوخ في عصبية متوترة... وقررت أن أقول الصدق، وأطلب منهم البحث عن ساحرة القرية أو أية خبيرة... فأنا شخصياً لا أعرف الولادة إلا على الورق، ولا أقص حبل الخلاص إلا بالمبراة بين القلم والسطر...

ولم أكد أفتح فمي لأتحدث حتى وصل الطبيب حاملاً أدواته.. وقدموني إليه بصفتي الممرضة، فأخرج الجميع من الغرفة وعاملني كمساعدته الخادمة. «هيا أسرعي. سخني الماء. إنها على وشك الولادة. ساعديني. أمسكي خرقة الشاش. هاتي المقص» وأنا أهرول في الكوخ ويكاد يغمى عليّ في تجربة لم يسبق لي أن عشتها من قبل... وكدحت ساعات وأنا أغسل القماش الملوث وأغليه وأناوله للطبيب وسط شروط بدائية لامعقولة، وقررت: في المرة القادمة عليَّ أن أكون أكثر حذراً في اختيار المهن التي أتنكر

بها. وحين أكذب عن مهنتي، سأقول لهم إنني ضاربة على الآلة الكاتبة... أو عاملة هاتف... فليس في الجزيرة كلها هاتف أو آلة كاتبة.

وعندما أطلقت الطفلة الوليدة صيحتها الأولى، نسيت إرهاقي كله، وخرجت إلى الرفاق وأسماك الشاطىء وقلت لهم: مبروك. ولدت لنا مايا ـ مايا.

فقال الأب: كما تشائين. ليكن اسمها مايا.

١٩٨٥/٧/١

الدولار ضمير مستتر داخل بوذا

تهبط بنا الطائرة في سنغافورة، محطتنا الأخيرة لهذه الرحلة. نغادرها. ونفتش في أرض المطار عن خط قد يكون مرسوماً على الإسفلت: خط الاستواء. لا نجده.

ها أنت تسأل المضيفة: أين خط الاستواء يا سيدتي؟ تفتش معك على الأرض. ثم تؤكد لك أنه موجود في مكان ما، على مقربة من هنا. آه من خط الاستواء. كم خطه رديء ومحموم وجذّاب مثل رسائل حب التلاميذ الصغار.

خط الاستواء، حروفه غابات وأشجار متوحشة الخضرة تسعل رعداً ومطراً. نقاطه بحيرات خرافية السحر. فواصله طبول تقرع في أدغال عذراء. علامات استفهامه وجوه أبنوسية مغناطيسية النظرات. شارات تعجُّبه أقنعة ومهرجانات غامضة الطقوس، ترتجف أمام الدانتيل الرخامي للمعابد الصينية. آه من خط الاستواء، كم خطه محموم حين تقطر اللزوجة الحارة منه على ثيابك وجلدك وتتسلل إلى رئتيك فتضيق أنفاسك ويصير طموحك حكاية حب... مع أجهزة التبريد.

على خط الاستواء، تأتي ممحاة الليل، فتمحو عن السطر بعضاً من ملامح رداءة الخط: الحر «القارس». الرطوبة. وتحمل بعضاً من نسيمات عذبة، قادمة من جبال هيملايا خصيصاً لنجدتك.

★ ★ ★

كل شيء هنا يهذي. و«السيد الحر» يلاحقك في الطريق من المطار إلى الفندق. حر من نوع لم تألفه. كأنك هبطت داخل فوهة بركان. تحاول أن تحدق من نافذة السيارة في تلك الخضرة القانية والأشجار العملاقة التي لم تر لها مثيلاً. في خط الاستواء تذوب أصابعك كالشمعة، وتسيل أفكارك مثل البلور المنصهر فتبذل جهداً منهكاً لصبها في قوالب اللغة. و«السيد الحر» يجلس على حضنك ويعانقك ويضع رأسه اللاهب فوق كتفك ويقول لك: سأكون رفيقك في كل لحظة. سأسكن معك في الفندق. سأنتظرك داخل ثيابك. سأهطل عليك في قطرات المطر. سأفوح من أزهار الأوركيدة. من الأفضل لك أن تألفني!!... وفي الليل، حين يلصق «السيد الحر» خده على خدك،

تغمض عينيك، وتحلم بالرجل الثلجي الذي يصنعه الأطفال في حقول الثلج، ويشتد حنينك إليه، وتقرر أن تعانقه متى التقيتما!

★ ★ ★

حين يحلم الأمراء، تُبنى المدن تحقيقاً لأحلامهم. فقد حدث أن حلم أمير سومطرة بأسد يمشي في جزيرة قرب سواحل ماليزيا، ولها شكل الجوهرة. وهكذا كان، وتمت تسمية هذه الجزيرة الموصوفة في الحلم «سينغا - بورا»، أي «مدينة الأسد». حين يحلم الأمراء، تُبنى المدن تحقيقاً لأحلامهم. وحين يحلم الفقراء، تُهدم المدن غير العادلة.

وسينغافورة تحاول أن تبدو عادلة.

سكانها خليط من ماليزيا المسلمة. الصين. الهند. أندونيسيا المسلمة. تايلاند. الشرق الأوسط. وفيها محاولة جميلة لتعايش الطوائف وإطلاق حرية المعتقدات. وكأكثر هذه الجزر الجميلة التي يسيل لها لعاب الغرب، كانت ذات يوم مستعمرة بريطانية، ثم احتلتها اليابان في الحرب العالمية الثانية. وبعد الحرب صارت عضواً في اتحاد ماليزيا (الدولة المسلمة)، ثم استقلت عنها عام ١٩٦٥. وهي تقع في جنوبها، وتُعتبر المرفأ الطبيعي لهذه الأصقاع، ونقطة التقاء طرق مواصلاتها. وسط هذا الخليط الهائل من الحضارات أمشي.. وأحدق في المرئيات عبر هلوسات الحر والأبخرة المتصاعدة من الأرصفة بعد المطر.

المدينة نظيفة حقاً في حيِّها السياحي على الأقل، وكل «مخالفة نظافة» - كأن أرمي ورقة من أوراقي هذه - تدفع مقابلها غرامة باهظة لا تقل عن مئة دولار. أما مخالفة المشاة لأنظمة السير، فعقوبتها خمسون دولاراً على الأقل. وهكذا، فنحن في شوارعها نرقب أضواء شارات المرور بحرص عاشق يرصد لحظة الضوء الأخضر في عيني حبيبته!

★ ★ ★

المخازن الحديثة هنا تجدها في أبنية ضخمة مكيفة الهواء، لأنه يستحيل على أية امرأة مهما عشقت التسوق أن تمارس هوايتها وسط هذا الفرن أي أتون الشوارع اللاهبة! وهكذا تدخل البناء، وتصعد بواسطة السلالم المتحركة طوابق عدة شاهقة، وكل طابق هو مجمع تجاري، فيه عشرات الدكاكين والحوانيت، ودهاليزه تلعب دور شارع مبرد.

دخلت أحد المخازن. لاحظت استعمالهم الكثيف لعبارة «آلاماك»، وأصلها عربي هو «الله معك»، وتستخدم كثيراً في حالات المساومة والرفض والاتفاق وفقاً للهجة نطقها.

وفي مخزن آخر. اشتريت تمساحاً طفلاً محنطاً، وحين اكتشفت البائعة أنني عربية، «صادرتني» مصرة على أن تتحدث معي ببقايا لغتها العربية ذات اللكنة الصينية.

قالت إنها مسلمة وأجدادها من العرب.

سألتها: هل جدك اسمه «ابن سلام الترجمان»، الرحّالة العربي الذي جاء من سامراء إلى بلاد الصين عام ٢٢٧ هجرية؟

قالت: ومن هو؟ اسمه يبدو مألوفاً.

قلت: لقد روى رحلاته ابن خرداذبة وابن رسته والإدريسي وأبو حامد الغرناطي والحموي والنويري و. . .

ولم تضحك. وفوجئت بها تقول بلهجة جادة: لا بد وأنه هو جدي.

قلت لها: هنالك كثيرون سواه من الرحالة العرب وصلوا إلى هذه الأصقاع حاملين الدين والدنيا، الإسلام والتجارة.

لكنها عادت تحدثني عن جدها الذي لا يمكن أن يكون غير «ابن سلام الترجمان» بالذات فقد أحبت اسمه وقالت: لا تتصورين مدى تعاسة الإنسان بدون أجداد. وشكرتني لأنني اخترعت لها جداً، وطلبت مني كتابة اسمه ففعلت. وقلت لها إن تاريخ أجدادها وأجداد رفيقاتها محفوظ في كتب جميلة من تراثنا العربي هي أدب الرحلات، ووعدتها بترجمة هذه الكتب إلى الصينية، كأي سائح ينثر الوعود، ويمضي!. . .

★ ★ ★

ذهبت اليوم لشراء ساعة تستطيع أن تطيق هذا الحر كله، وكنت قد قرأت إعلاناً عن ماركة لساعة «اويستر». سألت عن ثمنها فقال البائع ٣٠٠٠ دولار وشهقت هولاً وقلت للبائع ببساطة: ليس بوسعي دفع هذا المبلغ. أريد «خصماً» ما. قال: حسناً سأبيعك إياها بألف دولار. شهقت هولاً للمرة الثانية. هكذا مرة واحدة هبط الثمن إلى الثلث؟ وهربتُ ورفضت الشراء لأنني لا أريد التعامل مع غشاش إلى هذه الدرجة!. . .

المساومة واجبة في الشرق الأقصى إذا اشتريت شيئاً.

★ ★ ★

أسير في «أوركارد ستريت» الذي تصرّ الكراسات الدعائية على تلقيبه بـ «أوكسفورد ستريت» نسبة إلى ذلك الشارع اللندني المزدحم. تمر بي الوجوه الآسيوية، تتحدث بتلك اللغات العجيبة التي تشبه بإيقاعها زعيق طيور استوائية في غابة غامضة.

غمرني حس عميق بالوحشة، فجلست على أحد المقاعد الحجرية، واسندت رأسي إلى كتف «السيد الحر». ما أقسى لحظة الغروب وأنت وحيد في مدينة نائية. وفجأة، سمعت صوتاً عربياً أنست به يؤذن لصلاة المغرب. خيل إليَّ أنني أصبت بضربة شمس ودخلت في مرحلة «الهلوسة». لكن الصوت كان يأتيني عبر الدوار نقياً صافياً عـذب النطق. حاملاً إليَّ تلك اللغة التي ألفت، والتي بها أفكر وأكتب وأحلم. . وأحب.

وسرت مسترشدة بالصوت. وعند منعطف في زاوية الشارع قرب فندق هيلتون، شاهدت مسجداً صغيراً متواضعاً. . . وصرت أحوم حول الباب، وبعد قليل خرج منه شيخ طويل اللحية، فقلت له: السلام عليك. فتأملني لحظة كما لو كنت شبحاً، ثم انطلق هارباً. . . واكتأبت. لو كنت رجلاً لما أخفته.

في سينغافورة عدة جوامع، أجملها «جامع السلطان» الـذي يمتاز بفن معـماري خلاَّب آسيوي ـ باسيفيكي، والحضور الإسلامي هنا كثيف.

وفي المساء، الساعة ٧,٣٥ بتوقيتهم، حـين كنت أراقب التلفزيـون استعداداً للخروج إلى مجاهل العشاء في «بوجي ستريت»، قطع التلفزيون برامجه كما يفعل كل ليلة فيما يبدو وأذاع بعضاً من آيات القرآن، ثم أذان العشاء، من القنال «ماليزيا وان». إنه لأمر مؤنس أن تسمع اللغة العربية وأنت في آخر الدنيا. . .

كم كان أجدادي يعشقون المغامرة والترحال، حتى وصلوا إلى هنا في آخر الدنيا قبل عصور السيارات والطائرات وحتى السفينة البخارية. . . ما ذنبي إذا كنت قد ورثت ذلك الجنون العذب عنهم؟

★ ★ ★

سينغـافورة هي جـزيرة الحـدائق ـ لا الحرائق وحـدها! ـ، ويلقبـونها بالمـدينـة الخضراء.

في الصباح الباكر، حاولت أن أستيقظ قبل أن تنهض الشمس من سريرها. وحين غادرت الفندق، كانت تنتظرني وقد تربعت فوق زجاج السيارة مكيفة الهواء، فزجرتها، ورجوتها أن تغيب، فغابت. وحين وصلت إلى الحديقة الصينية «يوهوا يوان» كانت قد حلّت محلها غيوم سود كثيفة تضاعف من وهجها! . . .

سرت طويلاً وسط هذا المكان الخلاَّب، أتأمل نهر سينغافورة الشبيه بـالذهب المصهور البرّاق، وعلى ضفتيه الباجودا وتماثيل الصين الخرافية ووحوشها وقصورها على هيئة مراكب رخامية. . .

وسمعت صوتاً كأنه زفرات وحش أسطوري. إنه الرعـد، وصوتـه هنا مختلف حقاً. كأني بهم حين سمعوه، اخترعوا له التنين!..

وحين صرت وسط الحديقة، انفجر المطر فجأة كما في الأفلام السينمائية الرديئة بمبالغتها، وركضت إلى أول شجرة أحتمي تحتها، وحين وصلت، كنت مبتلة حتى قاع عظامي. توقفت العاصفة بغتة، كما ابتدأت. فتابعت جولتي وسط هذا السحر كله. وحين غادرت الحديقة، كانت ثيابي قد جفت، بل وعادت تبتل بالعرق اللزج!.. آه من خط الاستواء الذي لا يخضع لتعاليم أي خطاط.. أو خطة «طقسية» واضحة.. وبعدما تعيش في مناخ الصين، تغادر حديقة «يوهوا يوان» وتودع أزهار اللوتس والزنبق المتفتحة على وجه البرك، وتنتقل في ومضة عين (وتاكسي) إلى اليابان، حين تخطو إلى حديقة «ساي واين» اليابانية التي تعتبر آية من آيات فن الحدائق الذي يبرعون فيه. إنها دنيا من الهدوء والسحر. فيها غبطة سرية تنبعث من جمال خفي متوازن. مـا أغرب الخضرة هنا.. إنها عشرات من «الخضرات» متدرجة الألوان حتى ليبدو كل لون منها شديد الاختلاف عن الآخر.

الحدائق في سينغافورة شاسعة، وعديدة، وكلها يستحق الزيارة. هل تستطيع أن لا ترافقني إلى الـ «بوتانيك جاردن» لتحدق معي في «الزهرة المفترسة» والشجرة «آكلة اللحم» التي تطبق على فريستها وتمتصها وتقتلها في عناق شرس الالتصاق؟

الزهرة اللاحمة المفترسة جميلة حقاً، كالحب. إنك تشتهي السقوط في بـراثنها. وكالحب، تمتصك وتقتلك أحياناً. هذا ما تفعله الزهرة الآن بفراشة فضولية، دخلت منطقة الخطر بحثاً عن لون جديد... وداعاً أيتها الفراشة.

وداعاً أيتها الطيور الـ ٧٠٠ السجينة في حديقة «جورينغ» داخل شبكة شاسعة تطيرين داخلها وتقتاتين من وهم الحرية... ما أشبهنا بك في أكثر من قطر عربي... حديقتك شاسعة حتى أنني أتجول فيها راكبة قطاراً، ولكن القفص هـو القفص مهما اتسع!...

★ ★ ★

في «البوتانيك جاردن» يحاولون بيعك زهرة أوركيدة ذهبية كتذكار مؤكدين لك أن الذهب مصبوب فوق زهرة كانت حية وتحجرت داخل الـذهب. وبدلاً من إغـرائك بذلك لتشتري قد تصاب مثلي بالهلع من عملية التحنيط المذهبة هذه للأزهار. هكذا الذهب، دوماً يقتل الأزهار، بوسائل عديدة بعضها لا يخلو من الجمال! مع الالتصاق

بالذهب لا يعود أي شيء كما كان. وقد يبدو من الخارج أجمل ولكن القتل كامن في الداخل!

★ ★ ★

إذا رفعنا عن سينغافورة قشرة الحدائق والغابات وناطحات السحاب الحديثة، فسنجد أنفسنا أمام الجوهر. . . أمام مدينة يخطط لها لتكون مركز خدمات من الطراز الأول. . . ولكن «خدمات» لمن؟ ها نحن من جديد أمام آلاف الدكاكين ومختلف البضائع ويعيش الدولار ودامت هونغ كونغ مثلاً أعلى!. . .

في المخازن يبيعونك تماثيل أوثانهم المتعددة. . . وتجد بوذا في كل مكان وبكل الأسعار. . . وتشعر بأنه قد تم تفريغه تماماً من أي مضمون غير المال، وتصير قانعاً بأن الدولار ضمير مستتر داخل بوذا وغير بوذا، وكل شيء يتم تحويله إلى سلعة في هذه الأصقاع التي تتدرب على ممارسة دور الفندق. الرفاه السطحي في سينغافورة يخيفك. الأسواق الشبيهة بأسواق لندن وجنيف الملصقة على قلب آسيا بالصمغ، تدفع بك للبحث عن أي شيء ثقافي له جذور إنسانية حقيقية. . . فتذهب راكضاً إلى دار الأوبرا الصينية. وتدخل إلى كل معرض فني تراه في دربك، وتفرح حين تتعرف إلى فن الرسام الصيني (وو - تساي - ين)، الذي يرسم باصبع يده بعد أن يغمسها بالألوان. كم هو بدائي، ومتحضر، ويرسم الروائح والأصوات لأزهاره المنمنمة. .

★ ★ ★

تجد في سينغافورة الأعياد الدينية الإسلامية بطقوسها المتقشفة. لكنك تجد أيضاً تلك الأعياد الوثنية التي يتم تشجيع ازدهارها بحجة السياحة. أعيادهم الوثنية الكثيرة شبيهة بكرنفالات دورية ملونة، طقوسها عجيبة ومناسبتها غريبة (مثل عيد ميلاد رب القرود!). وفي عيد رأس السنة الصينية يرتدون الأقنعة، ويمارسون الرقص المجنون في الشوارع ويركض بينهم التنين الملون والأسد والتمساح. . والتخدير.

★ ★ ★

في سينغافورة وراء كل رقصة أسطورة. . رقصة الأسد. . . رقصة البامبو. . رقصة الحب. .

أتأمل «رقصة السيف» في سينغافورة، وهي باختصار تمجيد للعنف الذكوري التاريخي، وأنا آتية من مدينة العنف الذكوري الغبي. أتوق إلى رقصات مختلفة متحضرة إنسانياً، كرقصة «التخاطر» مثلاً، أو رقصة التعارف مع سكان الكواكب الأخرى. . .

معظم الرقص مكرس لتمجيد الجنس (أو إثارته بأجساد نسائية متلوية)، أو القوة الذكورية العدوانية عند الرجل. يتوق القلب إلى شيء آخر. . .

★ ★ ★

يشعر المرء بالحزن وهو يتسكع في «بوجي ستريت» المكرّس لأقدم مهنة في العالم. والجديد هنا ـ نسبياً ـ أن الرجال يمارسونها أيضاً ويقاسمون البغايا رغيفهن البائس في أزقة الأوساخ الروحية.

بالمقابل، تحرص سنغافورة على نظافة شوارعها وتعزز ذلك بحملة ضد التدخين. الكتابة على الجدران عقابها «فلقة». فحذار من دفاتر المجانين!

★ ★ ★

نهر سينغافورة حزين وداكن ورمادي ويذكّر بالدانوب الأزرق غير الأزرق. وبعدها نمضي صعوداً حتى الجبل.

أقف على قمة جبل «فابر». أتأمل ميناء سينغافورة الذي يتباهون بأنه الرابع في العالم ازدحاماً. أرى المراكب في القاع كدمى أطفال فوق صفحة مرآة. وأسمع صوت باخرة راحلة، فأشعر بحزن شفاف له طعم الوداع. خلف هذه اللوحة، تبدو جزيرة «سانتوزا». إنها جنة استوائية أخرى تستطيع الوصول إليها بالمركب أو بالعربة المعلقة في الجو (التلفريك). وقد حولوها إلى مكان سياحي يُرضي الأذواق العصرية. مسابح. مقاصف. جولف. كرة المضرب (تنس). تجذيف. . «كورالاريوم» هو بمثابة كهف مكيف الهواء تحت الماء يرسم الحياة في قاع البحار وتركض فيه الأسماك بين المرجان والأصداف والنباتات البحرية.

وتركض فوق عيني عشرات الجزر الاستوائية التي مررت بها. وسبحت في مياهها الفيروزية. وراقصت أسماكها الملونة على ايقاع الغروب. . . لكنها لم تغسل عن عيني بيروت ولم تقطع جذراً واحداً من الجذور التي تشدني إلى هناك. . . أتأمل «سانتوزا» بأسف. ها هي جنة استوائية أخرى، سأزورها، وأغادرها، دون أن أبقى فيها إلى الأبد، وأعيش في أحضانها كالقبائل البدائية. آكل الثمار الاستوائية والأسماك وأسبح وأرقص للقمر، وأنسى تراثاً من الأحزان المختزنة في داخلي. . أنسى. . . أ. ن. س. ى.

★ ★ ★

غداً أعود إلى الوطن.

قال لي أصدقائي الاستوائيون الذين توطدت صلتي بهم جزيرة بعد أخرى: لا

تعودي. ليكن وطنك سفينة حمراء الأشرعة (جانك) ونقضي العمر متنقلين من ميناء إلى آخر مثل «الآسيوي الطائر» بدلاً من «الهولندي الطائر». سنمضي إلى هونغ كونغ. تايلاند. ڤييتنام. ماليزيا. بورما. أندونيسيا. سننام في جزر بكر مجهولة، ونرسم ونكتب ونصادق مخلوقات الطبيعة..

وتلح «توي سوان تانغ» وتقول: بحارة (الجانكس) وكل المراكب الصينية العتيقة، يؤمنون بأن النساء يجلبن الفأل السيىء في البحر. لكنهم قبلوا بذهابنا معهم. فكيف تتخلين عن هذا الامتياز؟ سنتأملهم في محرابهم الخشبي المالح العتيق وهم يصلون حين يسوء الطقس، وسنتعلم الكثير عن طقوس مصالحة عفاريت البحر واسترضاء الأمواج، وسنساعد في رفع الأشرعة الحمر وصيد الغزلان في الجزر النائية...

كانوا يحدثونني عن تلك الرحلات التي تنظمها بعض الشركات في سينغافورة لأصحاب الأمزجة الفنية. فالحضارة الاستهلاكية لم تنس أحداً حتى ولا الكتّاب وعشّاق الحياة الحرة والمجهول... وقبل أن أقول لهم لا، كانت «توي سوان» تمسك ببطاقة سفري، وقد قرر الرفاق تمزيقها.

عبثاً تقول لهم إن بطاقة سفرك الحقيقية هي قلبك، وأن عودتك إلى الوطن مرصودة لك في داخلك كما هجرة السنونو إلى الربيع.. وأن ذلك الزمن الذي عشته قبل أن تلتقي بهم هو زمن حقيقي، وأولئك الذين تحبهم هناك في الوطن هم أناس حقيقيون أيضاً.. وأننا لا نستطيع خلع الماضي عنا كما نخلع قميصاً عتيقاً!..

★ ★ ★

أعود إليك. مثقلة بالمدن والمطارات الملتهبة. مثقلة بأصوات الغرباء ومطر الليالي الاستوائية. متوزدة بالحب العتيق كله. أعود إليك. وكل ما انزلق من مراكب ملونة فوق صفحة عيني، لم يمح صورتك عنها. أعود إليك، وأقسم بآلاف الغابات التي قطعتها، وآلاف الجزر التي ارتديتها، أنني لم أغادرك لحظة.

الغرف كلها متشابهة. العتمات كلها متشابهة. الزفرات كلها متشابهة. الأيدي كلها متشابهة. وقد تعبت من ترحالي بين الليل والانتظار، بين الدهشة والخيبة، ووحدها بصمتك، كانت مختلفة!

١٩٨٠/٧/١٨

الشرق الأقصى: نفوس أحناها الفقر ولم يكسرها

إنه صباح المطارات المزدحمة بالوجوه القلقة، الكئيبة كأطفال المياتم. وأنا جالسة في «الترانزيت» بمطار سينغافورة، في طريقي إلى الوطن. لقد جئت قبل موعد الطائرة بساعتين، والشوق يجلدني. أحدق في الحقائب الراكضة أمامي على دواليب صغيرة، الحقائب ذات العجلات، الأقدام ذات العجلات، البيوت ذات العجلات، والزمن الراكض على عجلات... كل ذلك يهرول أمام عيني، وأنا أنتظر. وتنهار فوق رأسي مرئيات أيامي في الشرق الأقصى كمنجم من الماس والتراب والفلزات والعناصر...

أتذكر عشرات الجزر المكرسة للفرح. الشواطىء المكرسة للرقص البدائي. الأصداف المكرسة للسباحة داخلها. والأدغال المنذورة لعشق الحياة. والطقوس المرسومة للنسيان... لكن صوراً أخرى مؤلمة تأبى أن تفارق ذاكرتي. لقد عشت هنا عذاب الصحو، بالرغم من أن كل ما فيها مكرس للتخدير - ربما بسبب ذلك، لا بالرغم من ذلك! -

ما زلت جالسة في الترانزيت. لكن بعض الصور تأبى أن تمر بذاكرتي على طريقة «الترانزيت». يخيل إليّ أنها التصقت بدماغي كأثر جرح عميق...

أتذكر «فورت سانتياغو» في مانيلا، المكان السياحي «اللطيف» اليوم، والحصن السابق الذي أعدم فيه ذات يوم بطلهم القومي الدكتور ريزال. أتذكر بغصة سجن الحصن. إنه شبيه بقبو محفور في الصخر تحت الأرض، وسقفه من القضبان. وحين تسير على أرض الحصن، فأنت تدوس فوق السقف وتطل على ذلك الجحر الحزين من الأعلى. وهنالك سرداب يمتد بين قبو السجن الوطيء، والنهر المجاور. وكان إعدام المناضلين يتم بخنقهم في الماء بعد فتح الباب بين السرداب والنهر، بحيث يمتلئ السجن حتى سقفه بالمياه!... وتذكرت عشرات السجون الأخرى في أكثر أقطار هذه الكرة الأرضية الضالة، ولكل سجن طريقته «المحلية» المبتكرة للتعذيب والقتل، لكنها كلها تتشابه في جوهرها و«الكوليسيوم» في روما القديمة، حيث كان يتم إعدام الناس بتقديمهم - في احتفال جماهيري - طعاماً إلى الوحوش المفترسة. وشعرت بأن الوحش الأكثر افتراساً هو الإنسان. لم يتبدل كثيراً في جوهره على طول تاريخه، فهو ما زال يتفنن

في ابتكار وسائل القتل والتعذيب والقمع والإبادة. ترى متى نشهد عصراً يتفنن في ابتكار توفير سبل الديمقراطية والحرية والفرح؟ لقد طال زمن العصر الحجري على هذا الكوكب.. لقد دخلت الآلة عصر الذرة، لكن قلب الإنسان لا يزال يعيش عصر الديناصور!!

★ ★ ★

يدهشني الذين زاروا الشرق الأقصى، فلم يروا في نسائه غير «الجيشا»، ولم يروا في مغاوره غير صالات المساج والسونا، ولم يلمحوا في ليله غير المخدرات والعنف، ولم يسمعوا في فجره سوى صيحات الكاراتيه، وتوهموا أن «الكونغ فو» هو رقصه الفولكلوري.

إن الانطباع بأن جميع نساء الشرق الأقصى من الجيشا المكرسات للحب والجنس، شبيه بانطباع آخر هزلي، كالقول بأن جميع نساء الشرق الأوسط راقصات، انطلاقاً من سهرة قضاها غريب وشاهد خلالها رقصة «هز البطن» الملقبة بـ«الرقص الشرقي» في بلادنا. والذي يحدث أن الرجل يزور البلد ـ بلداً ما ـ فيحاولون «تكريمه»، ويتم اللقاء مع امرأة «تحترف اللطف»، فيغادر صاحبنا البلد ساقطاً في فخ التعميم...

المرأة في الشرق الأقصى عاملة وجادة كالأكثرية الساحقة من النساء العربيات (باستثناء طبقة معينة محدودة). امرأة الريف عندهم وعندنا كادحة حقيقية. تعمل في الحقل. في البيت. تحمل أثقالاً على كتفيها وداخل بطنها، وتهرول خلف الرغيف في البراري، وفي شوارع المدن بعيداً عن الواجهة السياحية المزيفة.

حذار من تصديق دمى الواجهات السياحية!.. أما الابتذال المفترض، فليس ظاهرة عامة، وإنما هو محصور في الأماكن الخاصة به كما في أكثر بلدان العالم. ولعل في لندن صالات للسونا والمساج أكثر مما في بانكوك وهونغ كونغ وسنغافورة. ولكن الإعلام السطحي صوَّر امرأة الشرق الأقصى ككائن مكرس للجنس، وتضخَّم هذا العامل كي يخفي الحقيقة خلف ردف المرأة الآسيوية. والمؤسف أن بعض الأدباء العرب المعروفين الذين سافروا إلى تلك الأصقاع وكتبوا عنها، أطالوا الحديث في وصف الجيشا. العنف. الجنس، وسقطوا أسرى صنارة الفخ الإعلامي إياه. وتم بذلك إلهاؤهم عن الجوهر، عن الملايين التي تركض خلف اللقمة في عراء العصر، بأقدام ممزقة النعال تحت شمس اللاحرية في بعض أقطارهم، ولهم جذورهم المغروسة في حضارات عريقة.



أهم ما يخطف قلبك هنا، ليس جمال النساء الآسيويات ولا السحر الخاص لعيون

رجالهم متوهجة العتمة، التي تحدق فيك والحدقة نقطة ضوئية نفاذة. . . لا، ولا الانهيارات الممتعة التي تتلاحق في روحك وأنت تراقب تلك الوجوه الاستوائية تتدفق حناناً حاراً وفضولاً شهياً. .

ما يخطف قلبك هنا ـ وهو ما خطف قلبي ـ ظاهرة الركض خلف الرزق بأية وسيلة ممكنة.

ها هو الآسيوي المحصن بحضارة روحية ثرية عمرها أكثر من ٧٠٠٠ سنة، يواجه زحف اللعبة الاستهلاكية إلى أرضه بصورة تعهير للقيم على كل صعيد تحت ستار الازدهار المادي والسياحة والفنادق والمقاصف وصالات القمار وغيرها. . . لكنه يواجهها أيضاً جائعاً، متعباً، مثقلاً بتركة الاستعمار المعروفة من جهل وفقر ومرض (والتي سبق للاستعمار أن خلَّفها لنا في بلدان عربية كثيرة قبل انسحابه). ها هو الآسيوي الملقح بروحانية عريقة غابرة، يفتش عن رغيفه وسط حقل من الأوبئة ويحمل أسرته الكثيرة العدد على أكتافه، ويركض وراء رزقه في سيركات عصرية للتدجين ولاقتصاد الخدمات والربح السريع. إنك مثلي، لن تنسى ظاهرة الركض خلف الرزق بأية وسيلة، ضمن إطار هذا المجتمع الاستهلاكي المستحدث، ولن تنسى أولئك الشبان الفقراء في بانكوك الذين يطاردون السائحات عارضين خدماتهم في مجال بيع جلود التماسيح وغيرها من الصناعات المحلية. ولن تنسى ذلك الشاب في هونغ كونغ الذي رافقك كدليل سياحي، والتقط صورتك خلسة، ثم طبعها على صحن صيني وباعك إياها «مرغماً» بمبلغ باهظ. ولن تنسى ذلك المصور المسكين في مطار مانيلا الذي أخافك وكان مجرد جائع آخر. كان في وجوههم جميعاً ما يعبر عن عزة النفس على فقرها. وستتذكر بحسرة كيف يقنعون أولئك الشبان بالتخلي عن أسمائهم المحلية الجميلة مثل «فينغ تشاو» و«تشو يانغ كوان» فيدعو الأول نفسه «توني» والثاني «تشارلز»، وستتذكر السائق التايلاندي اللطيف «بيون» الذي قدم نفسه إليك للمرة الأولى على أنه «جيم» وكيف حاولت إقناعه بأن اسمه المحلي أجمل بعشرات المرات من اسم «الدلع» الأميركي.

وستتذكر بحنان تحايلهم اللطيف على فقرهم، ومحاولتهم الذكية لكسب الرزق. سيارة تاكسي (الجيبز) الطريفة في مانيلا مثلاً، كانت أصلاً سيارة جيب عسكرية من مخلفات الحرب العالمية الثانية. وقد حوّلها أهل البلد ـ الذين لا يملكون ثمن سيارة جديدة ـ إلى تاكسي طريف، فأسبغوا أرواحهم الآسيوية الزاهية على السيارة. لوّنوها. كسوها ثياباً. رسموا لها أسناناً وثبتوا على مقدمتها عدة تماثيل لأحصنة ملونة، وطافوا بها في الشوارع وسحروا الغرباء. . .

ستحس بحنان ومحبة نحو تلك النفوس التي أحناها الفقر ولم يكسرها.

وسيظل يحزّ في نفسك أن قبور الجنود الأميركان في الفليبيين أكثر فخامة من بيوت الأحياء من أهل البلد ـ الأكثرية الساحقة من الفقراء ـ، وأكثر محافظة على قواعد الصحة العامة، إذ تحيط بالقبور زهور اللوتس وتحيط بالبيوت المياه الآسنة. . .

★ ★ ★

قد تتذكر بحنين تلك الباسيفيكية الجميلة التي التقيتها في صالون «السونا والمساج»، واستطاعت أصابعها المحنكة سرقة متاعبك من تحت جلدك ولو لساعات، لكنك لن تنسى أبداً تلك المرأة التي طلعت علينا كالرؤيا في بانكوك وهي حامل ربما في شهرها التاسع، وعلى كتفيها تلك العصا التي يتدلى من طرفيها حبلان ينتهي كل منهما بما يشبه كفة الميزان، مليئة بالفاكهة الاستوائية والحطب والأثقال. . . وقد ربطت إلى ظهرها طفلاً لفته في قطعة من القماش، وركضت بذلك كله مسرعة تحت وهج الشمس. . .

ولن تنسى تلك المرأة التي شاهدتها في الفجر تعمل في حقول الأُرز في إحدى قرى الفليبين، وكنت في طريقك لقضاء يوم سياحي طويل في شلالات «باجسانجان». ثم شاهدتها ثانية في طريق عودتك وقت الغروب، وكانت لا تزال تعمل في الحقل ذاته. . . وتأملت وجهها، فرأيته وقد استحال حبة أرز كبيرة ممسوحة الملامح، شبيهة بدمعة متحجرة! . . .

★ ★ ★

ما زلت جالسة في صالة الترانزيت، منسحبة إلى داخل أقصى ركن في صدفتي ـ الجسد، والطوفان يطاردني. . . طوفان الوجوه والروائح والصور لتلك الأصقاع النائية. . . الصور تتلاحق كما لو أن ماكينة عرض جهنمية قد استقرت داخل رأسي. . . تتسارع أحياناً، ثم تبطىء لتتجمد على صورة معينة. . .

★ ★ ★

أتذكر ذلك الثقل الهائل الذي يجثم على صدر الغريب في ليلته الأولى بسينغافورة وخط الاستواء. . لعله مزيج من الرطوبة والحرارة، والشوق إلى الوطن.

ليلتها قررت أن أعرف الوزن الكمي لهذا الثقل الذي يخنقني، فصعدت على الميزان في أحد المخازن، ورميت بالدولار في وجه الآلة، فزمت الآلة في وجهي بقصاصة مكتوب عليها بالصينية والانكليزية وزني وحظي. وكان وزني قد نقص (كأن وزنك

يتناسب عكساً مع الثقل الجاثم على روحك!).

أما عن الحظ، فهم في الشرق الأقصى الغامض يؤمنون حقاً بحكايا التنجيم والأبراج، ولهم أساليبهم الخاصة في ذلك. أبراجهم تختلف تماماً عن تلك الأوروبية المألوفة لدينا. «الزودياك» الصيني يعتمد سنة الولادة في كشف الحظ. أما أبراجه فهي: برج القرد. برج الديك. برج الكلب. برج الخنزير. برج الفأر. برج الثور. برج الأفعى. برج النمر. برج الأرنب. برج التنين. برج الحصان. برج الجدي.

وخيل إليَّ أن أكثر أصدقائي العرب مزيج من «برج التنين» و«برج الديك». فيهم طعم الخرافة، لكنهم حريصون على خيلاء ديك القن المزدحم بالدجاجات المطيعة. تسألني عن برجي؟ أنا امرأة تقف وحيدة في العراء، بلا برج، ولا جدار ولا أوهام تختبىء خلفها!...

★ ★ ★

الشرق الأقصى هو موطن الرمزية العفوي. حيث الشخصية الآسيوية خصبة، وتستخدم في التعبير عن نفسها كل شيء... تستخدم أحياناً أدوات البناء لكتابة قصيدة، وتعمر جبلاً لتقول لك حكمة ما...

أتذكر في بانكوك جسر «بانفاه» الذي بناه ملكهم القديم راما الأول، وما زال بحالة جيدة (الجسر لا الملك!)، وأمامه بقايا قلعة «ماها كال»، وخلفها ذلك الجبل الذهبي الشبيه بقصيدة سوريالية غامضة الحكمة. إنه جبل اصطناعي، وفوقه قبة من ذهب براق تشتهيه النفوس. الوسيلة الوحيدة للوصول إلى الذهب هي في تسلق الجبل عبر طريق لولبية صاعدة نحو الأحجية. لكنك حين تصل إلى قمة الجبل لاهثاً منهكاً، لا ترى من القبة الذهبية إلا بعضها، وكنت تراها من القاع بشكل أفضل بكثير!...

ماذا يقول لك جبل الذهب؟...

بل ماذا يقول لك الببغاء في قاعة الفندق في «المدينة الخضراء» أي سنغافورة؟ قال لي ذات ليلة قبل النوم، والعتمة ممعنة في التوغل نحو النجوم، والقلب نحو الشوق: «ساوات دي» أي «مساء الخير» باللغة التايلاندية. فأجبته بالعربية: «صباح الخير». وصار الببغاء كلما رآني يقول لي: صباح الخير. صباح الخير. سامحه الله. لو كان يدري معنى هذه الكلمة ليلاً! يسمعها باللغة العربية غريب جاء من أقاصي الأرض... فلا ينام بعدها والشوق يأكله... ويصير ليله صباحاً... ويفتش عن نافذة يفتحها ليتنهد مع نسائم الليل أشواقه.

لا نافذة. الفنادق الحديثة الجميلة الفخمة تحولت إلى غواصات بنوافذ شفافة غير قابلة للفتح كما في الطائرة. هكذا كانت حالي في «هيلتون» مانيلا وسنغافورة و «حياة ريجنسي» هونغ كونغ. افتحوا النوافذ للريح. تعبت من عالم الغرف مكيفة الهواء والمكهربة!

★ ★ ★

(ولم التقط صورة تذكارية مع كونفوشيوس. ولم ألبس ثوب الميكادو. ولم أعالج «قلقي الوجودي» بالإبر الصينية. ولم أخبىء في صدري تحت ثوبي الحريري «كوبرا». ولم أبعث بتلكس شكر إلى بوذا والدالاي لاما. تسألني إذا كان الشرق قد ألهمني الحكمة؟ الشرق ألهمني الحب. فالحب يتربع على قمة هرم الحكمة! . . .).

كتبت هذه الرسالة إليه ذات ليلة في هونغ كونغ، ثم مزقتها ثم أعدت كتابتها. وسطّرت لبقية الأصدقاء بطاقات بريدية. ولم أنس كتابة رسالة إلى «نفسي» كي تنتظرني داخل صندوقي البريدي في بيروت حين أعود، وتحميني من الوحشة فيما لو وجدته خاوياً! أجل، كتبت لنفسي رسالة، وبعثت بها «إليَّ» بالبريد المسجل وجاء فيها: لا تتوهمي أنك عدت من الغربة. غربتك الثانية بانتظارك هنا!

★ ★ ★

ما زلت جالسة في الترانزيت بمطار سينغافورة.

بدأت أضيع أسماء الأيام. بدأت آلف وجوههم. بدأت أشعر أن الوجوه الأوروبية التي تمر بي هي الغريبة: لماذا ليست عيونها مشدودة إلى الأعلى؟ لماذا أنا هنا؟

وأتذكر أنني أنتظر طائرة تحملني إلى الوطن. فأركض خلف المضيفة، وأسألها عن موعد الاقلاع. تجيب بهدوء: لقد أقلعت طائرتك منذ ساعة ونصف يا سيدتي. أين كنت؟ . .

١٩٨٠/٧/٢٤

في أميركا تراقب التلفزيون وتقول:
ذلـك غير معقـول عـلى الإطـلاق.
وحين تخرج إلى الشارع تجد الشيء
ذاته يحدث.

جوان أرماتريدينغ

هوليوود هي أن تكون في اللامكان
متكلماً مع اللاأحد عن اللاشيء.

مايكل انجلو انطونيوني

نيويورك؟ تلك المدينة غير الطبيعيـة
حيث الكـل منفيّ، والأمـيركـان
بصورة خاصة!

شارلوت غيلمان

هـوليوود كـانت دائـماً قفصـاً يلقي
القبض على أحلامنا.

جون هيوستن

الـرجال البيض والسـود والصفـر.
لكل أولئك دمع مالح.

كلود أفلين

فلوريدا: منتصف ليل النهار

عنـد الظهـر، أقلعت بي الطائـرة من باريس إلى اورلانـدو (فلوريـدا) مـروراً بواشنطن. لحظة اقلاع الطائرة، وانفصالها عن الأرض تطلق باستمرار سراح أفكاري في البعيد النائي عن التفاصيل الصغيرة. . كأنهم حين يقيدونني إلى سجن المقعد، يحرضون روحي على الطيران بعيداً في فضاءاتها الخاصة، فأواكب بطيراني الداخلي السري تحليق العصفور الفضي المعدني، مبحرين في لحظة واحدة إلى المدى.

تسألني المرأة المشاكسة التي تقطنني: لماذا اخترتِ الولايات المتحدة بعد زيارتك إلى اسبانيا؟ هل ترحلين داخل التاريخ بدلاً من الرحيل داخل الجغرافيـا، فتودعـين مجد العرب الغابر في الأندلس بمناسبة مرور ٥٠٠ سنة على غروب شمسهم، وتتابعين من هناك سفرك إلى شواطىء أميركا على خطى كريستوف كولومبوس وبمناسبة مرور حوالى ٥٠٠ سنة أيضاً على اكتشاف العالم الجديد؟

لا أجيب. . تتابع هي مشاكستها الفكرية وتضيف: لفرط اعجابك بالحضـارة العربية الغابرة في الأندلس، ستقولين لي إنّ اكتشاف أميركا ما كان سيتم لـولا تلك النهضة الحضارية، وإن كولومبوس عربي الروح في جوعه إلى الاكتشاف وأندلسي الهوى في شوقه إلا اللامتناهي. . أقول لها مستشهدة بالدكتور عيسى مخلوف: «الأندلس كانت المركز الثقافي الأهم، وفيها تتفاعل الثقافات والأفكار، وهكذا فإن النهضة الغربية الأولى ارتسمت معالمها في اسبانيا المسلمة. . . ومن هنا فإن الوجود الإسلامي في الأنـدلس والوثبة الحضارية التي نتجت عنه، وبلوغ كولومبوس شواطىء أميركا يشكلان الحدثين الأساسيين في تاريخ الغرب الحديث».

تتابع المرأة المقيمة في أعـماقي مشاكستهـا الفكريـة لي، ساخـرة مني كعادتهـا: ستقولين أيضاً إن الحضارة الأندلسية كانت أكثر خصباً إنسانياً من الحضارة الأميركية. أرد عليها بقول الدكتور عيسى مخلوف أيضاً: «اكتشاف أميركا كان مؤشراً إلى ثقافة من نوع آخر (غير الأندلسية)، ثقافة تفعل ولا تتفاعل. تهيمن وتستبد. تقتل الحضارات الأخرى كما فعلت مع الحضارات الأميركية التي سبقت الاكتشاف»، وهذه شهادة سواي ما دامت شهادتي مجروحة بالوجد!

★ ★ ★

بسخرية تقول لي المرأة المناكفة التي تقطنني، وتستيقظ لحظة اقلاع الطائرة (وفي أوقات أخرى غير ملائمة كمنتصف الليل أو الفجر): هل أنت ذاهبة إلى أميركا لعقد دراسة مقارنة بين الحضارة الإسلامية في الأندلس وحضارة الـ U.S.A؟ أم أنك ذاهبة لتحدقي بالأشياء بعين السخط، وعين الرضا عن كل عيب كليلة، وعين السخط تبدي المعايبا ـ كما قال الشاعر؟. هل سترين الـ U.S.A بعين العربي المجروح من السياسة الأميركية؟

أؤكد لها أنني ذاهبة بعين الفضول لا أكثر. ولست في سبيلي إلى تصفية حساباتي السياسية (كمواطنة عربية مجروحة) على حساب الشعب الأميركي الذي أتوق إلى معرفته عن قرب في زيارتي الأولى. . . وأعرف أن مهمتي مع نفسي لن تكون سهلة، لأنني مثل الأستاذ جهاد الخازن، أعتقد أننا «سنقبل جدلاً أن الولايات المتحدة أرسلت نصف مليون جندي إلى الخليج حباً في العيون السود وخدمة لمبادىء العدالة والحرية وحقوق الشعوب، شرط أن تقبل هي أنها أرسلت جندها كذلك لحماية مصالحها الستراتيجية في إحدى أهم المناطق الاقتصادية في العالم». وأتفق مع الأستاذ عبد الوهاب بدرخان حين قال: «قد لا يكون في مستطاع الأميركي أن يضغط على الاسرائيلي في مسائل الأمن والتسوية، ولكن يحسن به ألا يحاضر في المسائل الإنسانية ما دام يتبنّى الممارسات اللاإنسانية التي ترتكبها اسرائيل. هناك ظلم تاريخي في هذا الشرق الأوسط الذي يبحثون له عن سلام، ظلم العرب للعرب، وظلم الأميركي ـ الاسرائيلي للعرب». وأتفق كذلك مع رئيس تحرير مجلة المجتمع الكويتية حين قال: «إن كل الكويتيين يجمعون على أن الولايات المتحدة حررت الكويت ليس حباً فينا ومن أجل عينينا، وإنما فعلته لأن هذا التحرير يتفق مع مصالحها وإرادتها وهيبتها الدولية». وأنا أعتقد أن الدول ليست جمعيات خيرية كما يحلو لبعضنا أن يتوهم!

تقول لي المشاكسة التي تقطنني: هل اخترت هذه الأقوال كلها من صحيفة وقفت بضراوة إلى جانب الكويت في أزمة الخليج لتؤكدي حيادك في اختيار المصادر؟ قلت لها نعم، وإلا لانتقيت قول الجنرال الفرنسي جورج بوي: «إن أكبر فتح حققته إسرائيل ليس سيناء ولا الجولان ولا الضفة الغربية بل الولايات المتحدة»!

وظلت المرأة التي تقطنني تناكدني ولا تنام حتى أقسمت لها صادقة أنني ذاهبة في إجازة بدعوة من شقيقي المقيم هناك بعيداً عن السياسة، وأنني أريد أن أتعارف في زيارتي الأولى هذه مع الشعب الأميركي، بعيداً عن الفضائل والمساوىء في العلاقات السياسية العربية الأميركية، راحلة بعين جديدة حرة ومحايدة كعادتي في كل سفر وإلا فلمَ

الرحيل؟ وقبل أن تنام مشاكستي، تذكّرني ضاحكة بتعليق زميلي الأستاذ داڤيد بيشاي الذي فوجيء بأنها رحلتي الأولى إلى U.S.A وقال بلهجته المصرية المحببة مداعباً تعلقي بكل ما هو عربي: تراك لم تزوري الولايات المتحدة من قبل لأن العرب لم يفتحوها لك كالأندلس؟!...

★ ★ ★

هاجس الرغبة في إلقاء نظرة عادلة محايدة على U.S.A يساور كل عربي مسافر إلى هناك أوجعه مراراً الموقف هناك من القضية الفلسطينية كقول الأستاذ مصطفى الحسيني قبل ستة أعوام: «سؤال يتوجه مباشرة إلى ضميري على المستويين الشخصي والمهني: هل أنا ألتزم الأمانة فيما أقدمه للقراء؟ أليس في هذا البلد شيء ايجابي؟ وجه مشرق؟» خوفاً من أن يدفعه ذلك الوجع كالكثيرين للتحيّز ضد كل ما يراه في «أرض الوفرة والحرية» كما تقدم U.S.A نفسها وكما تبدو للملايين في كوكبنا حلماً من أبهى أحلام المحرومين للحرية والرغيف: الحلم الأميركي الكبير، حتى أن المهاجرين السياسيين من رومانيا إلى فرنسا، ظلوا رغم احتضان فرنسا لهم لا يحلمون بغير الهجرة إلى الحلم الأميركي ويتسولون «فيزا» تأشيرة إليها.

تهبط بي الطائرة في مطار واشنطن. أهرول نحو صالة الترانزيت أجلس بانتظار اقلاع طائرتي إلى اورلاندو وأتأمل الناس حولي في جلستي الأولى على أرض أميركية. أراهم في غاية البساطة ملبساً وسلوكاً يرتدون أشياء مريحة بعيدة عن الادعاء والحذلقة، وهم بذلك يشبهون العرب كثيراً، ويتحدثون بصوت مرتفع وهم يشيرون بأيديهم بعفوية ويضحكون بانفتاح. وها هي جارة المقعد تبادرني بالحوار كما في بلادنا العربية، وتطلب مني أن أناديها باسمها الأول ـ وهما أمران لا يحدثان لي كثيراً في أوروبا ذات الإيقاع النفسي المختلف ـ وها أنا جزء من الحوار، ولا أشعر هنا أني غريبة (كما ظللت أحس بذلك حتى بعد إقامتي في جنيف ولندن وباريس لعشرة أعوام حيث أكبح جماح عفويتي باستمرار) ربما لأنني في U.S.A في بلاد المهاجرين غير المرفوضين والغرباء المُرحَّب بهم. وتذكرت بإلحاح ما سبق وقرأته عن انفتاح الشعب الأميركي ولطفه وبساطته، وحبه لمخاطبتك باسمك الأول كتأكيد على قيم المساواة، وكما كان العرب يتخاطبون في الصحراء غنيهم وفقيرهم وحتى حاكمهم.

ولأنني أؤمن بالانطباع الأول العفوي، وجدتني بعد ساعتي الأولى من الاحتكاك بالأميركيين موقنة بوجود نقاط تشابه نفسية كثيرة بيننا. إن إيقاعنا النفسي العربي أقرب إلى الايقاع الأميركي العفوي الحار منه إلى الايقاع الأوروبي البارد نسبياً المتحفظ

والمدروس. . . فلماذا هذه الغربة بيننا وبينهم؟ وكيف نردم سوء التفاهم؟ وكيف نعمِّر جسر الحوار بيننا والشعب الأميركي القادر على ممارسة ضغط على سياسييه وإدارته؟ هذا وحده يكفي موضوعاً لندوة لن أشارك فيها الآن لأنني سأتابع رحلتي! . . .

★ ★ ★

يا له من يوم، تناولت فيه طعام الفطور في باريس والغداء في واشنطن، والعشاء في اورلاندو. . يا له من يوم طويل طويل بالمعنى الحرفي للكلمة، بمعنى شروق الشمس وغروبها لا بمعنى التورية. . . ففارق التوقيت بين قارة أوروبا والشاطىء الشرقي لقارة أميركا ـ حوالى ٦ ساعات ـ يجثم على قلب المسافر شعوراً بالحيرة والخوف في آن، وهو يحدق من نافذة الطائرة بعد حوالى ١٢ ساعة من الطيران، ويرى أن الشمس ما زالت مشرقة تشع، وإيقاعه البيولوجي يقول له إن الوقت ليل وعليه أن ينام. . . وكيف ينام من تحدق فيه الشمس بعين واحدة متحدية وهي جالسة على جناح الطائرة، بينما تشير ساعته إلى منتصف الليل! . . (بتوقيت باريس الذي استيقظت عليه). . .

تركض مرئيات يومي الطويل داخل رأسي. . كيف استعرضت في طائرتي الأولى بعض الآراء العربية المعتدلة في السياسة الأميركية، وكيف وقعت في حب الناس الأميركيين البسطاء من النظرة الأولى ولم أشعر بالغربة في وطن الغرباء. بعد إقامة طويلة في أوروبا، في لندن فجنيف فباريس، كدت أنسى كيف يتدفق الناس نحو بعضهم بعضاً دونما تكلف أو قفازات، وارتحت كعربية إلى هذه العفوية العاطفية. . وروح النكتة التي تسود الصلات. . . وحتى موظف الجمارك في مطار واشنطن داعبني. وحين اتجهت إليه لأقر بوجود بعض البسكويت الفرنسي في حقائبي أي «الكراكرز»، لعب على كلمة «كراكرز» وحوَّلها إلى «كراك» ـ المخدر الشهير ـ وسألني وهو يقلب جواز سفري اللبناني: إذاً تحملين معك علبة كاملة من الكراك؟

ولم أنتبه إلى التحوير في الكلمة، وقلت له: نعم: هل تريد تذوقها. . . وضج المسافرون وبقية الموظفين بالضحك! . .

★ ★ ★

في الطائرة من واشنطن إلى اورلاندو، ركضت داخل رأسي بعض الآراء الأوروبية في القارة الجديدة. . . تذكرت مقالاً عن الحضارة الأميركية في مجلة **التايم** لدومينيك موازي (عدد ٢٩/١٠/١٩٩٠)، ويلخّص المقال بعين المحب مآخذ العالم على الحضارة الأميركية، قائلاً «الدولة التي تريد أن تقود العالم لا يجوز أن تكون في مدنها «غيتو» وأحياء بائسة كتلك التي نجدها في مدن العالم الثالث أو مدينة بيروت» وأوجع هذا القول

اللبنانيين قبل الأميركيين مع أنه قول محق فيما يخص بيروت! (كم يؤلمك كلبناني تشبيه كل بلد ينهار أو تشب فيه حرب بشعة بلبنان، ولكن تلك قضية أخرى). ويتابع المقال: «ولن يكون بوسع الأميركيين إبقاء سيطرتهم على العالم ما لم يبدلوا أسلوب حياتهم وانحيازهم العنصري ضد السود وتهميشهم لهم سياسياً، هذا إلى جانب انحدارهم الاقتصادي وهزيمتهم أمام اليابان وربما أمام أوروبا الموحدة أيضاً. . ومن الضروري أن ينمّوا حسّهم بالعدالة الاجتماعية لأن سقوط الشيوعية والاشتراكية لا يعني سقوط حق الناس جميعاً في العيش بكرامة بعيداً عن الفردية المفرطة التي تطبع المجتمع الاستهلاكي الأميركي».

ولا صلة لهذه المقالة بالطبع بروح الردح الفكاهي المتبادل بين الأميركيين والفرنسيين حيث يتم أحياناً تبادل التهم الظريفة كقول الكاتبة اليكس دي سانت أنوريه في إحدى المجلات الفرنسية: «عاد إلينا كريستوف كولومبوس من العالم الجديد بالتبغ والسيفليس (الزهري) بعدما كان قد حمل إلى أميركا العبودية. هذا ما يدعونه بالتبادل الثقافي»!

★ ★ ★

والطائرة تستعد للهبوط في اورلاندو، تذكرت أنني في إجازة! قال لي أخي سلمان حين دعاني إلى هذا المكان: في اورلاندو ستنسين كل شيء عن همومك وستخرجين من زمن الحزن إلى زمن الطفولة. . .

واتخذت قراراً فورياً بنفي ذاكرتي مؤقتاً خلال فترة إجازتي لأن من لا يتعلم الراحة لا يتقن العمل. ولكن هل بوسع المرء حقاً تعطيل ذاكرته بمرسوم؟ ربما لا، وتظل عين الحياد والايجابية وحدها القادرة على أن تؤمن له صفاء الرؤية لتكوين قناعاته، في مناخ ودي إنساني متبادل.

ها هي الشمس تغرب بعد يوم طويل من الطيران لا بين القارات فحسب، بل بين العصور والأفكار في منتصف ليل تشع شمسه النهارية. وها أنا أصل أخيراً إلى المطار، وساعتي تشير إلى الثالثة فجراً، وساعة المطار لا تشير إلى غير التاسعة مساء. . . وأتطلع إلى «القوى السحرية» في اورلاندو التي تهب النسيان «للمعذبين في التاريخ» على حد تعبير أخي سلمان المقيم في الولايات المتحدة منذ ألف عام. . .

١٩٩١/١٠/١

إبكوت سنتر: الأمم المتحدة للمباهج!

ها أنا في «إبكوت سنتر» فلوريدا. لم تسمع بهذا الاسم من قبل؟ تخيل، ما الذي يحدث حين تطلق الخيال العلمي حتى أقصى مداه مستوحياً جول ڤيرن ورؤياه المستقبلية، وتزوجه مع التقدم التكنولوجي في محراب الفن والطرافة، وتنفق على «العرس» ملايين الدولارات فوق رقعة شاسعة من الأرض تطرزها البحيرات والنخيل؟ يحدث أن تجد نفسك في مكان يدعى «إبكوت سنتر» الذي يعتبر نقطة الجذب الأولى (للكبار بصورة خاصة) في مدينة ديزني لاند الخرافية بولاية فلوريدا (أورلاندو). . ثلاثون مليون زائر يحضرون كل عام إلى هذا المكان محولين أورلاندو إلى المكان السياحي الأول في العالم من حيث عدد زواره، مما حدا بجريدة **أورلاندو سنتينل** إلى القول: «لا نريد إغضاب باريس، ولكن أورلاندو أضحت مدينة النور لا باريس!». . . وإذا كانت باريس ترمز إلى نفسها ببرجها الشهير «برج إيڤل» الذي يؤمه حوالى سبعة ملايين سائح سنوياً، فإن «الإبكوت سنتر» تعرف بكرتها المستقبلية هائلة الضخامة التي تضم في داخلها قطاراً يركض بالزوار في رحلة فضائية خارقة بين الماضي والمستقبل، رحلة تقدم للمتفرج إطلالة على القرن الحادي والعشرين ينسى خلالها أنه يركب قطاراً ويجد نفسه داخل آلة الزمن. فيرى ماضي الإنسانية في عرض تحالفت فيه المؤثرات البصرية والصوتية مع أبهى ما وصل إليه العلم في مجال التزاوج مع فن الإدهاش السينمائي. وبعد الرحلة إلى الماضي نجد أنفسنا في صاروخ فضائي راكض بنا صوب سماء الله المزروعة بآلاف النجوم ونطل تلك الإطلالة اللامنسية على كوكب الأرض فنراه تماماً كما شاهده رواد الفضاء من جيران الإبكوت سنتر في «كاب كينيدي» بفلوريدا الأميركية.

هذه الكرة الملقبة بأمنا الأرض تحاول سرقة السواح من البرج. . . والحرب بين الكرة والبرج لم تحسم في أي يوم لأن لكل منهما سحره. . وسطوة العلم تسمرّ زوار الإبكوت سنتر الشاسع بأجنحته المكرّسة لتمجيد الإنجازات الإنسانية في الحقول العلمية العبقرية المتطورة، وفيه نجد عرضاً لمختلف الآفاق المستقبلية توقظ الخيال الطفل وتضعه داخل إطار عصره كوريث لهذه المنجزات المدهشة وكمسؤول عن متابعة رحلة العقل مع التطور. . . وبهذا يبدو المكان بأكمله مختبراً تجريبياً مستقبلياً لأزمنة آتية ونبعاً للوحي

والأمل وبهجة المعرفة. شعاره: أحلام اليوم حقائق الغد. وينقسم إبكوت سنتر إلى قسمين: عالم المستقبل ومعرض العالم (واجهة عرض/ فيترينة العالم).

★ ★ ★

عالم المستقبل مجموعة من الأجنحة التي تزنّر شاطىء بحيرة، تقدم لنا مثلاً عالم الطاقة من «شركة أكسون»، ويستمد الجناح طاقته من ٨٠ ألف خلية شمسية في السقف! وعالم الحركة (تقدمة جنرال موتورز) وعالم البحار الحية، وعالم الخيال أو الأوهام الحقيقية (تقدمة كوداك) وسواها من أجنحة تقدم عالم القرن الحادي والعشرين وما بعده. وإذا كنا في الكرة العملاقة (المقدمة من شركة AT & T) احتفاء بوسائل الاتصال كمفتاح للتطور البشري ورحلة في آلة الزمن، فإن جناح آفاق (هدية جنرال إلكتريك) هو رحلة إلى مستقبل الإنسانية حيث يرى الراكب في قطار الآتي بيوت المستقبل في الفضاء وتحت البحر ويتلصص على رجال الفضاء وهم يعمِّرون منشآت ومحطات تبدو اليوم لعيوننا خرافية كما بدت نبوءات جول ڤيرن وخيالاته لعيون معاصريه. . .

وثمة مشاهد لا يستطيع الزائر نسيانها، كمشهد تلك النباتات في رحلة «انصت إلى الأرض» التي تعيش بلا تراب في أسطوانات مستقبلية خاصة بالزراعة على الكواكب الأخرى. . وأسرار مخلوقات الله المائية في جناح عالم البحار الحية المبني بشكل موجة كتحفة معمارية. . . وتلك المسيرة على الأرض المكهربة بالموسيقى لوقع خطواتك وبالألوان، ونفق قوس القزح في جناح «الخيال». وأطرف ما في رحلة الأوهام الحقيقية هذه أن «فلاشاً» عملاقاً يلتمع أمام عينيك وأنت في المركبة، وتفاجأ بصورتك على شاشة سينمائية عملاقة بعد لحظات من التقاطها. . وفي جناح وسائل الاتصال يأتي «الروبوت» اللطيف ليرد على الأسئلة كلها. . . وما تكاد تغادر حتى ترى شلالاً يسقط إلى الأعلى (في جناح الطاقة) وضفادع من الماء تقفز بفعل الطاقة فوق الرؤوس بطرافة لامتناهية في لحظات عذبة من الزواج بين العلم والفكاهة. . وقناديل مائية تطير فوق سطح البحيرة لتؤكد الصلة الوثيقة بين العلم والشعر. ولوحات للحياة في القرن الحادي والعشرين كلها شاعرية وطرافة.

★ ★ ★

الجزء الثاني من إبكوت سنتر «معرض العالم» يكاد يكون المعرض الوحيد الدائم للعديد من أقطار العالم كالمكسيك وكندا وفرنسا وبريطانيا وايطاليا وألمانيا والمغرب وسواها، وقد أغرت الدول العارضة كثرة الزوار فصارت مبانيها تزنّر النصف الثاني من شاطىء البحيرة. في هذه «الأمم المتحدة للمباهج» بنت كل دولة جناحها على صورة

عراقتها وإبداعها الفني ووهجها الإنساني. . . فجاء جناح ألمانيا مثلاً قرية بافارية، وجناح ايطاليا صورة عن قصر في مدينة البندقية، وفرنسا قدمت نسخة عن برج ايفل، والمكسيك نقلت معبداً بأكمله إلى جناحها، أما المغرب فقد شيدت مدينة إسلامية عريقة على صورة فاس بجزءيها العتيق والحديث، ودهاليزها وحاراتها وقصورها وروائع نحتها ونقوشها الأندلسية ومنمنماتها، وجاء جناحها آية في الجمال وصورة عن الفن العربي العريق وتذكيراً بروائعه في دمشق والقاهرة وبغداد والأندلس وسواها. وقد عوَّض المغرب بجناحه هذا عن الغياب العربي، وكان حضوره مشعاً في أصقاع نائية قلما سمع معظم زوارها بحضارتنا العربية خارج «حضارة الإرهاب» وسواها من التهم التي نجحنا في إلصاقها بأنفسنا بمساعدة وسائل الإعلام المعادية التي تتقن استغلالها ضدنا. . والمغرب بهذا الجناح يقدم لمحة عن الفن العربي والإبداع الذي تحدّر إلينا من الأجداد بأبهى صوره.

١٩٩١/١٠/٦

جمهورية الطفولة والخيال: فرح لاند

يحتفل الرئيس ميكي في جمهورية الأطفال والحلم والدهشة الملقبة بديزني لانـد بمرور عشرين عاماً على تأسيس «دولته» في فلوريدا الأميركية. وقد استقبل بهذه المناسبة رئيس جمهورية أميركا للاحتفال معه، كما سبق وزاره الرؤساء نيكسون وفورد وكارتر وريغان هذا إلى جانب حشد من الإعلاميين والأطفال الصغار والكبار.

«مملكة الخيال السحرية» هذه كانت قد شيدت من أجل الأطفال، ثم تبين أن الطفولة لا تفارق أحداً حقاً. . . ولعل أكثر رواد هذه المملكة هم من المتقاعدين الذين اشتاقوا إلى قطارات الفرح ودنيا النسيان والحرية ولا تبخل عليهم «فرح لاند» بتلك المباهج البريئة، وباللقاء مع أبطال الحكايات الذين تعرّفوا عليهم صغاراً في قصص الأطفال. وها هم يستقلون قطارات «تومورو لاند» (أي أرض الغد) التي تركض بهم صوب كواكب خرافية التضاريس والإضاءات مروراً ببيوت المستقبل على سطح القمر ويتجولون في «فانتازيا لاند» ويزورون قصر سندريللا، فقصر الأشباح المجاور حيث يعزف شبح على الأرغن بينما تتسكع الأرواح في الردهات وتنشد الجماجم المعلقة بحيل سينمائية تكنولوجية مذهلة الطرافة والدقة في آن. . . ويتحـول الزوار إلى أقـزام مثل غاليفر في بلاد العجائب، والعمالقة حين يقبلون الدعـوة إلى «حفلة الشاي المجنـونة» ويجلسون داخل فناجين شاي عملاقة تدور بهم في الحفل الطريف. . . ويهبطون عشرين ألف فـرسخ تحت البحـر داخل غـواصة الكـابتن نيمو بـطل جول ڤـيرن، ويلتقـون بالأخطبوط الشرير المرعب وينجون من هجومه. . . ويتأملون تلك السفينة المعلقة على صخرة عالية مرعبـة حيث قذفتهـا أمواج «التـايفون لاغـون» (أي بحيرة الإعصـار) ويعاقرون جنون الشلالات الاصطناعية التي تكاد تغـرقهم لولا إطـارات النجاة التي يزودون بها، وقد يسبحون تحت الماء ويتأملون كنوز السفن القديمة الغارقة والقارات. . أو يركبون «قطار الجبل الروسي» الذي يركض بهم إلى الهاوية الممتعة. . . أو يستقلون المراكب في زيارة إلى «قراصنة البحر الكاريبي» حيث يتفرجون على مشهد بيع الجواري الجميلات، والفيل الطريف الذي يستحم تحت الشـلال، وأفراس النهـر وهي تغني للنخيل، والأسود وهي تلاطف أشبالها في نزهة «الأغنية المدارية». . أو يكتفـون بنزهـة

هادئة بين ساحة الحرية ومحطة قطار المملكة المسحورة وشارع أميركا الرئيسي الذي تحتشد على جانبيه حوانيت تعود بديكورها وأزياء باعتها إلى القرن التاسع عشر وتخترقه عربات تجرها الأحصنة. ومن بعيد يبدو قصر سندريللا كما شيدناه أطفالاً داخل رؤوسنا. . . جميلاً وسحرياً. في هذه المدينة التي لا صحف فيها ولا تلفزيون ولا أخبار الحزن، في هذه المملكة غير الحقيقية تبدو الهموم السياسية هزلية والعالم كله قرية ديزني لاند واحدة كبيرة، والحروب ألاعيب بشرية بشعة. . . ولكن الزائر العربي لا يملك إلا الغصة لحرمان الأطفال العرب من مباهج كهذه، ويتذكر «حزن لاند» التي ينمون فيها بهموم مبكرة تثقل كاهلهم كما أثقلت كاهله يوم كان طفلاً. . . هموم تتزايد يوماً بعد آخر. فمتى نزور «فرح لاند» العربية، بالمعنى الشاسع للكلمة؟ عند الباب تودعك سندريللا التي أضاعت فردة حذائها فتتذكر آلاف الأطفال العرب الحفاة! . . .

١٩٩١/٩/٧

أورلاندو: حلم أميركي هوليوودي آخر

حين تزور استديوهات مترو غولدوين ماير ـ ديزني في أورلاندو بفلوريدا، تأخذ زيارتك على محمل الدعابة والاستجمام ريثما تعرف أن هذه الاستديوهات بدأت تستقطب صناعة السينما، وارتفعت ميزانية الأفلام المصورة فيها من مليوني دولار ونصف مليون إلى حوالى مليار دولار خلال خمسة أعوام فقط (من ١٩٨٦ حتى ١٩٩١). . وهو رقم يعادل ربع ميزانية ستديوهات هوليوود ولوس انجليس العريقة. . . وبعد قراءة هذه الملاحظة «المالية»، تتأمل المكان بعين جديدة بصفته مرشحاً لانتزاع الموقع الأول لصناعة السينما في الولايات المتحدة أو لمقاسمة هوليوود مغانمها، متسلحاً بطقس فلوريدا المشمس البديع «اللبناني»، وحيث لا زلازل طبيعية كما في لوس انجليس ولا مناخات بشرية معقدة. ومن الأفلام الكثيرة التي صورت في المكان مؤخراً فيلم «سايكو ٤» تمثيل انتوني بيركنز الذي اختاره هتشكوك منذ ربع قرن حين أطلق فيلمه الشهير «سايكو». . ويتهامس زوار الاستديوهات في مطعم كريستينيز الذي يؤمه النجوم وهم يشيرون إلى الطاولات المجاورة: هذا ستيفن سبيلبرغ. . وهذا بيركنز. . . وهذه المرأة الخارقة جيمي لي كيرتيس. . وهذا ترافولتا ترافقه عروسه (مقيم في دايتونا بيتش بالقرب من الاستديوهات) وهذا كينغ كونغ يضمك إليه بأنفاس تفوح منها رائحة الموز! . . في هذا العالم الوهمي تتوهم أشياء كثيرة عن النجوم. . .

فهم يزورون هذه الاستديوهات بكثرة، للعمل أو الاستجمام. . والمشرفون عليها يعرفون حب السواح للالتقاء بنجومهم المفضلين، فيأتون بأشخاص يشبهونهم، يرتدون ثياباً مماثلة، ويزرعونهم في الشوارع والمقاهي والمطاعم، ويبدو من الطبيعي أن تلتقي بمادونا و «بيلي ذي كيد» وإنديانا جونز وهم يتنزهون مثلك في شارع هوليوود الممتد من مدخل الاستديوهات ومبنى السينما ذي الطراز الصيني (نسخة عن أول دار كبيرة للعرض) حيث يقدمون لك نزهة بين حقول التصوير تهدم الجدار بين المتفرج والممثل. . . فتركب قطاراً يرحل بك إلى «مغامرة السينما الكبيرة»، وتخترق الشاشة لتصير في داخلها، وترى مشاهد لا تُنسى من تاريخ السينما بمختلف أنواعها من غنائية وتاريخية وفكاهية. . . وما يكاد دخان حرائق «ذهب مع الريح» يغادر أنفك وصوت «سيدتي

الجميلة» يضيع حتى تجد نفسك داخل فيلم «وسترن»، وها هو سارق البنـك يصوب بندقيته على المتفرجين فيرفعون أيديهم استسلاماً! وتمر بكنز فرعوني، ولكن سقوط جدار الوهم بين الممثل والمتفرج والديكور والحقيقـة لا يعني أن بوسعـك سرقة الكنـز. . . وها هم حراسه من المومياءات يسلطون على الزوار لعنة الفراعنة إذا طمعوا بذهبهم. . . وحين تغادر هذه المغامرة الممتعة تجد حذاء «ساحرة اوز» الأرجواني داخل متحف السينما وهو يدور على قاعدته المسورة بالزجاج العازل كأنه تمثال «دافيـد» لمايكـل أنجلو! . . (ولعله كذلك بنظر عشاق السينما). . .

★ ★ ★

بوسع زوار المكان الدخول إلى مشاهد تصوير الأفلام حيث يمشون داخل دهليز زجاجي شفاف عازل للأصوات ويتأملون مواقع التصوير كما لو كـانوا جـزءاً منها. . وبوسعهم أن يصيروا إذا شاؤوا ممثلين، وعاشق التمثيل يستطيع إبداء رغبته هذه فتجرى له تجربة سينمائية فورية. وإذا كان محظوظاً وجديراً بالنجاح، سيمسك بأول الخيط ويتم ضمه فوراً إلى كومبارس أسرة الفيلم أو «البديل المغامر». أما الذين يريدون أن يجربوا مرة متعة المغامرة فبوسعهم مثلاً أن يركبوا جناح البعوضة في فيلم «لقد صغّرت الأطفال» ليتحولوا إلى «غاليفر» في بلاد العمالقة، أو يدخلوا الاستـديوهـات من باب «البـديل المغامر» الذي يقفز من السيارة المسرعة إلى أخرى ولكن على مسؤوليته الشخصية! . .

★ ★ ★

عشاق الشهرة يجدون ضالتهم في مدينة الوهم الحقيقية هذه. يطبعون بصمات أيديهم على الإسمنت في «شارع الشهرة» كالنجوم. تظهر صورتهم على الصفحة الأولى من مجلة تطبع نسخة واحدة لهم! يسجلون أسطوانة غنائية، ويـظهرون عـلى شاشـة التلفزيون في موقع تجريبي خاص بالمواهب الجديدة. يطاردهم المعجبون طالبين منهم التوقيع على «الأوتوغراف». وكلها أمور تُمتع مجانين العظمة. . أما مجانين المغامرة فلهم مواقع تصوير حرب النجوم وإنديانا جونز والزلازل والبراكين والـطوفان وبقيـة الحيل السينمائية التي بوسعهم أن يمرّوا بمخاطرها آمنين، كما يحدث غالباً حين يمشي المتفرج داخل السينما سعيداً بتمزيق الشـاشة، متـابعاً رحلة «دائـرة شاطىء البحـيرة وملحق الفناء الخلفي» على قدميه أو في القطار الخاص بالزوار الكسالى. . . ويبلغ من اتساع هذه المدينة الوهمية الحقيقية أن موقف السيارات فيها له قطار خاص يعود بالسواح إلى عدة مواقف في الموقف! وإذا وجـدت نفسك في الشـارع الخلفي حيث تقتتل العصـابات ستتساءل: أهذا ديكور وهمي أم حقيقة العالم؟ وإذا تسكعت طويلاً ووجدت نفسك في

شارع نيويوركي خطر لا تخف، فلعلك اخترقت حائط الوهم بين الحقيقة والسينما... وهو اختراق يتمنى المرء لو يحدث له في الاستديوهات السينمائية العربية... فهل تبدأ مصر، «أم الدنيا»، والسينما العربية هذا التقليد الجميل الذي سيتحمس له السائح العربي قبل الغربي؟ أم أن هموماً أخرى عربية كثيرة تشغل بالنا، ولا مجال للأفراح الكمالية في عالمنا العربي المنهك اللاهث، وعلينا الاكتفاء بزيارة على الورق لفلوريدا منافسة هوليوود؟

١٩٩١/١٠/٨

نعم لتقليد الغرب!

كنت أبحث عن دكان أشتري منه شطيرة بعد طول تسكع في «مدينة العلم» بمقاطعة فلوريدا أو الإبكوت سنتر. وجدت باباً كبيراً مفتوحاً. مددت رأسي أستطلع. لم أجد من يبيع المرطبات والشطائر وفوجئت بصبية جميلة جالسة خلف منصة عالية تصرخ بي: هيا. أسرعي. بعد دقيقتين يبدأ العرض. اركضي. وأشارت بإصبعها إلى باب حديدي مغلق في آخر الدهليز. وركضت دونما تردد. من يستطيع أن يرفض دعوة إلى المجهول؟ وما كدت أقف أمام الباب الحديدي حتى انفتح تلقائياً على مصعد. دخلت دونما تردد وسقط الباب خلفي كما في أفلام جيمس بوند وتحركت بي العلبة محكمة الإغلاق. إلى أين أنا ذاهبة؟ تحدثت الفتاة عن «العرض». عرض ماذا؟ أزياء؟ متفجرات؟ سجون؟ فقمة وأسماك قرش؟ انفتح الطرف الآخر للمصعد. لحقت بسهم مضيء في دهليز معتم. ركض بي السلم المتحرك. وجدت نفسي داخل مسرح دائري بصورة مدرج. وبدلاً من الخشبة التي تتوسط هذا النوع من المسارح الدائرية، شاهدت شاشة تلفزيونية أرضية شاسعة. تقدم مني شاب في ملابس فضائية وأشار إلى مقعد فجلست، وكان المكان يغص بالناس. وقبل أن أتأمل ما حولي تلاشت الأنوار تدريجياً وغرقت في الظلام. وجاء صوت يقول: أنا الكابتن قائد الرحلة. أهلاً بكم على متن الصاروخ. الإقلاع بعد لحظات إلى القمر!.. وظننتني أخطأت الطريق إلى صاروخ فضائي أو إلى مسرح للأطفال، ولعل الصبية على الباب توهمتني أماً تلحق بأولادها. ما كاد العرض يبدأ حتى أدركت أنني أمام عرض علمي سينمائي من نوع متطور لم يسبق لي أن عشته.

انفتح السقف على شاشة تلفزيونية أخرى تغطي مساحته تماماً، كما الشاشة المقابلة على الأرض تملأ مكان المسرح وتمتد تحت أقدام الجالسين في الصف الأول. وانفتحت الجدران الدائرية على شاشات تغطيها كنوافذ شاسعة للصاروخ وبدأت الرحلة الفضائية، وكانت قدرة العلم على صناعة الوهم مدهشة.

★ ★ ★

حين أقلع الصاروخ الشفاف بنا إلى الفضاء ارتجت الصالة بأكملها بمقدار ما

يحدث للصاروخ لحظة الانطلاق، وغاص المقعد تحتي بحيلة علمية مدروسة. وصارت الشاشة الأرضية تبث صورة الأرض كما تبدو لرواد الفضاء لحظة اقلاع الصاروخ وابتعاده شيئاً فشيئاً. أما الشاشة السماوية (في السقف) فتعرض شريطاً لما يراه رواد الفضاء وهم يبحرون صوب القمر. والجدران التي تحولت إلى نوافذ على الكون تعرض شاشاتها كيف تبدو الدرب الفضائية خلال الرحلة.. وبعد لحظات، ينسى المتفرج تماماً أنه في قاعة عرض متطورة للسينما، ويتوهم أنه جزء من رحلة فضائية كواحد من رواد القمر.. فالعرض المتلفز حولنا يقدم أفلاماً حقيقية التقطتها المركبات الفضائية لرحلة حدثت... وها نحن نرى عبر النافذة الخلفية (أي شاشة التلفزيون الأرضية) كوكبنا الأم من بعيد. نرى القارات والبحار وهي تصغر وتصغر، وعبر النوافذ تركض مجرات الله الشاسعة، فيما نحن نمضي صوب القمر. يطلب منا قائد الرحلة أن نتمسك جيداً بمقاعدنا لحظة الانعتاق من الجاذبية، ونكاد نلتصق بها وهي تهوي تحتنا ثم يتوقف ارتجاف الصاروخ (أعني القاعة) ونتابع الرحلة حتى الهبوط فوق سطح القمر. ومن بعيد (أي على الشاشة الأرضية) نرى كوكبنا الجميل يسبح بسلام في الأفلاك كأن الحروب وبقية اختراعات البشر المقيتة لا تدور هناك.



وكأية امرأة آتية من العالم الثالث أذهلني هذا الإبداع العلمي واستمتعت برحلتي التي شاهدت فيها من شاعرية العلم ما لم أحلم به، والصور كلها واقعية التقطها رواد الفضاء.. تطلق الخيال وتذكر بقدرة الإنسان على العطاء السلمي والزواج بين العلم والشعر.

الاعجاب ذاته غمرني في رحلتي إلى «كاب كينيدي» حيث المركبات الفضائية التي جاست سموات الله الواسعة تقف شاهداً على التطور العلمي الأميركي المذهل ـ أعجبنا ذلك أم لا ـ وليس بينها مركبة عربية.

وها أنا الآن في واشنطن، واقفة في المتحف الوطني الجوي الفضائي أمام مركبة أبولو الفضائية، بعدما شاهدت طائرة الأميركي لندبرغ الذي قطع بطائرته المحيط الأطلسي بلا توقف للمرة الأولى في تاريخ البشرية (١٩٢٧). أردد بكثير من الغصة بيتاً شعرياً حفظته طفلة: ألسنا خير من ركب المطايا / وأندى العالمين بطون راح. نعم. بالتأكيد. ولكن ماذا عن مطايا القرن العشرين: المركبات الفضائية وسواها؟ أين نحن من التطور العلمي التكنولوجي المذهل على غير صعيد الذي لم نشارك في صنعه ونكتفي باستيراده؟ ما أراه اليوم ويذهلني هو جزء من الحياة اليومية لأطفال الغرب عامة

والولايات المتحدة خاصة. لقد سبقونا بأشواط طويلة منذ لندبرغ حتى أبولو، ونحن لا نـزال نراوح عنـد مرحلة عبـاس بن فرنـاس وهم يعرضـون في متاحفهم حجـارة القمر!.. يسألون الأدباء العرب: لماذا لا تكتبون قصصاً علمية خرافية؟ كأن الأشياء تأتي ببلاغ رقم ١ أدبي! على المرء أن ينبت في مناخ علمي، يرى الاختراعات طفلاً تنمو بين يدي بني قومه ويألفها كجزء من التراث العام الجماعي لوطنه.. لا كسائح موسر أتيحت له فرصة سياحة عابرة فتحت جرحاً فيه لا أكثر وعلمته كم يجهل، بينما أستاذ ابنه في المدرسة يحشوه بالمزيد من الشعـر: ألا لا يجهلن أحد علينـا / فنجهل فـوق جهل الجاهلينا!

★ ★ ★

جائزة نوبل لا يهمنا منها إلا الجانب الأدبي. المقالات المطولة تدبج عنهـا. أما جائزة نوبل للعلوم والاقتصاد وسواها، فلا نقرأ عندنا عن إنجازات عظمائها إلا في زاوية خجول. رجال العلم في بلادنا لا يُقدِّرون حق قدرهم في معظم الأحيان، فيهاجرون إلى الغرب، إلى عصرهم المتطور، أي أنهم لا يهاجرون حقاً إلى وطن آخر بل إلى زمن آخر... وتصدر جوائز نوبل العلمية للكيمياء والفيزياء والرياضيات وسواها، وكل ما نفهمه منها هو أن الفائز بها قد يكون من أصل عربي (أي عبقري خسرناه ورمينا به إلى الغربة واستطاع أن يقف على قدميه!). وغربتنا عن العلم والعصر لا توازيها إلا قدرتنا على هدر الطاقات في التفاصيل الصغيرة: فالغرب مجرم لأنهم في فرنسا مثلاً يرفضون تعدد الزوجات وتسجيل الزوجة الثانية والرابعة رسمياً (يا للهول!)، وعلينا أن نغضب غضبة مضرية في كهوفنا الحجرية، ناسين أننا نحن أيضاً نرفض السماح لهم عندنا بممارسة طقوسهم الاجتماعية الغريبة عنا، كأن يقيم رجل وحبيبته معاً بلا زواج، وهو أمر شائع في الغرب شيوع الزواج بأربع عندنا. تنادي بالديمقراطية فقط حين تناسب مصالحنا، ونرفض أن نفهم أن جوهرها احترام الآخر المختلف. وبمنطق غير علمي نريد أن يحترموا عاداتنا وأن نحتقر عاداتهم باسم الديمقراطية!! وبينما الدنيـا تركض في دروب العلم والفضاء يتابع «تلميذ» الشيخ محمد عبده طرح السؤال نفسه منذ نصف قرن أو ألف ليلة وليلة! إبريق المرحاض أيوضع إلى يمين المتوضىء أو إلى يساره؟ ويصرخ به الشيخ محمد عبده مكرراً: يا ابن (الـ....) بقولك طاروا... بقولك طاروا (مشيراً إلى الطيران الأول في الغرب الذي تصادف يوم طرح عليه تلميذه هذا السؤال!).

نعم يجب تقليد الغرب في رقيه التكنولوجي ومسيرته المظفرة في الحقل العلمي. وهو أمر ليس سهلاً بعدما تحولنا إلى مدمني تخلف ورضى عن الذات. كيف نعي أننا على

أبواب عالم جديد لا مكان فيه لمدخني «شيشة» التاريخ، الذين تخلوا عن دورهم كصنّاع حضارة إلى مجرد حالمين بالماضي، مستوردين للمستقبل! كلمات قاسية؟ نعم. يقولها بينه وبين نفسه كل عاشق لوطنه وعروبته مثلي، وكل معتد بميراثه الحضاري العظيم ومخزونه الرافض لمنطق اليأس، المصرّ على أن التفاؤل لا يُزرع إلا في تربة العمل ووعي الواقع المرّ.. وإذا كان لا بد من الكلام شعراً، أقولها بملء فمي: ما هكذا تورد الإبل، في عصرنا! وأقولها أيضاً بلغة النثر: نعم لتقليد الغرب في جدية التعاطي مع الرقي العلمي.

١٩٩١/١٠/٩

بطاقة سفر إلى بيروت

أميري الدمشقي سلمان كان في انتظاري ليلة وصولي إلى مطار أورلاندو (ولاية فلوريدا). طرت إليـه في رقصة الشـوق، وهبّت من شعره رائحـة بردى والياسمين وأصداء أغنياته لي حين كنا طفلين في دمشق ننام في غرفة واحدة ولا أغفو إلا على صوته الجميل.. هذا قدَري، أن ألتقي مع أخي في المطارات وصالات الترانزيت منذ ركب كل منا قطار غربته ومضى بعيداً ووحيداً...

في لقائنا الأخير قبل عام ـ في مطار زوريخ ـ قال لي أميري الدمشقي سلمان: في عينيك حزن نساء العالم الثالث خصوصاً حينما تضحكين. ألا تذهبين أبداً في إجازة للراحة؟ قلت له: الأدباء والصحافيون محكومون بالعمل المؤبد مع الأبجدية الشاقة. إنهم يعملون خلال إجازاتهم أكثر من أي وقت آخر، لأنهم في الإجازة يتفرغون للكتابة والتفكير. يذهب الناس إلى الإجازة لينسوا، أما الكاتب فليتذكر.

وعدَني: في العام المقبل سأذهب بك في إجازة إلى مكان ينسيك همومك والعالم الثالث معاً. فالإجازة إما أن تكون عملية غسيل دماغ من كل شيء أو لا تكون... وها أنا في أورلاندو. يستقبلني أميري الجميل وفي يده عصا الدهشة السحرية، في المطار الوحيد في العالم الذي لا يخلو من بركة تسبح فيها التماسيح... وبكيت فرحاً بلقائه بغير دموعها!...

أورلاندو ليلاً حكاية حب بين الصنوبر والنخيل والقمر والماء، أما في النهار فهي رحلة في قطارات الدهشة إلى أرض الخيال العلمي المستقبلي في «الإبكوت سنتر» وإلى «مملكة الخيال» حيث مدينة ديزني للأطفال بين سن التـاسعة، وسن التسعـين، وإلى «تايفون لاجون» بحيرة الإعصار حيث السباحة مغامرة مدروسـة مع العنـاصر، وإلى العشاء على موائد الأوهام الجميلة في قصور الخرافة... روى لي أمـيري سلمان هذه المباهج كلها التي تنتظرني وسواها، وطلب مني أن أحلم بها بانتظار الصباح، ولكن متى كانت الأحلام تأتي بفرمان؟ حلمت ببيروت الحـرائق، ولعل أشجـار النخيل هيَّجت شوقي إليها، أو أن منظر التماسيح ذكَّرني بتماسيحها، والدموع التي يذرفونها كلما التهموا المزيد من كرامات الناس وقوتهم... وقبل أن أنام، رفعت ستائر غرفة الفندق العصري

بحثاً عن نافذة أفتحها لأستنشق هواء الليل وأشم رائحة المدينة كأي شاعر بـودليري يغرف من متع الحواس حتى الثمالة وعلى رأسها الشم، قبل النظر. . لم أجد نافذة حقيقية يمكن فتحها، والنوافذ كلها في الغرفة وهمية مرسومة بالزجاج فوق الزجاج، وخلفهـا تسبح مباهج المدينة في بركة من الضوء والنيون والظلال كأنها مدينة من سراب.

★ ★ ★

تذكرت في أورلاندو قصيدة «آكلي اللوتس» للشاعر الرومانسي الذي رمز بها إلى النسيان، فضيف أورلاندو لن يملك إلا الغرق في بحيرات النسيان ولو للحظات معدودة مهما كان حجم همومه وهواجسه. . . في «مملكة الخيال» ينطلق عقال طفولته النائمة (أو التي تم تحنيطها امتثالاً للتعاليم). . والخيال لاند (من ديزني لاند) مدينة كاملة مشيّدة على حجم أحلام طفولتنا. ها نحن نركب قطار «مملكة السحر» وهذا هو اسم المحطة، في مدينة ما قبل السيارات ـ وكل ما فيها شيد انطلاقاً من هذا الاعتبار ـ حتى نصل إلى قصر سندريللا (وله أسماء أخرى في ذاكرة الشعوب المختلفة، فهو قصر بدر البدور عند العرب مثلاً، فالشعوب كلها متشابهة أكثر مما تتصور بدءاً بالطفولة وانتهاء بالموت مروراً بالحب والألم والخوف والكوابيس والأمل). . وغادرت قلعة سندريللا وركبت في غواصة الكابتن نيمو فهبطت بي إلى قاع بحار وهمية وهاجمتني وحوش خرافية من خيال جول ڤيرن. ولاحظت أن ٩٠٪ من ركاب الغواصة كانـوا من الأطفال الكبـار مثلي، أمـا الأطفال سناً ومـظهراً فنـدرة ربما اصـطحبهم بعض الأهل والجـيران لحفظ المظاهـر. وتخيلتهم في العام المقبل يؤجرون الأطفال على باب «مملكة الخيال» للذين يخجلون من إطلاق سراح طفولتهم ويحتـاجون إلى تفسـير اجتماعي لـركوبهم في أراجيـح المباهـج البريئة. . . وهكذا داعبت الأقزام السبعة وصورت سنـدريللا وتركت الميكي مـاوس يضمني إليه وشقيقي بينما سائح ياباني يصورنا. وتابعت جولتي مع أبطال أساطير الحكايا الأوروبية والأميركية وافتقدت الشاطر حسن والسندباد والغول وجني المصباح وغيرهم من رفاق طفولتي. . . وأنست إلى «توم سوير» و«هكلبيري فين» وبقية أبطال مارك تواين الذين التقيت بهم على مركب الأدميرال فولر الآتي من مياه الميسيسيبي، والذي انطلق بي من «ساحة الحرية»، ولاحظت أن اسم الحرية يتردد كثيراً في هذه المدينة الخاصة بأحلام الطفولة غير المتحققة. وختمت جولتي بركوب التلفريك الراكض فوق أرض الخيـال وحدّقت في دنيا المباهج في القاع وامتلأ قلبي بالحزن وأنا أتذكر أن الأطفال العـرب محرومون من مباهج كهذه، دون أن أنفي مسؤولياتنا نحن عن هذه الحقيقة. تذكرت مآسي بعض الأطفال العرب مع الفقر والجهل والركض بأقدام حافية والعمل منذ سن

العاشرة، وتذكرت أطفال لبنان من معاقين ومخطوفين ومعذبين ومرميين على أبواب المياتم ومباعين في سوق الأعضاء البشرية كقطع تبديل حية. . والتقط أميري الدمشقي الجميل موجة حزني، وحين بحت له بها كادت العدوى تصيبه. . قلت له: أنا كاتبة، مهمتي مقاتلة طواحين الهواء، فأين المفر؟

★ ★ ★

من ردهة الفندق العجيب ركبت القطار المستقبلي المعلق في الفضاء على سكة واحدة (المونوريل) ودخلت سفينة فضاء اسمها الأرض في «الإبكوت سنتر»، مدينة المستقبل، ثم جلست داخل آلة الزمن في كرة عملاقة ورحلت داخل ذلك المزيج المدهش من الفن والتكنولوجيا والخيال إلى المريخ. . وشعرت بالغصة لأن أول مركبة فضائية حطت على سطح القمر لم يكن فيها عربي أو حتى «برغي» عربي أو مسمار! . . . وأحلام عباس بن فرناس لم نستحقها كأحفاد لطموحه، وبقينا نراوح في مرحلته بأجنحتنا القشية ولا نحلّق. . . وامتلأ قلبي بحزن لم يخفّ على شقيقي الذي فعل كل ما بوسعه لتكون إجازتي إجازة حقاً! . . . اصطحبني إلى «أرض الدهشة» في استوديوهات م.ج.م. وديزني لاند حيث زرت كوكب «تاتوين» الموطن الأصلي للوك سكايووكر بطل أفلام حرب النجوم. . . ودخلت في عالم سكارليت أوهارا **ذهب مع الريح**. وقبل أن أتبختر في فستانها الحريري وأنا أتقمصها وأذهب للرقص عنها تذكرت كيف ذهب كل شيء مع الريح في بيروت الحرب الأهلية. . وغرقت في مستنقعات أحزاني. . . فاصطحبني أميري الدمشقي الجميل سلمان إلى «البحار الحية» حيث أطعمت للمرة الأولى سمكة قرش بيدي (بدلاً من أن أطعمها يدي!)، وغازلت الدلفين الرقيق، الذي رقص لي باليه «بحيرة البجع» على طرفه الدقيق. ومضى بي سلمان للعشاء بعدها في قلعة قديمة بالقرب من بحيرة الرمل، على مائدة الملك هنري الثامن، وجاء مهرج البلاط يُضحكني وساحر البلاط ينفث النار من فمه إلى جانبي، وأنا إلى يمين الملك ضيفة الشرف، وقطع الجلاد رأس إحدى زوجات هنري الثامن بالمقصلة فطار واستقر في صحني، وخرج مقاتلون في ثياب العصور الوسطى يتبارزون أمامنا بسيوفهم، فتذكرت المتقاتلين في شوارع بيروت على المغانم في أزياء عصرية «ثورية»، بينما العصور الوسطى معشعشة في أدمغتهم، وحزنت ولاحظ شقيقي حزني، فأهداني تمساحاً حياً لأجره ورائي في شوارع باريس بدل الكلب ولم أضحك، فأهداني بطاقة سفر تعيدني إلى بيروت قبل أن أصيبه بالعدوى! . . .

١٠/١٠/١٩٩١

تفّاحة السفر

ثمة أماكن تحرّض ذاكرة الحزن، ولكن مدينة ميامي (فلوريدا) بامتدادها البحري في ميامي بيتش ليست بالتأكيد منها... هنا يبدو كل شيء مشرقاً (للسائح، فللمدينة همومها بالتأكيد كالمدن كلها). فميامي بيتش تحرص كالجميلات كلهن على إخفاء أحزانها عن العيون، وتصافحك بأصابع الماء والنخيل والنيون والموسيقى... ولكن ماذا تفعل بنفسك إذا كنت تتذكر ولا تتخدر (تتذكر شواطىء بيروتية كانت تحمل أسماء مسابح شاسعة رائعة هنا، وتبدو نموذجاً للهدوء والجمال الطبيعي لكنها تحولت فيما بعد إلى مواقع حربية... وصار لكل زعيم عصابة أو زاروب شاطئه الخاص وحسانه المفروزات للترفيه عنه.. عصابات مزاجية وفسادية انتشرت على الشطآن اللبنانية الجميلة، أحرقت الصنوبر والنخيل وأكلت الأخضر والأحمر واليابس.. تتذكر رمالاً كانت مزروعة بضحكات الأطفال تحوّلت إلى منافي للفقراء والمهجرين... وتحوّل البحر في بيروت من إقطاعية للأثرياء، إلى إقطاعية للبؤس، وانضم إلى الفقراء فريق جديد كان يدعى الطبقة المتوسطة في لبنان... والتهبت الحرب ستة عشر عاماً من الجنون، ولعلها ما زالت تدور بأدوات باردة كمباضع مشرِّحي الجثث... حرب أشعلت حتى رمل الشواطىء). ولكن ذلك كله خارج الموضوع! نعود إلى رمل ميامي... الحرب هنا في ميامي بيتش تدور بين الفنادق والمطاعم والشواطىء البحرية لاستقطاب النزلاء. إنها حرب اللطف والرفاهية والفولكلور والطباخين الذين يدّعون وراثة باريس في معركة الأشهى. وهي حرب شبيهة بأخرى يعيشها السائح في «إبكوت سنتر» فيجدها «حرباً عالمية فولكلورية» تدور على مستوى الأمم في الأجنحة المخصصة للدول بجمعية «المباهج المتحدة». وقد ربح المغرب هذه الحرب دونما منازع بجناحه الرائع الذي يبيّض صفحة ماضينا الحضاري العربي.. ولكن ماذا عن حاضرنا ومستقبلنا؟

★ ★ ★

الفنادق الأميركية تخوض حرب اللطف بكثير من الطرافة... وها هو فندقك في ميامي يترك لك ليلاً على وسادتك قطعة من الشوكولاته وامتحاناً للتوتر النفسي يتضمن عدة أسئلة تجيب عليها بنعم أو لا، منها: هل تحتاج إلى يديك الاثنتين معاً لحمل حقيبة

يدك؟ هل تخاف من البقاء في غرفة لا هاتف فيها؟ هل تفكر بتركيب جهاز «فاكس» في سيارتك؟ هل تكره الناس الذين يأخذون إجازاتهم كاملة؟ هل تمارس أحلام اليقظة عن اتصالات هاتفية تعرض عليك عملاً أفضل وأجزى على صعيد المال؟ إذا أجبت بنعم على واحد من هذه الأسئلة فهذا معناه أنك بحاجة إلى إجازة عطلة نهاية الأسبوع باستمرار في هذا الفندق لتشفى من جنون العمل!

ولكن كيف يشفى المرء من جنون العمل في وطن زاخر بالحيوية، كل ما فيه يهرول صوب المستقبل القريب دون أن يلتفت إلى الماضي أو يلقي بالاً إلى المصير بالمعنى الروحي الكوني الشاسع للكلمة؟ وكيف يحاول الفندق أن يُشفي رجال الأعمال من هستيريا الهرولة، وكل من فيه يهرول على ايقاع مؤتمر كبير لرجال المال والأعمال يرتدون منذ الصباح ربطات عنق جنائزية ويحملون حقائب جلدية كبيرة محشوة بالأرقام وصرخات الاستغاثة وتلتقي بهم في المصعد وأنت بثياب الاستحمام فتتذكر عملك وترتبك؟

هذه واحدة من أحجيات أميركا التي لا تملك إلا أن تلحظ تناقضاتها بينما أنت تقع في حب شعبها، تناقضات تطالعك كل يوم. خذْ عناوين الصحف، إنها مشغولة بإصدار قانون دولي لحماية الخفافيش! وأياً كانت هموم المرء، تفلح ميامي بيتش بإلهائه عنها قليلاً حين تمددك على الرمل الناعم الشاسع وتخترقك بدفء شمسها بينما حسناوات العالم يتخطرن حولك في ثياب استحمام ابتكرتها جدتنا حواء ذات يوم.. وكأن المنتجعات الأميركية تدرك بذكاء أحزان العالم فتحاول خلق عالم وهمي تدخل إليه بمعونة المال والماء والنخيل والصنوبر والطفولة الداخلية السرية والقمر السائل في البرك. وهذا ما يحدث في منطقة بحيرة «بوينا فيستا» حيث تتحرك في مدينة غير حقيقية تبدو فيها الأحزان غير حقيقية، والمرء وعمره كذلك، والهموم السياسية هزلية، والعالم كله ديزني لاند شاسع المسارح، والانقلابات والحروب ألاعيب بشرية رديئة نائية، وكل شيء أكذوبة طريفة مضحكة مبكية بما فيها السائح نفسه الذي يكتشف ذات ليلة أن ما يصنع إنسانيته هو أحزانه وذاكرته! بل إن الإحساس بأن كل ما يدور وهمي يجعل المرء حين يسمع صوت الرعد يحار، هل ستمطر حقاً أم أن هذه الأصوات قادمة من استوديوهات «يونيفرسال» وسواها لخلق وهم الرعد؟ أهذه العاصفة الماطرة التي تنسكب فوق سطح السيارة حقيقية أم أنها جزء من الديكورات؟ هذا الرجل الذي يرتدي ثياب رعاة البقر، أهو حقاً كذلك أم أنه ممثل؟ هذا الشارع، هل هو مرسوم على لوح من الخشب أم أنه موجود هناك حقاً وخلف كل نافذة عيون تفيض بأحزانها وأسرارها؟ ولكثرة ما تتقن المنتجعات السياحية الأميركية صناعة الوهم لتنسيك همومك، يحصل لك الشيء

النقيض. . . فهذه الحيرة بين ما هو حقيقي وما هو وهمي ترمي بك على تخوم الأسئلة الإنسانية الكبيرة: ما الفرق بين الحقيقة والوهم؟ هل الحدود بينهما شعرة واهية، وتداخلهما أكبر من انفصامهما، ولا توجد حقاً دولة قائمة بذاتها ذات حدود واضحة اسمها عالم الحقيقة؟ هل الحلم جزء من الواقع؟ من يستطيع أن يثبت أن هذا العمر كله ليس إلا حُلماً، ونحن نتوهمه اليقظة؟. . . ولماذا تبدو المرئيات وهمية وحقيقية في آن حين نحدّق جيداً؟.

★ ★ ★

تدخل إلى تفاحة السفر وتغلق الباب خلفك وتتابع قضمها على مهل ومرئيات أيامك في أورلاندو تركض فوق عينيك كفيلم سينمائي بكل حقائقه الوهمية. وأنت جالس في مطعم متنكراً في بلاط أمير من العصور الوسطى أو في «قلعة الحرية» تراقب استعراض «وليمة الغرب المتوحش» ستقول لنفسك إن «بحيرة بوينا فيستا» مليئة بالجنان سطحية الملذات، حيث يتناول المرء عشاءه على موائد الأوهام. ربما. بالمقابل لا يؤذي المرء أن يتذكر أن هذه المنطقة التي تستقطب ٣٠ مليون سائح على الأقل سنوياً، كانت تدعى قبل عقدين من الزمن «موسكيتو لاند» أي أرض البعوض، فصارت اليوم «ديزني لاند» بمؤسساتها العلمية والطفولية والمستقبلية الخرافية. وخلف هذا التحول ثمة آلاف من ساعات العمل الشاق لمئات آلاف العمال والمهندسين والمؤسسات. . واستصلاح لمساحات هائلة من المستنقعات تحولت إلى بحيرات للضوء وفضة القمر تزنّرها المنتجعات. . وبعدما كان العمدة (الشريف) يدعو الناس للإقامة فيها ويرجوهم، أضحى المجيء إليها حلماً يراود أصحاب الملايين، وارتفعت أسعار الأراضي فيها بنسبة ٥٠٠ بالمئة! وبينما كانت بيروت تثابر على تدمير نفسها، وتهبط عملتها بمقدار ٥٠٠ ضعف، ثمة مدن كانت تخوض حرباً من أجل البناء والرخاء، وتبدو منطقة بحيرة «بوينا فيستا» الفلوريدية نموذجاً لها، حيث لم تكتف بتجارة النسيان والمباهج العابرة بل حرصت على تطعيم أوهام الفرح فيها بالإبداع الفني الخالد الباقي، فجاءت بأهم معماريي العالم لبناء منتجعاتها ومؤسساتها أمثال المهندسين الشهيرين جريفس وشتيرن وآرتا ايزو زاكي وسواهم. . . فهل تنجح بيروت في حربها لاستعادة الزمن الضائع، وكفاحها ضد الظلام بكافة أشكاله بما في ذلك حرب استعادة الوعي والذات. . . والكهرباء على الأقل؟!

تتابع قضم تفاحة السفر بهدوء لكن أفعى النسيان لا تلدغك للأسف. ثمة دائماً لقمة لها طعم الدمع المالح اسمها بيروت. تطفىء النور، وتتابع التهام تفاحتك في الظلام!

١٨/١٠/١٩٩١

متى نتعارف؟

إذا كنت طائراً ليلياً (ليس بالضرورة بومة مثلي) ومن عشاق السياحة المسائية، وقادتك قدماك في واشنطن إلى نصب لينكولن المشرف على منظر بديع للمسلة الأميركية (نصب واشنطن) فالكابيتول، حذار من إشعال سيجارة وأنت تتلذذ بتأمل المشهد في ضوء القمر بالقرب من تمثال لنكولن. ستقفز عليك عملاقة في ثياب رجل الشرطة وتأمرك بإطفاء لفافتك بلهجة حراس السجون. . . والسائح غير الأميركي أي الغريب عما يدور يتعرض مراراً للزجر على يد الشرطي الأميركي الأقل دماثة من «العسكري» الأوروبي بوجه عام. في الصباح مثلاً، أنزلنا الدليل السياحي أمام مدرج نصب أرلنغتون وقال إنه سيعود لالتقاطنا بعد نصف ساعة نتفرج خلالها على طقوس تبديل الحرس. وتوقعنا أن يبدو الأمر شبيهاً بما نراه في لندن. . موسيقى وصياح أطفال وشهقات إعجاب والتقاط صور تذكارية. لم نكن نعرف أننا أمام قبر الجندي المجهول. جاء جندي زنجي جميل وشاهق القامة، وبصوت جهوري أصدر للجمهور «السياحي» أوامره كما لو كنا من بعض جنوده. واقتصر الأمر على منعنا من التدخين والمطالبة بوقوفنا احتراماً ـ وكنا قد جلسنا على السلم نريح أقدامنا المتعَبة ـ ولكنه لم يطلب منا حشو المدفع أو تسلق الحبال وإن كانت نبرته الآمرة تشي بأنه قد يفعل ذلك. ووقف الذين يفهمون اللغة الانكليزية، وظل العديد من الفرنسيين واليابانيين وسواهم يتأملونه بذهول جلوساً ولا يفهمون أسباب الزجر. فتطوع بعضنا للعب دور المترجم ووقف الجميع، وكلهم يتوهم أنه سيرى مسرحية على الطريقة الانكليزية أمام القصر الملكي. وخابت الآمال، فقد ظهر جنديان فقط يشبهان الدمى الخشبية بطريقة استثنائية وصار «السيرجنت» يصدر لهما الأوامر، فقدما عرضاً متقشفاً لتقديم السلاح. سائح ياباني ركع على الأرض لالتقاط صورة فصرخ به الضابط يأمره بالوقوف، ولم يفهم المسكين وتابع التصوير، ثم بدا عليه الرعب حين شاهد عشرات السواح يشيرون إليه ويزجرونه بعدة لغات، وانطلق هارباً لا يلوي على شيء وسط الضحكات المكتومة للناس. . . ترى هل علينا أن نقول للضابط إننا مجرد سواح ولسنا جنود المارينز، أم علينا أن نطالب الباصات السياحية التي ترمي بنا حيث لا ندري تنبيهنا إلى «الدورة العسكرية» التدريبية التي تنتظرنا كي لا نسيء التصرف أمام مقدسات الشعوب الأخرى دونما قصد؟ أيها الهارب

من القمع الميليشياوي البيروتي، لا مناص حتى ولو كنت سائحاً في آخر الدنيا!

★ ★ ★

يتمنى المرء لو رمى به الباص السياحي في حديقة جبران خليل جبران بدلاً من سوقه إلى «الخدمة الإجبارية» العسكرية! ولكن حديقة جبران لا تزال خارج الخارطة السياحية، حارمة الناس من وقفة هادئة، بعيداً عن صيحات العسكر وإرهاب العصر، قريباً من أجواء الصفاء والجمال والمطلق اللامتناهي الشبيه بمسقط رأس جبران في واحدة من أجمل قرى العالم المعلّقة بين الغيوم والنجوم: بشرّي اللبنانية. ولكن كل إبداع عربي يظل نسبياً بمنأى عن الحضور واسع النطاق الفعال... الحديقة ـ كما قرأت في إحدى الصحف ـ بحاجة إلى عربي يتبرع لإنجازها. فهل من ثري يمضي إلى فراشه ذات ليلة باكراً ويتبرع بنفقات السهرة للحديقة؟ ألا يساهم ذلك في غسيل اسمنا من صفة الإرهاب والقسوة والتي لصقت بنا جميعاً للأسف، ويذكّر الدنيا بأننا نحن أيضاً من صنّاع الحضارة والفن والشعر؟

نقرأ العديد من المقالات التي يسطرها كتّاب أميركيون عن «تسعيرة» اللوبي، وقدرة العرب على «الدفع»، ودفع عجلة مصالحهم بالتالي... لا تشتروا لنا «لوبي». فقط أكملوا حديقة جبران، وادفعوا للباصات السياحية كي تتوقف هناك بالقادمين من أنحاء الأرض كافة، كما توقف الباص بنا مرغمين عند بقالية يهودي من دون بقاليات واشنطن كافة.. واضطررنا للشراء منها.. وكما تتوقف الباصات السياحية حتى في فلورنسا في معمل للجلود بدلاً من الكنيسة المجاورة التي دُفن فيها مايكل أنجلو وتضم روائع أعماله!. والبركة في «الكومسيون» والعمولات. فمتى نتعلم لغة العصر؟

★ ★ ★

تمر بكنيسة صغيرة استثنائية لأنها مشيدة فوق محطة «بنزين» تدعى أرلنغتون تمبل. كنيسة فوق بائع وقود للسيارات؟ ولِمَ لا؟ جميلة هي الأشياء غير التقليدية التي تتوخى الجوهر... فالرب موجود في كل مكان، ولا يضايقه أن يصلي عباده أينما كانوا... وقود للسيارة، ووقود للروح، فلِمَ الدهشة؟ تستيقظ من لحظة الود الكونية هذه على صوت الدليل السياحي. إنه لم يسمع بحديقة جبران، لكنه لا يُفوّت فرصة السخرية من العرب حين يمر الباص بجادة ماساشوست ـ حي السفارات ـ، فيقول ساخراً مشيراً إلى سفارة عربية: انظروا إلى القضبان على النوافذ. إنها من الذهب. انظروا إلى الكاميرات المزروعة حولها، كاميرات تلفزيونية تراقب الناس خوفاً من سرقة كنوزها. قلت له: ألم ترَ كاميرات السفارة الإسرائيلية، وبقية السفارات المحيطة بنا؟ هل تستطيع أن تدلني

على سفارة غير محروسة بعشرات الكاميرات المتلفزة؟ وهكذا حين مررنا بالمركز الإسلامي نظر إليَّ الدليل خائفاً وامتدح جمال المبنى باقتضاب، وتابع ثرثرته عن أمجاده في ڤييتنام.. عن مباراة كرة القدم وأخطاء الحَكَم فيها. عن هواجسه المعيشية والإضراب الذي يعده الأدلاء السياحيون، حتى كاد يطلب منا ترك سياحتنا والاعتصام معهم أو القيام باعتصام أمام حدائق البيت الأبيض!.. وشيئاً فشيئاً بدأنا نشعر أننا لسنا حقاً في سياحة بواشنطن بل في سياحة داخل هواجس مواطن أميركي يمثل الأكثرية الساحقة. في البداية، وجدت الدليل مشغولاً بأمور كثيرة والمطلوب واحد: الصمت. ثم وجدت فيه نافذة على القلب الأميركي والعقل المتوسط العادي اليومي. وصرت استجوبه عن قضية لبنان.

★ ★ ★

لم يسمع بلبنان إلا بسبب الرهائن وتفجير مقر المارينز. لا يعرف ما الذي يفعله الفلسطيني في إسرائيل بلد اليهود المساكين الذين طردوا منه وذهبوا ضحية النازية! دهش كثيراً حين عرف أن تعداد الفلسطينيين هو بالملايين وليسوا مجرد قراصنة وعصابات بدو رحل تقيم على الحدود وتهيم على الخرائط كالغجر... وحين مررنا بالقرب من نصب لنكولن، وهبطنا لنرى الجدار الأسود الغرانيتي الذي يحمل أسماء «أبطال ڤييتنام» من القتلى، أصر على الادعاء بأن اسمه منقوش كمحارب قديم!!! ولكن ما يشغل باله أكثر من ڤييتنام هو سقوط طائرة في نهر بوتوماك الذي يخترق المدينة. وظل يهذي بمصيرها حتى حين مررنا بمبنى جميل غريب بالقرب من البيت الأبيض ولم يشرح لنا شيئاً عنه. وحين سألناه قال إن مهندسه لقي تأنيباً كبيراً في زمانه (على ما اقترفه) فانتحر، وبعدها بنصف قرن قرر الناس أنه كان عبقرياً وأن المبنى جميل جداً!... هكذا هي الرؤيا، لا تتضح أحياناً إلا بعد فوات الأوان... والمهم ألا نوصل صوتنا إلى العالم الخارجي بعد فوات الأوان..

ثمة حقيقة مروعة وهي جهل المواطن الأميركي العادي بالقضايا العربية وسوء فهمه للإنسان العربي (بغض النظر عن الأسباب ودور الدعاية المعادية في ذلك إلى جانب تقصيرنا وأخطائنا معاً).. الفرد الأميركي مشغول بتفاصيل حياته اليومية عنا وعن السياسة الخارجية عامة. إنه ليس شريراً. إنه يجهلنا. صوتنا لا يصل إليه على شاشة تلفزيونه ولا عبر أي قناة من قنوات حياته اليومية.. فمتى نتعارف وإياه؟ ومتى يلحظ أننا متشابهون أكثر مما يخطر بباله وببالنا معاً؟ الطريف أن الدليل ظنني أميركية لكثرة ما استجوبته بلغته ـ وكان يتكلمها بلكنة أفريقية محببة ـ، وسألني لماذا دافعت عن السفارة العربية، ولم يصدق حين قلت له إنني امرأة عربية، ربما لأنني لم أكن أرتدي ثياب نساء ألف ليلة وليلة التي يرى العربيات فيها على التلفزيون، وما أدراك ما التلفزيون وصورتنا فيه كعرب!...

١٩٩١/١١/١٠

مصافحة الأشجار المتحفظة

أمام نصب البحّار في واشنطن، يقف السائح حائراً. كيف يقترب من التمثال البرونزي الجميل لبحار شاهق القامة في عينيه أشواق «يوليسيس» إلى المجهول، دون أن يخوض في «بركة» الماء المحيطة به على الأرض. حسناً. إنها ليست كبيرة إلى هذا الحدّ، ومن الأفضل تسميتها ببقعة مائية وكأنها تسربت من النافورة المجاورة، أو أن عامل التنظيف تركها تجف من تلقاء نفسها في هذا الصباح البارد.. أم تراها ساحت من ملابس البحار وحقيبته الجلدية على الأرض إلى جانبه؟ تكتشف أن لا وسيلة للاقتراب من التمثال إلا بالخوض في بقعة الماء، ويغلبك فضولك الفني نحوه فتقرر أن تخوض في الماء. وحين تفعل ستكون دهشتك كبيرة جداً لأن الأرض جافة تماماً وهذه البقعة المائية التي تخدع النظر هي جزء من النصب والتمثال! تعجبك كثيراً هذه اللمسة الفنية الذكية والبسيطة، تماماً كفكرة جلب مياه النافورة المجاورة من المحيطات في كوكبنا. تتأمل البركة التي تمتزج فيها مياه البحار كلها، وتبدو لك في غاية البساطة والعمق في آن... وشبيهة بما يحدث في هذا البلد إذا حدّقت فيه من بعيد بعين السائح المحايد... فالولايات المتحدة بما تضمه من شعوب وعروق مختلفة مهاجرة تبدو كهذه البركة، مختبراً لتجربة إنسانية نادرة في التمازج البشري، تتمتع بالحد الأدنى من الانصهار والتجانس فيما بين أبناء الشعب مكنهم من أن يصيروا أقوى دولة في العالم (وهي حقيقة قد تحزننا أو تفرحنا، لكنها حقيقة قائمة!).. ثمة انصهار وتمايز في آن، حيث يحافظ كل «بحر» على خصائصه دون أن يحول ذلك بينه وبين الولاء لمحيط واحد... أما ذلك السراب المائي على أرض النصب ببساطته الفنية المدهشة، فيكاد يشبه الكثير من مباني هذه المدينة التي وعت سر الماء وبساطته وتعقيده في آن فحاولت العودة إلى الينابيع واختارت الإغريقي منها...

★ ★ ★

تبدو واشنطن من الخارج مدينة يشتهي المرء الإقامة فيها. عصرية وجميلة ونظيفة وعدد سكانها أقل من مليون نسمة (باستثناء سكان الضواحي طبعاً)... مدينة ريفية ومعاصرة في آن بحدائقها الشاسعة الغنّاء، وشوارعها الرحبة الهادئة، ومبانيها البيضاء

الجميلة. . . ولكن الإحصاءات تسخر من هذا الانطباع السياحي، وتقول للعاشق من النظرة الأولى إنها المدينة الأولى من حيث ارتفاع معـدل الجرائم، وإنها تسبق بـذلك نيـويورك وديـترويت وشيكاغـو ولوس انجليس وسـواها. . وإذا كـانت الإحصاءات «الإجرامية» تشهر أظافرها في وجه السائح وتفهمه أن واشنطن كبعض الجميلات تعيش حياة سرية متوحشة بعيدة عن مظهرها الهادىء كـ «بنت عيلة»، إلا أن ذلك لا ينتقص من جمـالها النهـاري المشرق الجذاب. . . تـطوف بمبانيهـا البديعـة الحجريـة النظيفـة كالكابيتول (الكونغرس). المحكمة العليا. مكتبة الأرشيف الوطني. «لي مانشون» أي قصر لي، فتقتنع أن «البيت الأبيض» الشهير ليس واحداً في واشنطن وثمـة عشرات «البيوت البيضاء» التي تنافسه جمالاً وتميزاً في فن البناء إلى جانب الأنصاب التذكارية الكثيرة كنصب لينكولن و «أرلنغتون ميموريال» ونصب جيفرسون وغيرها. . . ويلاحظ السائح ولع الحلم الأميركي بالحلم المعماري الاغريقي، وتَبَنّي الأعمدة اليونانية. وإذا كنت مثلي من عشاق الأعمدة الأندلسية برشاقتها الغزلانية الخارقة التي تتجلى مثلاً في قاعة الأسود بقصر الحمراء في غرناطة، فإنك ستشعر بثقل هذه الأعمـدة الاغريقيـة الكثيرة على صدرك كأقدام الفيلة. . . من يشاهـد الفن المعماري الأنـدلسي بأعمـدته المميزة، لا يستطيع أن يطرد يوماً من خياله ظلالها في الذاكرة وهي ترقص على صفحة الماء بسيقان «الفلامان روز» واللقـالق والبجع، مُلغيـة المسافـة بين الحجـر والحركـة والدانتيل.



تلوح من بعيد مسلة شاهقة تتساءل: أهذه مسلة أخرى فرعونية مسروقة كتلك التي وضعها نابليون في جيبه خلسة حين غادر مصر كأي «كليبتو مانياك» مريض بالسرقة والاستعراضية معاً (اكزيبيشنيست)، إذ لم يتورع عن نصبها في ساحة الكونكورد في قلب باريس، بينما تعاقب أية أرملة فرنسية متوحدة إذا سرقت دبوساً من السوبر ماركت؟ أهذه مسلة فرعونية أخرى منهوبة؟ لا. يقولها لك الدليل بكل فخر. هذا نصب محلي. نصب واشنطن يعلو ٥٥٥ قدماً وممنوع تشييد أي مبنى قد يعلو عليه أو على قبة الكابيتول بمبنى الكونغرس. تفرح بذلك إذا كنت مثلي من عشاق المنمنمات والفسيفساء والسحر الآتي من الصغير العميق بدل الضخم الأجوف ناطح السحاب. وهكذا فعشاق البساطة سيعجبون بقبور آل كنيدي في مقبرة أرلنغتون. قبر جون كنيدي على مستوى العشب وتدل عليه شاهدة برونزية لا أكثر ساجدة على التراب وشعلة آتية من ثقب في أعماق الأرض كأنها قبس روحه. قبر روبرت كنيـدي تحفة في البسـاطة والتجـريديـة: مجرد مستطيل حجري أبيض صغير بين العشب يحمل اسمه وتاريخ ولادته ووفاته. عبر هذه

البساطة العميقة سيصير بوسعك أن تسمع همس العشب المحيط بك قادماً مع الريح حاملاً صوت شاعر أميركا الكبير والت ويتمان في قصيدته «أوراق العشب»، وتلمس الجانب المحبب من الروح الأميركية والحلم الإنساني في كل مكان وزمان. . .

★ ★ ★

توقف سائق الباص السياحي في إحدى دروب واشنطن الريفية فجأة، وتسلق أحد المقاعد وخرج بالنصف الأعلى من جسده عبر نافذة السقف وهو يحاول إبعاد غصن شجرة عملاقة من طريقه. ذهل السواح وهم يتأملون المشهد اللطيف، والسائق لا يريد إيذاء الغصن بمروره بحافلته الهائلة تلك. هذا السلوك العفوي يعبر عن موجة تجتاح أميركا اسمها الحرص على البيئة. ثمة وعي جماعي جميل بذلك يحسه السائح منذ ليلته الأولى في غرفة الفندق، حيث يجد لافتة على الطاولة ترجوه أن يفرز «قمامته» بأن يضع البلاستيكية في كوم والصحف في كوم آخر. . . إلى آخره (وهذا في فنادق النجوم الخمس حيث لا ينقص الخدم). في المطاعم لا يكتفي المرء بحمل «صينيته» قبل الأكل بل عليه أن يرمي بأقذاره بعد أن ينتهي. وصحيح أن بوسع عامل واحد أن يقوم بالمهمة، لكن الغرض من ذلك هو توعية الجميع على حجم الكارثة البيئية التي يمكن أن يسببها استهتارنا بالطبيعة والتلوث على كل صعيد بدءاً بالتفاصيل اليومية الصغيرة وانتهاء بالمفاعلات النووية. وهذا الوعي الإنساني الجميل بالبيئة لا يزال محدوداً في بلادنا حتى أن البعض يسمح بتحويلها أحياناً إلى مقابر للنفايات النووية ويؤجرها لهذا الغرض. . . !

وإذا كنت مثلي تكره ذلك الهول الملقب بالتلفزيون الأميركي وصوته العالي الذي ينادي بجنون إعلاني على البضائع الاستهلاكية، فإنك ستحب صوت العشب في صيحة الحرص على البيئة. وكثيرون مثلي يفضلون «صوت العشب» على «صوت التلفزيون» الذي يمثل عبودية إدمان الامتلاك أو عبودية حسد الذين يمتلكون. والتلوث بأنواعه كلها بما فيها التلوث الصوتي بنباح إعلانات التلفزيون حرم المرء من نعمة الصمت والتأمل وخسر بذلك حكاية حبه مع المدى والعشب والأشجار. . . أضحت الأشجار تبدو خائفة في الحقول، مكهربة بالنفور من البشر (أو هكذا يخيل إليّ). . . لا أذيع سراً إذا قلت إن الأشجار تحس وتحزن وتخاف (فهذه حقائق أثبتها العلم) وهي بالتالي يمكن أن تحب وتكره. . . وتبدو لي أشجار زماننا مذعورة من الناس، ومتحفظة حين نلاطفها، تحنّ إلى جيل العشاق الذين كانوا يكتفون بجرح جسدها لتوقيع الحروف الأولى من أسمائهم داخل قلب في وشم يبقى. فهل يتعلم عصرنا ببلدانه المتخلفة والمتطورة، عقد صلح مع الأشجار قد يتطور إلى حب. . . أو يكتفي على الأقل بمد يد الوعي لمصافحة الأشجار المتحفظة في زماننا العدواني؟

١٩٩١/١١/٢٠

كيف حالك اليوم؟

أحاول عبثاً الاستمتاع بالمتحف الوطني للتاريخ الطبيعي في واشنطن على طريقتي. يطاردني صوت الدليل السياحي: بعد قليل سنرى «أكبر» ماسة واسمها الأمل! وأكبر فيل في العالم ويزن ٨ أطنان، وأكبر نيازك عملاقة سقطت على الأرض، وأكبر مجموعة من هياكل الديناصورات، وأكبر مجموعة من الحشرات، فهذا المتحف يضم ٦٠ مليون قطعة نادرة. (وكنت قد شاهدت قبلها بساعات أكبر بوصلة أرضية في العالم، وقبلها في شيكاغو أكبر مطار في أميركا وأعلى ناطحة سحاب إلى آخره...) يتابع الدليل: وبعد ذلك سنذهب لمشاهدة أكبر كاتدرائية في أميركا والسادسة في العالم من حيث ضخامتها.

وظل يتبجح بالأكبر واهماً أنه الأجمل والأعظم!!.. أصرخ في وجهه بصمت: لا أعرف هل كاتدرائية «الديومو» في ميلانو مثلاً هي الأكبر في العالم أم الأصغر ولا ترتيبها في لائحة الـ «توب تن» في قائمة الكاتدرائيات. وكل ما أعرفه هو أنها أجمل كاتدرائية شاهدتها في حياتي بدانتيلها الحجري الحي كعجينة من ضوء سيَّال. أما كنيسة الفنان الكبير ماتيس في جنوب فرنسا (قرية سان بول) التي صممها ورسمها بنفسه، فهي على صغر حجمها وتواضعها تضاهي بروعتها أضخم المباني «السمجة» الثقيلة التي يتباهى بها أصحابها... والشيء ذاته يمكن قوله عن كنيسة الصيادين المؤلفة من غرفة واحدة فقط التي رسمها الفنان جان كوكتو لقرية «فيلفرانش سورمير» في الريفييرا الفرنسية. فالمبدع هو الجميل، كبيراً كان أم صغيراً.

★ ★ ★

في البداية، يتضايق السائح كثيراً من منطق «الكبير هو الجميل» ويجده هزلياً، بل وامتداداً لروح الغطرسة الأميركية التي توجع أبناء العالم الثالث.. ولكنه حين يرى الريف الأميركي الشاسع بكل رحابته واتساعه، يدرك أن عشق الكبير لديهم قد يكون امتداداً لعشق تلك الطبيعة الخارقة لوطن مفرط الرحابة والاتساع يمتد على طول القارة. ولكن عشق «الكبير» و«الكثير» نجده في كل شيء. في المطاعم مثلاً حيث يأتونك بطبق يكفي عشاء لأسرة هندية فقيرة. وإذا كنت من الذين يقتدون بالطيور في طعامهم،

فستطلب سندويشاً للعشاء هرباً من الصحن «الأكبر» الذي لا تقدر على التهامه لأنك لم تركب حصانك طوال النهار في الغرب الأميركي ولم تدخل حلبة «الروديو». ويأتيك سندويش اللحم البقري المطلوب، فتجده يكفي عشاء لرواد ملجأ في بيروت ذات ليلة قصف. رغيف كبير جداً من الخبز فيه عدة قطع كبيرة من اللحم والجبن والبصل المقلي والخيار المملح، أي كمية الطعام التي يقدمها مطعم فرنسي لأربعة أشخاص، ولكن بعد تقطيع المواد الأولية للطعام بشكل جذّاب وإعادة تنضيدها بذوق في عدة أطباق. عشق الأكبر والأضخم ينسحب حتى على التبريد في أميركا. فلديهم بالتأكيد «أقوى» تبريد لسعني في الفندق والسيارة والمطعم والمقهى، مما يجعل المعطف الشتوي ضرورة في عز الصيف بالذات حين تنفخ المبردات رياح الآلاسكا من كل صوب. ويبدو أن أهل البلد ألفوا ذلك، ولذا تعرف السائح من رداء صوفي يحمله معه أينما ذهب، ومن زكامه الصيفي وسعاله! ولديهم عادة عربية جميلة، وهي أنهم يقدمون لك الماء مجاناً ومن تلقاء أنفسهم في المقاهي والمطاعم (لا كما في أوروبا الغربية مثلاً حيث أنت مرغم على دفع ثمن الماء الذي تشربه). ولكن ابريق الماء الشهي يأتيك كجبل الجليد المكسر، فتتجرعه بين نوبة سعال وأخرى!

* * *

كلما طالت رحلة السائح في U.S.A كلما ازداد إعجاباً بلطف الشعب الأميركي وبساطته وعفويته المختلفة عن المزاج الأوروبي المتحفظ بحذره البارد وتهذيبه العدواني.

حرارة القلب الأميركي تجد صداها لدى الشخصية العربية. وإذا كان الأوروبي يتضايق حين يخاطبه الأميركي باسمه الأول بلا ألقاب منذ اللقاء الأول، فإن العربي يُسّر بذلك ولا يجد في هذا السلوك «وداً اصطناعياً سطحياً متكلفاً» ـ على حد تعبير الأوروبيين ـ، بل ربما إشارة إلى الإخاء بين البشر والمساواة والود خارج الاعتبارات الطبقية والألقاب التي لا تستهوي القلب العربي كثيراً.

كيف حالك اليوم؟ سؤال يطرحه عليك عشرات الأميركيين الذين لم تلتق بهم من قبل في حياتك ولن تراهم ثانية. والغريب مثلي يجد نفسه في بداية الرحلة متورطاً في مواقف مضحكة لجهله هذه الحقيقة. ففي يومي الثاني في فلوريدا، دخلت إلى مكتبة لشراء الصحف والمجلات. واستقبلني صاحبها متهلل الوجه وسألني بحرارة: كيف حالك اليوم؟ قلت لنفسي: إذاً فهو يعرفني ليسألني عن حالي. وصرت أحاول أن أتذكر أين شاهدته من قبل؟ هل كان جار مقعد الطائرة الذي حاورته في دواري؟ هل كان في سهرة البارحة في المطعم نصف المعتم؟ هل هو الغريب الذي راقصته وأنا متعبة نصف

نائمة؟ وكلما دخلت إلى حانوت كان صاحبه يطرح عليَّ السؤال نفسه، وأتساءل بعدها: أين شاهدته من قبل وهل أصبت بفقدان الذاكرة؟ ثم اكتشفت أن هذا السؤال جزء من الحياة اليومية للناس، والغريب هنا كالقريب، ومجرد حضوره سبب لإدخاله في دائرة الود والحرارة والحوار، على العكس تماماً من الدائرة المغلقة المكهربة المسورة بالأسلاك الشائكة التي يحصِّن بها الأوروبي نفسه حتى من أقرب الناس إليه!...

★ ★ ★

وفي استديوهات مترو غولدوين ماير، بحثت عن القطار المكشوف الذي يدور بالناس في المعارض الشاسعة كلها، وفرحت حين وجدته أمام الباب، فقد كنت متعبة لطول ما تسكعت. وارتميت على المقعد وأنا أمنّي النفس بجولة على المرئيات وأنا مرتاحة هكذا، وتعجبت لأن القطار لم يدخل إلى منطقة الاستديوهات بل مضى في الوجهة المعاكسة حيث موقف للسيارات يمتد على مرمى البصر. ودار القطار دورة كاملة والناس يهبطون منه عند كل موقف. ولم يبق فيه سواي والسائحة جارة المقعد. وجاء سائق القطار فسألني: كيف حالك اليوم؟ ثم مضى وقاد قطاره في دورة ثانية كاملة دامت ربع ساعة أخرى والقطار خال إلا مني والسائحة الأخرى. وأخيراً جاء يسألنا: هل ترغبان في دورة ثالثة في موقف السيارات للفرجة عليها، أم أن بوسعي العودة إلى المدخل لإحضار الناس إلى سياراتهم!.. وضحكت من حماقتي التي زاد فيها لطف السائق الذي لم ينبهني منذ المرة الأولى مكتفياً بسؤالي عن حالي اليوم؟!! وبلغت ذروة حماقتي السياحية في ليلتي الأولى في U.S.A حين دخلت إلى أحد الفنادق بعد طيران طويل وسألتني موظفة الاستقبال بلهفة: كيف حالك اليوم؟ قلت لها: منهكة. قالت: هل تريدين أن أساعدك على حقائبك (وكانت تقصد مناداة الحمّال بدلاً عني). ولشدّة لطف لهجتها واهتمامها المفرط بي ظننتها تريد مساعدتي على إفراغ حقائبي في الخزانة، فقلت لها: حسناً. أنت تعلقين الفساتين وأنا أرتب الأحذية... وانفجر الناس حولنا ضحكاً من جهلي! في السفر تصير الحماقة الشخصية مدعاة للضحك لا للكوارث.. وربما لذلك نعشق دور السائح، حيث نشارك الآخرين الضحك من حماقاتنا بدلاً من تبريرها واختراع أقنعة لائقة لها حين يسألنا أحدهم: كيف حالك اليوم؟

١٩٩١/١١/٢٢

مدن سيئة السمعة

شيكاغو اسم لا يمر بالخاطر إلا ويسمع المرء طلقات رصاص عصابات آل كابوني وديلنجر. ويتصور أنه سيجدهم يتابعون مطاردات جنونهم بين الركاب على أرض مطار أوهاير الذي تتأهب الطائرة للهبوط فيه... وحين يذهب السائح لاستلام حقيبته يحرص على ألّا يتم استبدالها خطأ بأخرى محشوة بمخدرات آل كابوني، ويصير بعدها هدفاً لقاتل محترف تلتمع أسنانه الذهبية في الظلمة حين يبتسم، يطارده إلى الفندق لاستعادة الحقيبة، يطلق النار عليه في المطعم بينما هو يلتهم السباغيتي، كما في عشرات الأفلام والمسلسلات التلفزيونية التي كرست شيكاغو مدينة للعنف والإجرام..

أية رياح قذفت بي إلى شيكاغو؟ الفضول أولاً. والتعاطف ثانياً مع مدينة سيئة السمعة كبيروت التي أحب!..

ولكن شيكاغو تدهش السائح الغريب الذي لم يعرف بعد أنها مدينة جميلة وجذابة وتكاد تكون هادئة قياساً إلى سمعتها.. ترخي شعر أشجارها وحدائقها على ضفة بحيرة ميتشيغان وتقدم عرضاً يومياً على طول «الشاطىء الذهبي» للبراءة والطفولة والفرح وحب الحياة كأنها تحاول غسل سمعتها في مياه البحيرة والتكفير عن أيام كانت شوارعها خلالها مصائد للأبرياء ومسرحاً لجنون العنف وهذيانه.. ستون عاماً وشيكاغو تقدم الدليل تلو الآخر على حسن سلوكها. ولكن السائح الذي يمشي في شارع «ميتشيغان أفنيو» (شانزيليزيه شيكاغو)، ويمر بفندق المتروبوليتان، لا يملك إلا أن يتذكر آل كابوني ورقصة عنفه في ردهة الفندق وأرجائه... تقدم لك شيكاغو رشاوى حضارية كثيرة لتنسى ماضيها، تضعك في قارب يمخر نهر شيكاغو لتتأمل أفقها المرسوم بأبنية شاهقة تمثّل مختبراً للفن المعماري المعاصر بحلوه ومره. ثم تمضي بك إلى «لنكولن بارك» لتركب الدراجة الهوائية في فضاءاتها الخضر الغنّاء، وتمضي بك إلى الـ «آرت انستيتوت» لترى مجموعتها الفنية البديعة، وتغويك بتفوقها في حقل الطهو الجيد في مطاعمها الفخمة أملاً في أن يكون الطريق إلى قلب السائح معدته. وتشهر أمام عينك إحصاءات الإجرام معترفة بأنها لا تخلو من عصابات المخدرات والعنف، لكنها تأتي في هذا المجال بعد واشنطن ونيويورك ولوس انجليس وديترويت.. فماذا تريد أكثر من هذا البرهان؟

★ ★ ★

ستون عاماً وشيكاغو تغسل الدماء عن يديها في مياه بحيرة ميتشيغـان ونهرها، وتبذل كل ما بوسعها لإثبات حسن سلوكها مع الطيور والأشجار والحقول ورئات البشر التي طالما ثقبتها عصابات آل كابوني بالرصاص. . . وبلغ من حسن سلوكها حتى مع البيئة أنها حولت مجرى أحد أنهارها الملوثة كي لا تعكّر مياهه نقاء البحيرة. . . ولكن أحداً لم ينسَ حقاً، وما زال السائح يتذكر ماضيها حتى في معرض مديحه لحاضرها. . . وهو أمر يخيف العربي مثلي الذي أحب أميرة الحرية بيروت ذات يوم، وانكسر قلبه وهو يرى ما حل بها حين ركبت الفوضى حصان الحرية فجمح بالجميع، وعوقبت بيروت عقاباً لا تستحقه وتخلى عنها الجميع تقريباً. . . وصار لبنان مثالاً للجنون الذي يحطم الأوطـان، وبيروت نمـوذجاً للرعب والأذى وذنبهـا الوحيـد أنها فتحت بابهـا للجميع واحتضنتهم، فانتهك البعض حرمة أسوارها وشنقها من شعرها الطويل على أبـواب الغدر. . . واختلطت الأوراق وضاعت الحقائق ونسي الناس الأسباب وبقيت النتائج: وطن ممزق وعاصمة مرعبة الذكريات صارت اليوم ـ في أفضل حالاتها ـ مزيجاً من بذخ الكوت دازور وبؤس كالكوتا! . . .

أما على صعيد السمعة فقد أضحت بيروت كشيكاغو من قبل، مضرب الأمثال في البشاعة والوحشية، ولبنان فزاعة لتخويف الشعوب الأخرى من «اللبننة» وسواها من الكلمات التي تم اشتقاقها من مأساة ذلك الوطن الذي كانت الأحداث أكبر من يقظة أبنائه للأسف. وربما كان اللبناني المتوجع على سمعة بلده أكثر الناس فهماً وتعاطفاً مع ابن شيكاغو الذي قدَّم ألف برهان على مدينته الاستثنائية رقياً ولكن شبح آل كابوني وحقبته ما زال يركض في شوارع الذاكرة الجماعية للناس. . . فاللبناني يتألم كثيراً على سمعة وطنه وبصمت. يتألم في المطارات حين يعاملونه كمهرب مخدرات أو كإرهابي، ويتألم وهو يطالع الصحف التي تُشَبِّهُ ـ بحسن نية ـ كل ما هو بشع ومرعب على كوكبنا ببيروت. والحق يقال إن بعضنا ما زال يغذي هذه الصورة غير المشرفة لبلدنا، ومشهد الطيار الرهينة جاك مان الذي أطلق سراحه مؤخراً على شاشات تلفزيون العالم كان مخزياً للعرب جميعاً، بينما الرجل المسن يجر أعوامه السبعين ونيف بخطى واهنة ويتحدث عن المعاملة المذلة التي لقيها في سجنه البيروتي. وصحيح أن العجائز العرب والأطفال لا يلقون من إسرائيل معاملة أفضل من التي لقيها أسيرنا السبعيني (الذيم لم يُنسف بيت أسرته كما يحدث لمئات من أسر أطفال الحجارة في الأرض المحتلة أو المتهمين بذلك لمجرد اتهام غير مؤكد)، ولكن يبدو أن هذا الأسلوب لم يلفت نظر العالم إلى الظلم الـذي يتعرض له العرب بقدر ما أساء إلى سمعتهم خصوصاً وأنه يتنافى مـع جوهـر الدين الإسلامي الذي لا تزر فيه وازرة وزر أخرى.

في بريد مجلة التايم، عدد ٧ تشرين أول (أكتوبر) ١٩٩١، تطالع رسالة من اللبناني هادي. ف. عيد المقيم في الدمام ـ المملكة العربية السعودية يقول فيها: «أرجوكم أن تكفوا عن استعمال اسم لبنان كمثال على الفوضى والخروج عن القانون». وصرخته هذه يرددها ملايين المجروحين، الذين يتعاطفون كثيراً مع مدينة سيئة السمعة اسمها شيكاغو، التي لا تقاس خطاياها ومآسيها بما دار في بيروت على مدى خمسة عشر عاماً. . وبصوت شكسبير في مسرحية ماكبث يحلم ببحار العالم علها تغسل عن أصابع مدينته دم خطاياها. . وإذا طهرّت بيروت نفسها من آثامها، كيف يستطيع الذين اغتالوا سمعتها أن يفعلوا ذلك؟ وإذا استغرق الأمر من شيكاغو حوالى نصف قرن للبدء بتنقية سمعتها، ترى كم سيستغرق الأمر من بيروت؟

★ ★ ★

يقول لي موظف الفندق مباهياً بمدينته شيكاغو: عندنا أكبر مطار في أميركا: مطار «أوهاير»، وأعلى ثاني ناطحات سحاب «سيرز تاور»، وأكبر مجموعة للفن الانطباعي الفرنسي تجدينها في متحفنا، وأفضل مطعم في أميركا الشمالية للحم البقر «ستيك هاوس» عندنا. . ماكدونالد شيكاغو في كلارك أفينيو هو الأول من حيث استهلاك الهامبرغر، وحي المال لدينا «لووب» هو الثاني في أميركا بعد وول ستريت نيويورك! وهو بكلامه هذا يعبر عن هوس أميركي عام بـ «الأكبر» و«الأعلى» و«الأول»، وهو أمر يدفعهم أحياناً إلى تعمير أبنية عملاقة هاجسها الأساسي أن تكون الأضخم والأكبر، فتأتي مفتقرة أحياناً إلى الجمال الفني والذوق المرهف. . وبعض الإعلام الأميركي يقع في الغلطة ذاتها حين ينظر إلى الشعوب الأخرى، لا العربية فحسب بل والغربية أيضاً، على ضوء الأكبر والأصغر. ففي مجلة التايم مثلاً، التي أصدرت عدداً إيجابياً عن فرنسا نجدها تبدي دهشتها من قوة فرنسا المعنوية في العالم قياساً إلى حجمها العسكري، فهي ليست الأولى ولا الثانية ولا الثالثة «ضخامة» عسكرية ومالية. . إلى آخره. ورد على هذه النظرة الهزلية إلى القيم الإنسانية كاتب فرنسي هو أندريه فروسار مذكّراً الأميركيين بأن قوة «التأثير» لا تقاس بالأكبر والأصغر، وأن عدد سكان أثينا الاغريقية لم يكن يفوق الأربعين ألفاً ولكن فكرهم لا يزال حتى اليوم فاعلاً كأول مثال ديمقراطي طليعي إنساني.

وبهذا المعنى، لا يقاس لبنان بمساحته. فهو وطن الحرية والفكر والشعر والعطاء، فمن يمد له يد المساعدة للنهوض من كبوته؟

١٩٩١/١١/٢٥

قلوب مكيفة الهواء

أعترف أنني شعرت بشيء من الخوف حين هبطت بي الطائرة في نيويورك التي أزورها للمرة الأولى. وفي التاكسي الذي يقوده زنجي عجوز نصف مخبول، ركضت داخل رأسي شهادات عدوانية في تلك المدينة أدلى بها شعراء وفنانون وأفلام مرعبة سبق أن شاهدتها عن نيويورك، وحكايا يومياتها المضرجة بالعنف والمخدر والسادية المجانية... حيث أضحت «طريقة العيش الأميركية مرادفة للموت على الطريقة الأميركية أمام العينين الفارغتين لتمثال الحرية» على حد تعبير الفرنسي فيليب كرويزمانز..

تذكرت معرضاً شاهدته في باريس للفنان الشهير بوفيه، كرَّسه لمدينة نيويورك وكيف يراها. فشاهدتها عبره مدينة من الاسمنت الشاهق العدواني تُسَبِّح بحمد الكوكاكولا والهامبرغر، وصحارى روحية أتى على إحيائها التلوث الإنساني. لم يرسم بوفيه في لوحاته مخلوقاً واحداً في الشوارع أو وجهاً خلف نافذة، فنيويورك عنده هي الخواء المطلق المرعب.. تذكرت قصيدة أدونيس «قبر من أجل نيويورك»، والتاكسي «الكاديلاك» تركض بي صوب غابة الحجارة، والسائق يدخن سيجارة تفوح منها رائحة حشيشة الكيف، وقد خلَّفنا مطار نيوآرك في نيوجرسي وراءنا في الطريق إلى مانهاتن. شعرت بالدوار. فتحت نافذة السيارة. زجرني السائق، قلت له: إذا أطفأت لفافتك سأغلق النافذة بدوري، التفت ضاحكاً بأسنان سود ونصحني بأن لا أسجل رقم سيارته وأتقدم بشكوى، فهو سيتقاعد على أية حال بعد أسابيع!..

* * *

تابعت الشهادات في نيويورك ركضها داخل رأسي. شهادات تؤكد: ٥٩ بالمائة من سكان هذه المدينة يطمحون للحياة في مكان آخر، و ٧٣ بالمائة يعتقدون أن الإقامة فيها خطرة. فالعنف لم يعد مقتصراً على «الغيتو» المعلوم الذي تستطيع أن تتحاشاه، ولا على الشوارع الغامضة أو المظلمة بل أضحى يهددك في كل مكان، ولا ينفع في دفعه أن لا تكون بمفردك. والعزاء الوحيد هو أن الجريمة (جريمة قتلك أو سلبك) لا تمضي بلا عقاب.. ويا له من عزاء!.. وصحيح أن ٨٠ بالمائة من الأميركيين أفتوا بإعادة عقوبة

الإعدام، ولكن ماذا يجديك سلخ القاتل بعدما ذبحك كالشاة؟ تدافع نيويـورك عن نفسها مؤكدة أن نسبة الجرائم في واشنـطن أكثر ارتفـاعاً منهـا في نيويـورك كما نسبـة الاغتصاب في كليفلاند ونسبة السرقات في دالاس. ولكن ذلك لا يشفع لهذه المدينة في نظر مجلة الإكسبرس الفرنسية مثلاً التي أصدرت عدداً خاصاً عن نيويورك المرعبة (عدد ١٨ ـ ٢٤ تموز/ يوليو ١٩٩١) وحمل غلافها صورة المدينة مزنرة بالأسود كما في بطاقات النعيّ، كاتبةً اسم نيويورك بحروف مرتجفة توحي بالذعر من حلم تحوّل إلى فـوضى كابوسية، وإلى «مدينة من العالم الثالث» مما سبب سقوط أسعار العقارات في مانهاتن (أهم أحيائها وأرقاها) بنسبة ٣٠ بالمائة عما كانت عليه قبل ثلاثة أعوام! وتذكّرنا المجلة بأن نيويورك كانت أفضل حالاً قبل أن يصير «البيض» فيها أقلية (٤٣ بالمائة) والباقي من الزنوج والآسيويين واللاتين وسواهم. أما الصحافي ميشيل جـورج فيؤكد دور مخـدر «الكراك» في انفجار المدينة من الداخل، وانهيار الأسرة، إذ يجهل ٨٠ بالمئة من أطفال هارلم العليا آباءهم. في بقية الأحياء النيويوركية «الساخنة» كالبرونكس وبلمونت يولد عُشر الأطفال مرضى بالايدز في الغيتو الزنجي، ويصير تاجر المخدرات المثـل الأعلى المحتذى للوصول إلى الثراء!

تذكرت أنني حجزت مسبقاً للذهاب الليلة وحيدة إلى المسرح. سرت رعدة خوف في جسدي من مدينـة يذهب بعض أولادهـا إلى المدارس بمـلابس داخلية واقيـة من الرصاص! ماذا سيحدث لي إذا لم أجد تاكسياً يعيدني إلى الفندق، واضطررت لركوب المترو النيويوركي الشهير آخر الليل (أعني آخر ليلة في حياتي!)؟ وهل سيحضر تشارلز برونسون وكلينت ايستوود معاً لإنقاذي كما في السينما الهوليوودية؟ أم أن ذلك لا يحدث لسائحة وحيدة مثلي؟.

* * *

في الفندق العريق الشهير في مانهاتن بدأ اختناقي منـذ اللحظات الأولى حـين اكتشفت أنهم دقوا المسامير في خشب الورد الذي يطعِّم إطارات النوافذ خلف الستائر الحريرية! وكنت قد اخترته على أمل فتح نوافذه العتيقة! البدوية في دمي تصاب بالدوار في الغرف المغلقة ذات النوافذ الشبيهة بالتوابيت المفروشة مكيفة الهواء بنوافذ كزجاج حوض الأكواريوم المعادي لتلك العادة العتيقة الملقبة باستنشاق الهواء الـطبيعي! على النافذة لافتة: فتح النافذة ملغى حرصاً على سلامتك! تراهم يخشون عليك من الموت اختناقاً بالتلوث وآلاف السيارات تركض أمامك في «البارك أڤنيو» نافثة سمومها؟ تهرب إلى الشـارع وتتنزه بـين البارك أڤنيـو والجادة الخـامسة الشهـيرة، وتصـاب بشيء من

الرعب. . الإسفلت في نيويورك ينفث البخار من شقوق معدنية كأن وحشاً غامضاً يقطن جذورها نافخاً أنفاسه الغاضبة المتوعدة. . يرتجف الرصيف كله تحت قدميك كالزلزال كلما مر المترو (دونما مبالغات شعرية). وإذا لم تركض كفأر ميكانيكي حين تضيء إشارات المرور، تدهسك سيارات الإطفاء المُهرولة في كل لحظة بزعيقها المروع كأنها تطفىء حرائق الروح لدى الملايين من أهل المدينة. . وإذا لم تسرع على الرصيف داستك الأقدام العجلى. . . وكل شيء يهرول على ايقاع زعيق السيارات ونواح صفارات البوليس مثل دوران عجلة في مدينة الملاهي فقدت رشدها والشيطان يتسلى بركابها. . وإذا رفعت رأسك إلى السماء فلن تجدها. . ناطحات سحاب تحيط بك من كل مكان وتحيلك إلى نملة. تتذكر مجدداً قصيدة الشاعر أدونيس «قبر من أجل نيويورك» وتردد قول الشاعر السعودي هشام علي حافظ في ديوانه **كلمات لها ايقاع**: «فازدانت تلك الأرض (أي نيويورك) بأقبح أعمدة عالية مسكونة. . تحجب سماء الأرض. . تمسي وتصبح ملعونة. .

لقد كان انطباعي عن نيويورك في ساعتي الأولى سلبياً جداً، أمام غرف كالتوابيت المكيفة، ووجوه يركض في عيونها الحزن والآلات الحاسبة، وأجساد كالعلب المحشوة بالطواحين والدواليب المسننة والكومبيوترات والمعادلات والحسابات. وإذا جرحتها سال زيت المحركات الأسود بدل الدم، وإلا فلماذا لم يتوقف أحد حين صدمت السيارة ذلك الصعلوك الثمل، وظلت قافلة البشر الآليين تتابع مسيرتها بقلوبها المكيفة الهواء؟



أجل. كان انطباعي الأول عن نيويورك سلبياً حتى إنني ذُهلت فيما بعد حين وقعت في حب جوانب كثيرة ايجابية فيها، كالفن التشكيلي وكنوز المتاحف والمسرح مدهش الخصوبة الفكرية والحيوية وسواها من الجماليات الايجابية. . ولهذا حديث آخر. أما الآن فسأخبركم، كيف عدت من المسرح في ليلتي الأولى بالمترو النيويوركي الشهير حين لم أجد تاكسياً يقلني من برودواي وخشيت أن يقفل المترو أبوابه (ولم أكن أدري أنه خلاف المترو في لندن وباريس يظل يدور ليل نهار) وأبقى وحيدة على حافة الشارع المرعب الشهير رقم ٤٢، دون أن يأتي تشارلز برونسون لإنقاذي! وهكذا وجدتني أهبط عند منتصف الليل إلى دهليز المترو دون أن أصدق أن ذلك يحدث لي حقاً وأجلس في العربة وسط عشرات «البانكس» وأصحاب العيون المتوحشة والمدمنة دون أن أصدق أنني أقترف ركوب مترو نيويورك منتصف الليل. جاري في المقعد شاب أنيق الملبس رقيق النظرات، أنست إليه وإلى حمايته التي عرضها وقبلتها شاكرة متظاهرة أنني

برفقته، كما قَبِلَتها جارتا المقعد: السائحة العجوز وابنتها، وقد ارتدت كل منهما مجوهرات الأسرة التي تعلن عن ثراء مفرط. سألني جاري المهذب: ألا تخافين من اللصوص والمجرمين المحيطين بنا؟ قلت: قليلاً، فأنا مفلسة ومن لا يملك لا يخشى.
تأمل جار المقعد ملابسي المتواضعة التي علمني الزمن ارتداءها في السفر وانتقل بنظراته إلى مجوهرات الثريتين، فشرحتا له بكل فخر ثمن كل تحفة منها وكررتا شكرهما لحمايته «الحريم». وغادرنا المترو قرب البارك أڤنيو وكلنا خوف من شباب العصابات المرعبين. لم يلحق بنا أحد، ولكننا قبلنا شاكرات فضل الشاب المهذب حين عرض مرافقتنا حتى الفندق للحماية. وفي دهليز المترو شبه المعتم والخاوي قال فجأة إنه يحمل مسدساً في جيبه، هدّد المرأتين به وانزوى بهما وبمجوهراتهما للسرقة صارخاً بي: غيبي عن وجهي أيتها المفلسة قبل أن أقتلك! وأطلقت ساقيّ الارتجاف للريح وقد عقدت الدهشة لساني وأنا أهرول صوب فندقي حائرة، أأضحك أم أبكي أمام هذا الأسلوب النيويوركي المبتكر للسرقة حيث الاستدراج للبوح بالثراء، والتظاهر بالحماية و «حاميها حراميها» على طريقة بعض الميليشيات اللبنانية.. وعلى الرصيف في «معبد الآلات» قرب فندقي، صف بشري قرب بائع الهامبرغر يلتهم الطعام كما تتزود السيارات بالوقود. وهربت إلى وكري في الفندق ووقودي الكوابيس!

١٩٩١/١١/٢٧

على قمة الدنيا وحيداً

في يومك الأول في نيويورك تكاد تشعر بالدوار. وكأنك خلّفت الماضي في آسيا ـ وحتى أوروبا ـ وجئت في إطلالة كئيبة على المستقبل. كل شيء هنا يهرول بسرعة خارقة التوهج. مثل قطار مسرع كالبرق وقوده البشر، لا تدري بالضبط إلى أين يمضي (وربما كان هو أيضاً لا يدري!) مدينة تنبض حيوية ولكن بالنفايات الحية. وإذا لم تهرول داخل ماكيناتها بالسرعة المناسبة طحنتك مسنناتها، وحولتك إلى حطام يُدفن في المعلبات على ألحان الأغاني الإعلانية المتلفزة التي تستقبلك على شاشة التلفزيون إذا ارتكبت خطيئة محاولة الاستماع «الفاشلة» إلى أخبار العالم الخارجي . . . تهرب بنظراتك من أحد المعابد الاستهلاكية (مخازن مايسي الشهيرة) إلى الكنيسة الصغيرة المجاورة التي تبدو كلحظة صفاء قادمة من العالم القديم صامدة إلى جانب ناطحة سحاب عملاقة. كنيسة تبدو وكأنها سقطت سهواً من دنيا الصفاء في زحام المكعبات مكيفة الهواء. . . حيث تقيم داخل مكعب، وتتأمل مكعباً صغيراً اسمه التلفزيون، وتهرول إلى العمل داخل مكعب متحرك اسمه المترو أو السيارة، لتستقر في مكعب شاهق زجاجي يدعى ناطحة سحاب مقسم إلى آلاف المكعبات كخلية نحل معدني. قلبك يتحول إلى مكعب مكيف الهواء تدور فيه المسننات والأرقام الحسابية الإلكترونية، يضخ الكوكاكولا بدل الدم، وتضع مقابلك مكعباً يدور ببطء تغطيه لوحاتك الفنية العصرية التي استبدلت الموناليزا بالدولار (الذي رسمه آندي وورهول). إنها الحضارة «التكعيبية» العبثية الجديدة التي لا يقل دورك فيها عبودية عن دور عبيد المكعبات الحجرية التي تم تشييد الأهرامات بها، وسُحق عشرات المتعبين تحت أحجارها حين سقطوا. . فاحذر من السقوط دواراً في الجادة الخامسة النيويوركية في يومك الأول. . . المهم أن تظل تهرول حتى تصل، ولكن إلى أين؟ لا تدري! ومن الأفضل أن تحسب جيداً أرقام الشوارع التي تتحرك فيها، وإلا وجدت نفسك داخل مسلسل تلفزيوني للرعب تؤدي فيه دور المسلوب أو القتيل. . فالأفلام الأميركية (التي نتوهمها رديئة لكثرة مبالغاتها) تدور بالفعل في بعض الشوارع ليل نهار. . «فحذار!» يقولها لك سائق التاكسي وهو ينزلك في ساحة «التايمز سكوير» أو قرب «ماديسون غاردن» ويشيعك بنظراته حتى قبرك على الرصيف، حيث جلس على

الأرض عشرات الهامشيين وأنشبوا نظراتهم في ثيابك النظيفة، وحقيبة يدك، وشرايينك غير الملوثة بالهيرويين، ودمك الخالي من الايدز! . . تدخل هارباً إلى أول مطعم: المطعم معمل، وأنت معدة ذات رقم!

★ ★ ★

هذا الشعور بهشاشة الأرض تحت قدميك، أو بالأحرى بهشاشة قدميك أيضاً مع حسك بالدوار، يفارقك تدريجياً حينما تتعرف إلى نيويورك شيئاً فشيئاً وترى وجهها الإنساني المتمثل في متاحفها المزدحمة بكنوز العطاء، ومعاهدها العلمية الرفيعة، وجامعاتها (جامعة كولومبيا مثلاً)، ومكتباتها العامة الزاخرة بالثراء الفكري، ومسارحها ومراكزها الثقافية وسواها. بل إن نيويورك تكاد تبدو لك مدينة رومانسية إذا ركبت العربة التي تجرها الأحصنة في «السنترال بارك» وتكاد لا تصدق أن هذه الحديقة ذاتها التي تغص بالمتنزهين والحياة البريئة المعافاة هي نفسها التي تقرأ أخبارها في الصحف وترى قتلاها ونساءها المغتصبات في السينما وأنت مذعور. . . وحين ينزلك الحوذي أمام أحد مطاعم الحديقة، وتجلس بين الخمائل لتتناول طعامك، تكاد تتوهم أنك في حديقة وديعة قروية، وتزيد في هذا الشعور الدبابير والنحل و«الزلاقط» التي تحوم حول طعامك بأزيزها ونشيدها الأليف. . . وتتذكر لبنان فجأة بغصّة. تتذكر كيف كانوا يعلقون قطعة من اللحم في طرف المطعم ـ الحديقة كي تذهب الدبابير (وأخواتها) إليها وتدعك وشأنك تستمتع بطعامك. . . (ما أذكاهم وأحذقهم في لبنان. لقد دمروا وطنهم بكل الذكاء الذي أسبغه الله عليهم!) . . . وتعود بأفكارك إلى نيويورك من سحابة الحزن اللبنانية. دوماً تسرقك بيروت من حيث أنت كحب يستحيل تحقيقه أو الشفاء منه!

★ ★ ★

بعد الأيام الأولى تبدو لك حتى ناطحات السحاب في نيويورك أقل بشاعة مما بدت لك للوهلة الأولى. فهي تبذل كل ما بوسعها لتكسر قسوة الاسمنت والزجاج. . تقدم لك حدائق معلقة في «ترامب تاور». . وشلالات مياه في ناطحة سحاب أخرى. . وحديقة شتوية رائعة النخيل تحت قبة شفافة زجاجية على ضفة «الإيست ريفر»، وترشوك بالتماثيل الجميلة. . وها هو هنري مور وقد نصب أحد أعماله البديعة أمام مبنى «لينكولن سنتر». وها أنت جالس في المقهى البديع في «روكفلر سنتر» تحت أنظار تمثال ذهبي جميل لبروميثيوس سارق النار. . . وخرير المياه في البركة تحته يكاد يصم أذنيك عن هدير السيارات المدوي كالدوامة بين ناطحات السحاب. . بل إنك تصير قادراً على أن تتذكر بعض النكات والطرائف، منها نكتة عن روكفلر نفسه الذي تجلس في مقهى

مبناه. استقل يومها روكفلر العصامي مصعد مبناه، ولم يدفع لصبي المصعد «إكرامية» أكثر من دولار واحد كعادته. وضاق الصبي ذرعاً ببخله فقال له: ابنك يدفع لي كل مرة عشرة دولارات لا دولاراً واحداً مثلك. فأجابه: من الطبيعي أن يجزل لك ابني العطاء، فهو ابن روكفلر. ولكن أنا ابن مَنْ لأعطيك مثله؟..

تمشي في أزقة «غرينتش فيلاج» الرومانسية حول جامعة نيويورك وسط قبيلة غجرية من التلامذة والأدباء والرسامين والمشردين في وهج المعرفة، وحولك أميال من الكتب (كما تُدعى إحدى المكتبات) ومبانٍ وديعة تكاد تكون محافظة لولا ملهى هنا وحانة هناك... تتسكع في حي «نيو إيتالي» وتتوهم أنك في تراستيفيري روما... تذهب إلى الحي الصيني وتجد نفسك في مزيج من هونغ كونغ وبكين... تكتشف شيئاً فشيئاً أن نيويورك لا تضم مبنى الأمم المتحدة وحده، بل إنها تكاد تكون كلها مدناً متحدة وأمماً متحدة متعايشة تتشاجر، تتعانق، تتأجج حياة بكل ما في الحياة من سمو وسقطات.. تعي أنك خفت من نيويورك للوهلة الأولى لأنها تعكس القلب البشري المعاصر كما هو، بعظمته وحقارته.. فنيويورك هي البركة العصرية التي يرى فيها نرسيس عصر الذرة وجهه، فما ذنب المرآة إذا كان الوجه مثقلاً بتجاعيد الشهوة والعنف والدمار الذاتي؟

★ ★ ★

المدن كلها جميلة حين تطل عليها من الطائرة ليلاً.. ونيويورك تدرك هذه الحقيقة، وتجعلك تراها من أجمل زواياها وأكثرها رومانسية، كجبل من المجوهرات يتوهج بالضوء والألوان، وأنت تطل عليه من بعيد... وهكذا تنتابك رعشة الجمال حين تسهر في أحد مطاعمها على سطح ناطحة سحاب ما، وتدور بك أرض المطعم ببطء وأنت تتناول عشاءك والقمر قريب على مرمى يدك، تطفىء لفافتك فيه، وترى ناطحات السحاب وقد تحولت إلى مجوهرات مشعة على جيد الليل.. وتكاد تخنقك لحظة البهاء التي تعيشها في الجنائن المعلقة في الطابق ١٠٦ من إحدى ناطحات السحاب وأنت تشرب قهوتك وتتأمل نيويورك وديعة وجميلة وبريئة كأنما من نافذة طائرة هليكوبتر. وتكاد تقرر أن ناطحات سحابها جميلة، وأنها «كارثة معمارية رائعة» (على حد تعبير لوكوربوزييه، المهندس الفرنسي الشهير)، خصوصاً حينما تتأملها فجراً عبر الشبكة العنكبوتية المعدنية لجسر بروكلين، أو من قارب يمخر نهر الهدسون صوب «جزرها» العديدة الجذابة. ولكن الإقامة على قمة نيويورك متعة لا تتوفر لغير أصحاب الملايين أمثال بالوما ابنة بيكاسو وسواها من أصحاب الشقق العالية المشرفة على مناظر نيويوركية تخطف القلب.. الفقر ليس الغصة الوحيدة في نيويورك، وثمة شعور مروع بالوحشة

يتفجر من أعماق الروح أمام جمالها أكثر مما ينزف أمام قسوتها. . شعور يفترسك وأنت سعيد في مقهى ناطحة السحاب، إذ تعي فجأة أنك تجلس على قمة الدنيا ولكنك تجلس وحيداً. . . إنها الوحشة في المدن الكبيرة المهرولة بأقدام كينغ كونغ فوق الجميع: غنيّهم وفقيرهم.

١٩٩١/١٢/٢

عبيد نيويورك

تخوض فنادق نيويورك «حرب اللطف» فيما بينها لخدمة ضيوف المدينة، ولكن تلك الهدايا الإضافية تأتي على صورة العصر ومثاله: إلكترونية ميكانيكية تزيد الحس بالوحشة لدى السائح «الشاعري»، ولعلها تفرح رجل الأعمال، فهذا العصر عصره، ولا مكان للشعر في عالم الفنادق المكهربة. .

هذا فندق يبشرك أن بوسعك مراجعة فاتورة إقامتك كل لحظة عن طريق تلفزيونك الخاص في الغرفة دون الحاجة إلى الكلام مع موظفي المحاسبة. كل ما عليك أن تفعله هو أن تضغط أزرار «التيليكوموند» أي جهاز التشغيل بعيد المدى على أرقام قناة معينة، فتتحول شاشة التلفزيون إلى شاشة كمبيوتر موصولة مباشرة بقلب المحاسبة النابض أرقاماً. أما موظفة الفندق التي طلبت منها أن تحجز لك في المسرح، فتترك لك رسالتها على كومبيوترك الخاص أيضاً «تكريساً للتواصل» مع العالم الخارجي عبر الأسلاك فقط. وقريباً لن يكون بوسع المرء أن يتحاور مع أي مخلوق في الفندق. سيدس بطاقة الائتمان في ثقب داخل آلة كان اسمها رجل الاستقبال، فتبصق في وجهه البطاقة الممغنطة للغرفة ورقمها، وعبر الكمبيوتر يتم الحوار مع بقية «الماكينات» المسؤولة. وقبل سفر الزبون سيأتي الرجل الآلي ليحمل له حقيبته إلى المصعد الذي يهبط به داخل حافلة (شاطل) تقوده إلى المطار أو المحطة، مع بقية السلع البشرية والبضائع الأخرى التجارية!

وهذا فندق آخر يقدم لك خدمة آلية أخرى وهي تسجيل المخابرات التي ترد في غيابك ويترك أصحابها لك رسالة. ستجد التسجيل جاهزاً في غرفتك، فتتنصت إليه ووداعاً لفتاة الهاتف والاستقبال والمحاسبة وبقية الفصائل البشرية المنقرضة، فاهتمامنا العصري مكرس للحيلولة دون انقراض الجرذ البري المرقط واللقلق المورّد والحرذون العملاق والفقمة!! الفندق يتعهد بمسح التسجيل بعد أن تستمع إليه، أو بتسليمك نسخة عنه إذا أحببت. وهو أمر سيسعد به رجال الأعمال ووداعاً أيتها المخابرات الهاتفية الهامسة المكهربة بالأشواق المستحيلة، إذ كيف يتحاور عاشقان وهما يعرفان أن الماكينات تحصي عليهما أنفاسهما؟!

الطائرات دخلت في المنافسة العصرية. وفي الطريق إلى نيويورك لاحظت الشق الجديد في ظهر المقعد أمامي، المعد لابتلاع بطاقة الائتمان مقابل جهاز هاتفي يخرج إليك وتكلم به من تشاء وتقسم للحبيبة أنك تخاطبها من ارتفاع آلاف الأقدام طائراً فوق السحاب ـ دون أن تكذب ـ وأن صوتها يجعلك تحلّق. . ولكن، مع تزايد اختراعات الاتصال يذوي الشوق إلى التواصل العاطفي في عصرنا البعيد عن أنواع الهمس كلها الآتية من الأعماق. . . وحتى اختراع الفيزيوفون (أي التلفون الناقل للصورة) الذي بدأ أحد فنادق نيويورك الفخمة باستخدامه، سيتم تكريسه لتحديق رجال الأعمال في عيون بعضهم بعضاً أثناء الحوار الهاتفي عن الصفقات «البوكرية» مثل ذئبين التقيا في الغابة المعاصرة! والفارق بين اللقاءين ليس كبيراً بالمعنى الجوهري للكلمة، لأن الديكور وحده تبدل فصار اللقاء لظلين على سلكين، وبقيت غريزة الصيد والافتراس!



مقابل هذا التطور التكنولوجي المذهل والمنهك لمواطنة من العالم الثالث تشعر بالحسد والرفض في آن، لا يزال المناخ الأميركي العام يمارس أخلاقيات الرياء المتوارثة «البيوريتانية» المتزمتة مع رجاله الذين يتقلدون مناصب عامة. من الطبيعي أن يرفض أي ناخب «مسؤولاً» سياسياً غير مسؤول عن حواسه، ويتعاطى المخدرات وأخواتها، ولكن الغريب أن هذا المجتمع المتطور الذي وصل إلى القمر لا يزال ينصب محاكم التفتيش داخل غرف نوم مرشحيه ورجاله وهم في ملابسهم الداخلية والملابس الداخلية للقريبين منهم. فإذا زلت القدم بالزوجة يدفع الزوج السياسي الثمن ـ وهنا المهزلة ـ وتتحول العلاقات العائلية أحياناً إلى ورقة ابتزاز اجتماعي في يد أحد الطرفين. بهذا المعنى يبدو المجتمع الفرنسي ـ رغم تخلفه التكنولوجي عن أميركا البيوريتانية ـ أكثر رقياً منها. واضرب مثالاً بحكاية السياسي الفرنسي جان ماري لوبان الذي أرادت مطلقته ووالدة بناته الانتقام منه وإيذاءه سياسياً فتركت إحدى المجلات تلتقط لها الصور عارية. وهو أمر كان سيدمر أي زعيم أميركي. أما في فرنسا فلم تدمر الزوجة إلا نفسها، وأساءت إلى سمعتها وحدها من دون بناتها وزوجها الذي لم يهتز مستقبله السياسي، بل على العكس، تسبب الأمر في تعاطف الناس معه! أما رئيس الوزراء الفرنسي السابق ميشيل روكار، فقد أعلن في حوار صحافي انفصاله عن زوجته الثانية تمهيداً للطلاق الثاني، فقدَّر الفرنسيون بُعده عن أخلاق الرياء، ولم يتم إعدامه سياسياً على الطريقة الأميركية. وبهذا المعنى يبدو مزاج «الناخب» الأميركي أقرب إلى مزاج الفرد العربي في قضايا «العرض السياسي» منه إلى الأوروبي!

ولكن نيويورك تمتاز على باريس بنقطة طريفة هي عدم ترك الحبل على غاربه للكلاب، وتمتلىء شوارعها بلافتات ترغم صاحب الكلب على تنظيف فضلات «مدلله» عن الأرصفة وذلك تحت طائلة غرامة مقدارها ١٠٠ دولار. أما في باريس فالكلاب المدللة تسرح وتمرح وتترك فضلاتها حيث يحلو لها ولا يجرؤ السائح على رفع رأسه صوب برج إيفل أو قوس النصر أو القمر فوق قمة الإنفاليد المذهبة خوفاً من حدوث ما لا تحمد عقباه حين يدوس المتنزه «تواقيع» الكلاب في الشوارع وقرفها!...

★ ★ ★

نيويورك مدينة الخوف اللذيذ والقسوة الشهية والمزيج النادر من العالم الثالث وعصر الفضاء تتمتع بسطوة لدى عشاقها من الأدباء والفنانين، ولا شيء يقف بوجه هوسهم بها. ماكنات أم لا. تكنولوجيا وناطحات سحاب وجرائم أم لا. زعيق سيارات الشرطة والحريق أم لا. صبية يحملون رشاشات «عوزي» الإسرائيلية في شوارع البرونكس أم لا.. أزقة وخرائب نيويوركية تلمح فيها نهاية العالم بين القتلة وتجار المخدرات أم لا. صراع تراه على الطبيعة بين البوليس والأشرار كأنك دخلت بلاتوه التصوير لفيلم هوليوودي أم لا. صبية يذهبون إلى المدرسة مسلحين أم لا... عشاق نيويورك يحبونها كما هي، بل لأنها كذلك، وهي تزهو بفصيلة من الطيور النادرة التي تحبها هي الأدباء والفنانون المزاجيون. ووسط هذا المنجم النادر للطبيعة البشرية العارية بكل مثالبها ومزاياها، وكل حقاراتها وجمالياتها، لا يملك بعض الفنانين إلا الغرف من منجمها والالتصاق بها. في حي «سوهو» النيويوركي أو في «الهايد بارك» الأميركية حيث البيت الأبيض الصيفي للرئيس روزفلت (في إحدى ضواحي نيويورك) يعشقونها. في بيوت تتدلى منها سلالم الحريق المعدنية الشهيرة أو على رصيف «التايمز سكوير» حيث يجلس السائح ليرسمه فنانون منسيون.. في برودواي المسرح والمجد وفقر الكواليس الخلفية أو أمام «غرافيتي» المترو أو في الجنائن المعلقة على سطوح ناطحات السحاب أو في المقاهي الشبيهة بالآبار بين ناطحات السحاب ولكن على الرصيف... في كوني ايلند التي وصفها نجم الروك لوريد بقوله: «مكان هزلي. شيء يشبه السيرك أو المجارير»، أو في ظل التماثيل على أبواب ناطحات السحاب حيث يتناول الموظفون الصغار والسواح البسطاء والفنانون طعامهم وهم جلوس على سلالمها قرب البرك البخيلة.. في الشارع الصارم وول ستريت، والشارع المائي الجميل أمام «الورلد فاينانشال سنتر» حيث تحس نيويورك جزيرة، أو في جزرها الحقيقية كستاتن ايلند وبيدلوز ايلند (الحرية). فنيويورك، الكارثة الرائعة، مغناطيس يجذب الفنان إليه ليعيش رعشة العطاء في كل

لحظة في أكثر مدن العالم الجديد جنوناً برأي بيير لافوريه.

★ ★ ★

ومن الصعب أن يمر بهذه المدينة فنان معاصر دون أن يشتهي الإقامة فيها لفترة، يطلع خلالها على كنوزها الفنية والعلمية ويغرف من منجمها الإنساني النادر حيث تتعرى الطبيعة البشرية. وهكذا فعبيد نيويورك فئة تضم الكثيرين من عشاق الحرية ومدمني الحرف والريشة.. وقد ضخت نيويورك الكثير من دم الإبداع في عروق الفنانين والأدباء الشهيرين.. ومن مبدعيها الشبان «نسبياً» جيروم شارن الذي كرس رواياته (١٨ رواية) للحديث عن نيويورك الأحياء المعذبة كالبرونكس والهارلم والتايمز سكوير، والكاتبة فرانسين دي بليسكس فراي التي تتحدث عن أحياء نيويوركية أقل بؤساً في أعمال لا تقل عمقاً، وتاما جانويتز في رواية **عبيد نيويورك**، وبول أوستر في **مدينة الزجاج** وهي ثلاثية مكرسة لنيويورك.. لقد عشق العديد من الكتّاب العرب بيروت وازداد نهمهم للكتابة عنها خلال حربها المتوحشة التي عرَّت الأشياء كلها من الأقنعة، فكيف لا يعشق الأدباء الكتابة عن مدينة تعيش في كل لحظة حرباً مع الماضي والحاضر لحساب المستقبل، ولكن، أي مستقبل؟ هذا هو السؤال الذي يطرحه الفنانون الذين تصعب رشوتهم ببركات الحضارة الاستهلاكية الآلية حتى ولو جاءت باسم الحرية.. أية حرية؟

١٩٩١/١٢/١٢

يا لها من رجل قوي!

النصحية الأولى النيويوركية لكل سائح فضولي: حذار من متعة التسكع على غير هدى. فقد تجد نفسك فجأة في زقاق عدواني من تلك التي تراها في المسلسلات البوليسية الأميركية العنيفة، ويحدث لك ما لا تحمد عقباه! تتذكر هذه النصيحة إذا كنت قد وقعت ضحية لمحتال باعك في باريس رحلة سياحية من نيويورك إلى كاليفورنيا، وأنكرته المكاتب النيويوركية وها أنت في طريقك إلى العنوان الغامض المفترض لوكالته لتطالب بمالك!

وهكذا بدأت يومي بزيارة إلى صديقتي الصحافية الأميركية التي تعمل في مجلة نسائية طلباً لمساعدتها. جلست أنتظرها في قاعة الانتظار وأقلب كوماً من المجلات النسائية المحلية. يغمرك انطباع طاغ: المجلة «النسائية» الأميركية عامة تعي جيداً «نسويتها»، وليست مجرد مجلة اجتماعية ملونة غير سياسية، بل ذات «رؤية» قد نتفق معها أو نختلف، لكننا مضطرون للاعتراف بتميزها واختلافها ومساهمتها في بناء امرأة «جديدة» على مشارف القرن الحادي والعشرين.

هذه مجلة اسمها **امرأة جديدة** مثلاً تصدر في نيويورك ـ مانهاتن الفخمة، من «لاكسنغتون أڤنيو» المجاور للفيفث أڤنيو الشهير. لكنها ليست مجلة «مبرجزة» بقدر ما هي «نسوية» أولاً. إنها مثلاً لم تلغ بند الطبخ، لكنها قامت بتعديل أساسي عليه انطلاقاً من «الرؤية» المعاصرة للمرأة، وهكذا فكل الأطباق يمكن إعدادها في أقل من نصف ساعة، آخذة بعين الاعتبار الوقت الضيق للمرأة العاملة، «المرأة الجديدة»، وإمكانياتها المادية المحدودة.

★ ★ ★

«الرجال أقوياء ومستقلون. النساء سلبيات واتكاليات» ـ برأي الممثلة الأميركية الشابة الين باركن.

«ليس بالإمكان أن توجد باسكال أنثى، أو ملتون أنثى أو كانط. ولو تركت الحضارة في أيدي النساء لكنا لا نزال نعيش في أكواخ القش». . برأي الكاتبة كاميل باغليا.

كلام كهذا تستطيع أية امرأة عربية أن تقوله دون أن تثير الكثير من الالتفات. أما في U.S.A فإن كلاماً كهذا لا يمكن أن يمر دون «عقاب» للخائنة من المؤسسات النسوية القوية والتي لا يقتصر دورها هناك على إقامة الحفلات الخيرية برعاية الذكور ضمن الأطر القائمة للمجتمع مقابل بعض الوجاهة «الحريمية» والألقاب، بل يتعداه إلى لعب دور توعية أساسيٍ بل وسياسي، استطاع أن ينتزع من الرئيس كلينتون تعيينات «نسوية». وها نحن مثلاً في U.S.A أمام سفيرة لدى الأمم المتحدة ووزيـرتين للطاقـة والصحة ورئيسة لجهاز المستشارين الاقتصاديين ومديرة وكالة حماية البيئة.. إلى آخره.

المجلات النسوية التي كنت أقوم بتقليبها بانتظار انتهاء صديقتي من عملها تواكب هذه الاستراتيجية بوعي. والتضامن النسوي يقطر من كل حرف، حيث يتم احتضان أصوات «المرأة الجديدة» لرجال ولنساء، وهي أصوات تركز على تجاوز مكرّسات كثيرة كذعر المرأة من التقدم في العمر مثلاً، وعدم ثقتها بكفاءتها في العمل وغير ذلك.. وهو تضامن نسوي واع نكاد لا نجد له أثراً في بلاد العالم الثالث حيث استطاعت المـرأة الوصول إلى الحكم ولكن على طريقـة ظل الـرجل أو وارثتـه كما في الهنـد والفيليبين وبنغلاديش والباكستان وسواها.

★ ★ ★

«أعتقد أن المرأة تبلغ قمـة جاذبيتهـا في الأربعينات من عمـرها».. هـذا قول للممثلة الجميلة سوزان انتون لم يكن سماعه ممكناً قبل ربع قرن، حين كان من المستحيل أن تتجاوز أية امرأة الأربعين علنـاً!.. وهكذا فـإن قولاً لإليـزابيث تايلور: «أنـا في الستين.. كم هذا رائع!» يغطي معظم عناوين المجلات النسائية للسنة المـاضية إلى جانب صور جين فوندا وهي تتابع تعليم الرشاقة للصبايا معلنة بفخر أنها تناهز الخامسة والخمسين من العمر، تنافسها صور جوان كولينز مع خطيبها الجديد الذي يصغرها بربع قرن، وتسبقها صور بربارا سترايسند التي احتفلت بعيد ميلادها الخمسـين بكثير من الأبهة وإلى جانبها خطيب في سن أولادها، وهو منظر ألفناه حين يكون الرجل هو الأكبر سناً. ولكن، من قال إن «تورط» المرأة في علاقة مع شاب في سن ابنها يعني بالضرورة أنها «متحررة»؟ والسؤال هو باستمرار: التحرر من ماذا؟ من العقـل؟ والتشبه بمن: بالخطأ الذكوري؟

أشعر بالرفض مثلاً وأنا أتأمل صور «الكاباريهات» النسويـة النيويـوركية حيث يلعب «الذكر» دور الدمية بدلاً من المرأة.

كنسوية من العالم الثالث لا أرى أن المطلوب المساواة في الأخطاء. ولا ثأر تاريخياً

عندي كعربية ضد الرجل، بل رؤية مستقبلية لمجتمع أقل بؤساً للطرفين. وكامرأة حملت وأنجبت (ولم يفعل زوجي ذلك!) أعرف أن التكامل هو المطلوب أولاً لا التماثل.

★ ★ ★

ثمة نواحٍ مشرقة في نسوية المرأة الأميركية ذات جذور تاريخية في صراعها مع الوجود لبناء الوطن، وثمة نواحٍ أخرى أجدها بحاجة إلى نقاش كنسوية معتدلة من العالم الثالث. هكذا بدأت حواري مع صديقتي الأميركية في التاكسي الذي يقلّنا إلى العنوان الغامض. لم تجب كأنها تختزن قواها لمجابهة من نمط آخر. أتأملها. قامتها التي صقلتها الرياضة تبدو لي ـ كأنثى شرقية ـ على شيء من «الاسترجال» ولكن على كثير من العافية. قلت لها ذلك فأفهمتني أنها تمارس الكاراتيه وحمل الأثقال في النوادي الخاصة الكثيرة هنا.

هبطنا من التاكسي، وبنظرة واحدة شعرت بالذعر من الزقاق الشبيه بتلك الأزقة التي تقع فيها الجرائم المروعة في المسلسلات البوليسية. خنقني الذعر قبل أن أنادي التاكسي علّه ينتظرنا لنعود معه ولكن غيّبه المنعطف المزروع بسلالم الحريق السود والعلب المعدنية للقمامة والفئران العملاقة على نافذة البيت المهجور المغبر الذي يفترض أنه عنوان وكالة السفر وعليه لافتة تقول: برسم الهدم!

قالت صديقتي: لقد وقعتِ ضحية محتال فرنسي، وعليك بملاحقته حين تعودين إلى باريس!... بالي مشغول بملاحقة أخرى! عملاق يحوم حولنا بأساوره الجلدية وثيابه المزينة بالمسامير وشارات الموت. كان قلبي يقرع بذعر حين شاهدته يتقدم منا بسكينه مهدداً طالباً نقودنا ومعطفي. وبسرعة البرق، بعدة ضربات كاراتيه جندلته رفيقتي «المسترجلة»! ويا لها من رجل قوي وشاب مقاتل يحميني!.. إن تبدل مفاهيم الأنوثة والجمال النسوي في وطن الحيوية أعجبني، كما بهرتني قوة الحركة النسوية وتضامنها النسبي ووعيها لجرحها وانفتاحها على نسويات العالم كله.

شعرت أنني ألمح في زميلتي الأميركية أحد وجوه «المرأة الجديدة» المعاصرة والمستقبلية على أرض الممارسة. فالأهم من المظاهر الاستعراضية الإعلامية الكثيرة للتحرر هي تلك الثقة بالنفس التي تنبع من عين المرأة الأميركية العادية في الريف والقرى النائية أيضاً لا في مانهاتن وحدها.. كأنها تقف على أرض صلبة ولا تتأرجح في زلزال مثلنا.. ومشيت إلى جانب صديقتي صوب المترو وأنا أحتمي بها(!) وأغار من قوتها وعضلاتها مرحبة بـ«الاسترجال» شرط أن نعرف متى وأين نمارسه! ووعيت أن جسدها القوي المفتول ليس أكثر من التعبير الخارجي عن روح قررت أن تجد لنفسها مكاناً تحت الشمس.

١٩٩٣/١/٣

غزوات على الشقراوات

لولا الماء لبدت نيويورك أحياناً صحراء من الاختناق والتوتر والهرولة والتعقيد والشراسة. . . الماء الذي يحيط بمانهاتن يرطّب قلوب الجميع، لا رعايا بردى والفرات والنيل وبحر بيروت وجدة (إلى آخره) وحدهم. وبدلاً من اللجوء إلى أريكة الطبيب النفساني لا بأس من اللجوء إلى حمى الماء.

وهكذا تجد نفسك من وقت إلى آخر هارباً من زعيق سيارات البوليس والاسعاف (موسيقى نيويورك!) إلى الأماكن المائية الحنون حيث الهدوء على الشاطىء أو سيمفونية خرير المياه في المقاهي، أو في جلسة على الرصيف أمام ناطحات سحاب عملاقة يعتذر إسمنتها من الجمال بتقديم فروض الماء في برك واسعة ونوافير بديعة الأشكال. التوتر بجرعات يومية كبيرة يجعلك تنسحب للحظة من سباق الفئران في المدينة التي يركض الناس المعدنيون فيها «بزمبركات» كالدمى، وتلتصق بالجانب المائي منها، وتغمض عينيك منصتاً إلى سيمفونية الخرير الأندلسية كأنك تسعى بين جنة العريف في قصر الحمراء وجنان الشام ولبنان. في المدن العصرية المجنونة لا مفر من إتقان لعبة الخيال للهرب بالأعصاب إلى ثلاجة السكينة بين آن وآخر.

في مقهى «أميركان فستيڤال» الذي يقع في إحدى ناطحات سحاب روكفلر، كان الملجأ الذي اخترعته بعدما عمدته باسم حركي بلدي هو «قهوة النوافير». أما مخدري اليومي للهرب فهو شرب القهوة على الطاولة الملاصقة للبركة والنوافير والشلالات التي يتجنبها الناس عادة لأنها ترشهم برذاذ الماء المنعش! أتأمل مهرجان الحياة النيويوركية الأكثر توحشاً وتوتراً منه في بقية العواصم الكبيرة الغربية وفكرة المقهى ملغاة تقريباً في مانهاتن لأن الكومبيوتر قرر أن ما يدفعه الزبون لقاء الجلوس نصف ساعة لشرب فنجان قهوة في متر مربع من أرض مانهاتن لهو مبلغ تافه، وبالتالي عليك بتناول الغداء أو العشاء ولتذهب الصلات الإنسانية إلى مدن أخرى أما القهوة فتشربها واقفاً أو شبه جالس فوق مقاعد رمزية بلا مساند ولا تتسع لمؤخرة طفل! بوسعك الاحتيال طبعاً مثلي: تطلب سندويشاً وفنجان قهوة وتستمتع بقهوتك ثم تحمل السندويش معك للغداء فيما بعد! خطفني من مباهجي المائية مشهد طريف: عاملة مقهى، «جرسونة» باهرة الحسن طويلة

القامة والشعر الأشقر، وقد أحاط بها أربعة شبان من السياح اليابانيين يريدون التقاط الصور معها!

أجـزل لها أحـدهم العطاء خلسـة، فأخفت الـدولارات في جيب «مـريـولهـا» وتوسطتهم بجمالها الباهر وقد تحلقوا حولها وكل منهم يريد أن يحيط خصرها بـذراعه بدوره، بينما وقفت السكرتيرة التي ترافقهم تلتقط لهم الصور التذكارية ثم لتُؤخَذ لها صورة مع كلٍ منهم على حدة! . . .

وتخيلت سيناريو الحكايا التي سيرويها كل منهم لأصدقائه عن صلته بتلك المخلوقة الفضائية الجميلة! . . . واكتشفت صلة بين الشعبين الياباني والعربي لم تخطر لي من قبل ببال، ونقاط تشابه من حيث «الغزو الثقافي» للشقراوات الغربيات، إذ حين جـاءت الجرسونة الحسناء فيما بعد حاملة قهوتي واستجوبتها، أسرت لي بأنها تربح من الصور مع بعض اليابانيين والعرب بما يوازي راتبها! ولا يهمها وخـطيبها مـا قد يـرويه الشبـان اليابانيون والعرب عن مغامراتهم «المزعومة» معها حين يتباهون بغزواتهم.

ويدخل إلى المقهى شاب عربي السمات، بالغ الوسامة، ترافقه حسناء أميركيـة شاهقة القامة شقراء ويبدو فخوراً باستحواذه عليها. ولم لا؟ المهم أن لا يكـون هذا وحده ردنا على تحدي العصر!

غزو الشقراوات لا اعتراض عليه ما دام لا اعتراض لديهن، ولكن أهل اليابان قدموا منجزات وردوداً حضارية أخرى مهمة على تحدي العصر «الأميركي» لهم، فماذا عنا نحن؟ أهذه هي انتصاراتنا «التعويضية»؟

١٩٩٤/٧/٢٨

ألو داڤيد

لأن الهاتف في «الشقة» التي أعارتني إياها صديقتي في نيويورك مقطوع، اشتريت بطاقة هاتفية وهبطت إلى الشارع للاتصال بزميلي الأستاذ داڤيد بيشاي والاطمئنان على سلامة وصول «لحظة حرية»(*) بالبريد. في نيويورك لا توجد «غرفة هاتف»، بل مجرد تلفونات معلقة على حافة الرصيف وسط زحام السير الخرافي والضجيج الجهنمي.

في باريس، البطاقة الهاتفية تبيعك إياها دائرة رسمية هي البريد، وتدخلها في ثقب خاص في آلة الهاتف العمومية بدلاً من إرباكك بالقطع المعدنية النقدية.

وكنت أجهل أن الحال في نيويورك فوضى، والبطاقات تبيعها شركات خاصة معظمها محتال. وحين لم أجد ثقباً خاصاً بالبطاقة في آلة الهاتف على ناصية الشارع قرأت المكتوب عليها ونفذت الأوامر: اتصلت أولاً برقم هاتفي من تسعة أعداد (أي أدرت قرص الهاتف تسع دورات وبالأحرى تسع ضغطات على أزراره). أجابني صوت مسجل طلب مني إدارة القرص على رقم بطاقتي وكانت من عشرة أعداد!... وبعدها جاء صوت مسجل آخر قال لي إن رصيدي في البطاقة خمسة عشر دولاراً (وكنت قد دفعت ثمنها ضعف هذا المبلغ). وضغطت على أزرار الهاتف رقم **الحوادث** مع الرمز الهاتفي للندن أي ١١ مرة. وبعد ما مجموعه ٣٠ ضغطة أو ٣٠ دورة بهاتف ذي قرص جاءني صوت مسجل يقول لي إن المخابرة مستحيلة لأن بطاقتي ملغاة!... وأمام هذه الأحجية اتصلت هاتفياً برقم على البطاقة للشكوى فأجابني تسجيل آخر يقول إن عليّ أن أدفع قطعة نقدية لهذه المخابرة! ولم تكن معي قطعة كهذه وهرولت بحثاً عن واحدة في مدينة لا يرضى أحد بإعطائك فيها أي شيء مجاناً حتى الـ «فكة»، فاضطررت لشرب فنجان قهوة حتى استطعت الحصول على بعض القطع النقدية المعدنية قبل إغلاق أبواب مكاتب **الحوادث** (بعد حساب فارق التوقيت بين القارتين). وأخيراً ردت عليّ المشكو إليها - بعدما استمعت إلى تسجيل موسيقيّ إرغامي من الجاز والراب لربع ساعة خلال الانتظار! - واستمعت إلى شكواي كلها ثم قالت إن القضية ليست من اختصاصها!

(*) الزاوية الأسبوعية التي أكتبها في مجلة الحوادث.

وأحالتني على رقم هاتفي آخر وكانت قطعي المعدنية قد نفدت، فذهبت وشربت فنجان قهوة ثانياً وعدت إلى الناصية ووقفت في صف طويل ريثما جاء دوري للاستحواذ على الهاتف. وطلبت الرقم وشرحت حالي من جديدة ـ بعد الاستماع من جديد إلى الموسيقى المسجلة لأوبرا من فاغنر هذه المرة! ـ فقالت لي العاملة إن بطاقتي غير صالحة للاستعمال في رأي الكومبيوتر «المعطل؟» وأقسمت لها أنني اشتريتها من سطح «الامباير ستيت» قبل ساعة ولم أستعملها قبل الآن، فقالت بلامبالاة إنها ستفتح تحقيقاً في القضية. وطلبت مني ـ أو من محاميّ! ـ كتابة تقرير حول الحادثة!!. . . ومزقت البطاقة وأعصابي تتمزق غيظاً أمام هذا الاحتيال أو العطل الفني الكومبيوتري والتعقيد التكنولوجي المرهق وذهبت إلى الفندق المجاور لاستئجار غرفة أجري منها مكالمتي الهاتفية مع مكاتب الحوادث لأقول فقط «ألو دافيد» صباح أو مساء الخير هل وصلت «المواد»؟ لكن الفندق رفضني طالباً بطاقة ائتمان! وبعد أخذ ورد دفعت أجرة الغرفة مقدماً مع ١٠٠ دولار تأمين للسماح لي باستخدام هاتف الغرفة. وأخيراً استطعت أن أقول «ألو دافيد» بأعصاب لاكتها أسنان نيويورك. وجاءني صوت زميلي هادئاً خفيف الظل بلهجته المصرية: آ. . . المواد وصلت من زمان ياختي. . . وقلت له: يا بختي!. .

وانتقلت من الشقة إلى فندق كي لا تودي بي محاولة اجراء مخابرة هاتفية أخرى إلى أريكة طبيب نفساني نيويوركي نصف مجنون يداوي الناس وهو عليل، فالمدينة بأكملها هي المريضة ومن علامات العافية فيها أن تعلن أعصابك العصيان بين آن وآخر هاربة قدر الإمكان من التعقيد الخانق الكابوسي في نيويورك.

١٩٩٤/٧/٢٩

نيويورك: عاصمة الخوف!

حينما تهبط إلى المترو النيويوركي الذي لا يتوقف لحظة واحدة عن الركض ليل نهار ـ خلافاً لقطار الأنفاق في لندن وباريس ـ يذكّرك معظم ما حولك بالأفلام البوليسية المرعبة التي سبق وشاهدتها وكان المترو النيويوركي مسرحاً لها. لكنك ستفتقد «الأبطال» الذين يتدخلون في السينما والمسلسلات البوليسية لإنقاذ الضحية. وعلى الرصيف أمامك ينتزع أحدهم حقيبة يد رجل مرتب الهندام ويضربه بها على رأسه قبل أن ينطلق هارباً، ويتظاهر الآخرون بأنهم لم يروا شيئاً. ويبدو الأمر شبيهاً بكابوس غير حقيقي حتى يصطدم بك السارق في غمرة هربه فتصدق أن ذلك يحدث أمامك حقاً.

وحينما تغادر المترو إلى الشارع المزدحم في طريقك إلى اكتشاف حديقة الهايد بارك النيويوركية (أي سنترال بارك) يداهمك خاطر نهاري كابوسي بأن بوسع أي مدمن أن يهاجمك في الشارع على مرأى من الجميع ويسرقك ويؤذيك دون أن يتوقف أي مخلوق لمساعدتك.

إنه الزحام، ولا أحد! تعاتب نفسك على السقوط فريسة لنظرة الأبيض والأسود وليس المقصود لون البشرة، بالرغم من انتمائك إلى «الأقلية البيضاء» هنا، بل المقصود تلك الرؤية التي تسطّح الأشياء وتلخصها تحت عبارات متناقضة، فإما مرعب أو آمن، طيب أو شرير، قبيح أو جميل. فالمدن كلها مزيج من هذه العناصر بنسب متفاوتة. وتهدأ نفسك لهذا التفسير العقلاني المقنع. ولكن المقلق في نيويورك أن نسبة العنيف والهاذي والبشع تكاد تفوق نسبة اللطيف المسالم. وإدمان المخدرات مثلاً ينتشر حتى أن بعض البنوك والشركات صارت ترغم أي مرشح للعمل عندها على إجراء تحليل طبي يدعى «دراغ تست» للتأكد من عدم تعاطيه أي مخدر.

* * *

تعاودك صفارة إنذارك في سنترال بارك، ليس لأن الحديقة فارغة في هذا النهار الصيفي المشمس (الأحد) فهي مزدحمة، وليس لأن عشرات الأشخاص «المرعبين» الذين تبدو على وجوههم أمارات الإدمان يروحون يجيئون بين الجموع المعافاة، بل لأنك

شاهدت منظراً تعرف مدلوله أكثر من أي شخص سواك بعدما عاصرت انفجار مدينة وحرباً أهلية. إنه منظر الفقراء الذين يدورون على براميل القمامة ويفتشون فيها لالتقاط لقمتهم منها، على بعد أمتار من مانهاتن الفاخرة اللامبالية الثرية المليئة بدكاكين المجوهرات والتحف وفروع دور العطور والأزياء الباريسية. هذا المزيج المتفجر من الفقر المدقع والغنى الفاحش يخيفك أينما شاهدته لأنك تعرف أكثر من سواك مدلوله. وتتساءل: هل تنفجر نيويورك من الداخل بفعل عوامل «ضغط» عديدة، الفقر من بعضها؟ أمام باب سنترال بارك عربات تجرها الأحصنة. وتقبل عرض الحوذي بنزهة في أرجاء الخضرة المسالمة، لكنها لا تنسيك الفقراء جامعي اللقمة من القمامة. بحيرات السنترال بارك ومراكبها والراكضات الفاتنات فيها ومهرجان الحياة والأطفال والبالونات الملونة.. هذه كلها تعجز عن إسكات صفارة الإنذار العتيقة التي تنطلق دائماً داخل رأسك أمام مفارقات الحياة وقسوتها على البعض.

وما أكثر صفارات الإنذار في نيويورك. فابن الأسرة الصديقة الذي جاء يزورك بعد عمله في البنك وقد أخفى في حقيبة التصعلك كل ما يدل على أناقته من ربطة عنق وحذاء فاخر و«جاكيت» متنكراً في زي فقير كي لا يهاجمه أحد في المترو، وجد صاحب المطعم الفاخر الذي رافقته إليه يمنعه من الدخول ويعيره جاكيتاً من عنده ليليق مظهره بمقام الحضور!... إنها لمفارقة أن تقتلك المدينة إذا كنت أنيقاً، ويقتلك صاحب المطعم إذا لم تكن كذلك!...

* * *

تغادر السنترال بارك متجهاً نحو وكرك في نيويورك، وتشاهد مهرجاناً من تلك التي تحتل الجادة الخامسة أيام الآحاد بين آن وآخر. اليوم دور «باريد» أي موكب مهرجاني لعله لأهل البورتوريكو. موسيقى ورقص وطريق مقطوعة وأوراق ملونة وزمامير وأقنعة وحر خانق، وسماء غائمة. تتأمل المهرجان الجميل وتلتقط الصور مسروراً، وفجأة يهطل المطر، ويتناثر الناس وتسيح الأقنعة، ويتحول الموكب إلى تظاهرة عدوانية بمعنى ما... شاب يقطع السلسال الذهبي لسائحة أمامي من رقبتها بينما يتولى زميله اختطاف حقيبة يدها وهي تصرخ وسط جموع بشرية غير متجانسة، ومناخات تفرح بها العناصر «المندسة» كما يدعوها الدبلوماسيون، وتنطلق كهارب الأذى وانتزاع الحقائب والنشل هنا وهناك. ويركض رجال الشرطة وتركض أنت أيضاً بحثاً عن مكان تحتمي به، فلا تجد أمامك غير ذلك الفندق بواجهته البديعة العريقة وتقرر شرب فنجان شاي في صالونه الفخم ريثما يهدأ المطر وينفضّ «المهرجان» والعناصر «المندسة» فيه المشحونة

بالغضب المكبوت على أهل الجادة الخامسة الفاخرة من سائح ومقيم وما تمثله لأحزمة البؤس المحيطة بمانهاتن.

تدخل إلى الفندق وتتناهى إلى مسامعك ألحان «الفالس» الأمبرطوري تعزفه فرقة موسيقية. لكن المفارقات الأميركية لك بالمرصاد. ثمة طابور طويل في البهو عريق الفخامة وقف فيه الناس بالجينز والشورت بانتظار الدخول إلى المطعم لشرب الشاي وسط ديكور من الرفاهية الآتية من القرن التاسع عشر.. بمخمله وستائره وكريستال نجفه البديعة!... ويبدو أهل الطابور المحموم وكأنهم سقطوا سهواً من زمن آخر للدعة الهادئة! تمشي في ردهات الفندق بحثاً عن مكان أقل تناقضاً وأكثر هدوءاً، فترى رجلاً بزي السموكن يتحدث إلى آخر بالشورت ومعه دراجة هوائية في ممر الفندق «الأمبرطوري»!... فتخرج ثانية إلى الشارع.

* * *

لا تدري أأنت في مهرجان أم كابوس! تقرر العودة إلى فندقك. يتوقف تاكسي يقوده عجوز صيني الملامح فتصعد. يمشي بك أمتاراً وحين يرى الشوارع المغلقة بالزحام يقول كمن هو على حافة انهيار عصبي والدموع في عينيه: أرجوك أن تنزل وتتركني لحالي.

تنزل. تركب تاكسياً آخر بعد أن تقول للسائق عن وجهتك سلفاً. بعد دقائق من الاختناق في الزحام والحر الماطر يطردك هو أيضاً لأنه لم يعد قدراً على الاحتمال ويشتم الدنيا التي ستودي به إلى الجنون معلناً أنه قرر التوقف عن العمل والعودة إلى الكاراج!

سائق التاكسي الثالث هندي الملامح وسيارته جيمس بوندية يحكم عليك إغلاق الأبواب والنوافذ ويصم أذنيك بموسيقاه عارفاً أنه عاجز عن إيصالك إلى وجهتك وأنه يحتال عليك واقفاً في زحام الشوارع المقطوعة وعدّاده يركض بالأرقام التي عليك أن تدفعها ثمناً لسجنك في التاكسي وتراه يضحك كمن به مسّ. الحالة الهستيرية لسائقي التاكسي تعكس لك صورة نفسية لمعظم أهل نيويورك.

وتقرر المشي وتحاول أن تبدو جزءاً من المشهد: غير خائف وسعيد و«محتفل» وبلا مجوهرات! ولكنك لا تملك إلا أن تتذكر بيروت ما قبل الحرب حين كان حزام البؤس يهاجم الأحياء الثرية في العاصمة بعنف تحت ستار الاحتفال بليلة رأس السنة قبل زمن «البيغ بانغ»..

وأخيراً تعود إلى غرفتك في الفندق وقد نجوت من «الاحتفال»! تلحظ أن الغرفة

لا تخلو من الغرابة. وهذا الصباح حين قرعت بابك العاملة وهي تحمل لك الإفطار لم يرن الجرس بل إنه ومض بما يشبه «الفلاش» خمس مرات. للوهلة الأولى ظننت الأمر إنذاراً بحريق لمسّ في الأسلاك. ثم وعيت أن هذه الغرفة مكرسة للصم وللمعاقين، وكانت وحدها فارغة يوم جئت. وتجد فجأة تفسيراً لكل الأشياء الغريبة التي لاحظتها في الغرفة. فالجرس لا يرن بل يضيء للنزيل الأصم. الهاتف في موضع منخفض كما منظار الباب وأزرار الكهرباء وقضيب تعليق الثياب في الخزانة و«الدوش» في الحمام وخزانة الأدوية. وكل ما في الغرفة التي تطل على شارع متوحش تم تصميمه بإنسانية متناهية إكراماً لمقعد في كرسيه المتحرك! إنها مدينة التناقضات المتوحشة الرقيقة في آن. باب الغرفة يرن (أو بالأحرى يقدح شرراً) وأفتحه، فيدخل عامل التصليح لعطل في الحمام ويحدّق بي بذهول وهو يراني أمشي بلا كرسي متحرك ويسألني: لماذا أعطوكِ هذه الغرفة وأنتِ بعافية ممتازة؟ قلت له: المهم أن أغادرها وأنا كذلك بعد إقامتي النيويوركية!!

١٩٩٤/٧/٣٠

متروبوليتان نيويورك:
غرفة شامية تعلو بين ناطحات السحاب!

وقف صديقي الكندي، السوري الأصل محمد م. في الدور الثاني من متحف المتروبوليتان في نيويورك والدموع تترقرق في عينيه. كان قد غادر فندقه صباحاً وزوجته الأميركية وخلّفا وراءهما زحام مانهاتن وناطحات سحابها، متجهين إلى المتحف، ولكن الرجل وجد نفسه أمام غرفة دمشقية قديمة، وقال لزوجته وهو يمسح دمعته كالطفل: لقد وجدت نفسي فجأة أمام غرفة تكاد تكون نسخة عن غرفة جدي في دمشق، ولم أر مثلها منذ أربعين عاماً!..

هذه الغرفة الشامية في جناح الفن الإسلامي في متحف المتروبوليتان تجذب إليها عشاق الإبداع العربي ببركتها التي يترقرق الماء فيها ورخامها الملون الجميل على الأرض، وخشبها الدافىء بنقوشه الإسلامية المطعمة بالذهب، ونافذتها ذات الزجاج الملون وسقفها الأندلسي بديع الحفر والمنمنمات.. وتعود بتاريخها إلى الحقبة العثمانية (١٧٠٧). غرفة نور الدين - هذه الغرفة الدمشقية البديعة التي أعاد المتحف تعميرها هي هدية مؤسسة هاكوب كيفوركيان إلى المتحف (عام ١٩٧٠)، وجزء من مجموعة المتحف المدهشة من الفن الإسلامي. عام ١٩٨١ تلقى المتروبوليتان مجموعته الأولى الكبيرة من هذا الفن هدية من ادوارد مور. ومنذ ذلك الوقت ومقتنيات المتحف من الفن الإسلامي تنمو عن طريق الهدايا والهبات أو شراء الروائع من أسواق الفن والمجموعات الخاصة ناهيك عن الحفريات التي يمولها المتحف كما في حفريات نيسابور في ايران في الفترة ١٩٣٥ - ١٩٣٩ وفي عام ١٩٤٧ أيضاً، وينال مقابلها بعض التحف النادرة.

وعام ١٩٦٣ أفرد المتحف للإسلاميات جناحاً خاصاً يعتبر من أفضل ما في متاحف العالم في هذا الحقل، منافساً لمتحف «البريتيش ميوزيوم» اللندني واللوفر الباريسي وسواهما، مما حفز متحف اللوفر على رد التحدي والإعلان عن إنشاء جناح خاص بالإسلاميات (افتتح عام ١٩٩٣ كجزء من اللوفر الكبير) بعد استخراج مقتنياته منها من الأقبية ونفض الغبار عنها بعد طول إهمال.

* * *

ومجموعة المتروبوليتان من الفن الإسلامي تضم العديد من المصاحف النادرة (مصحف أنجزه أحمد بن السهروردي عام ١٣٠٧ م ووقعه، وهو أحد تلامذة الخطاط الشهير ياقوت المستعصمي). وثمة مصابيح زجاجية نادرة سورية مصرية ـ كانت تعلق في سقوف الجوامع ـ مطعّمة بالمينا والذهب، وأبواب خشبية مطعّمة بالعاج تزهو بنقوشها، وسجاد رائع وصحون خزفية مذهلة بفنها التجريدي وعصريتها، وجداريات ملونة ورسوم مطروقة فوق الآنية النحاسية وسواها من التحف الإسلامية الآتية من البلاد العربية ومن ايران وتركيا العثمانية والهند المغولية وسواها. والحق يقال إن جناح الفن الإسلامي الشاسع في متحف المتروبوليتان النيويوركي للفن يضم تحفاً مدهشة من البلاد العربية وايران وتركيا والهند وسواها. والمدخل إليه غرفة شامية تجسد الفن الإسلامي «البيتي» العريق، ينتقل بعدها الزائر إلى مشاهدة بقية المعروضات وعلى رأسها قرآن كريم نادر يعكس ذروة الإبداع «الكاليغرافي» العربي، إلى جانب محراب من أصفهان أعيد بناؤه بموزاييكه السيراميكي الشاهق بديع النقوش المزدان بآيات قرآنية. رسوم إسلامية، وسيوف أندلسية ودروع وخوذات لمقاتلين مضوا وبقيت آثارهم تدل عليهم، ودوارق وآنية وزخرفات سجادية ومنمنمات بلورية وسواها من الإبداعات الإسلامية التي يكسر وحشتها في الغربة حضور أبنائها لزيارتها بعدما فشلوا في الحفاظ عليها في أرضها.

قد يكون في مطالبة السائح العربي في نيويورك بزيارة متاحفها الثمينة الكنوز شيء من المبالغة. فأنت لا تستطيع أن تقول لعابر سبيل مشتاق إلى «متاحف» التسوق (الشوبينغ) والحرية والتسكع والسهر واللهو والراحة، اذهبْ وأقضِ وقتك بين جدران متحف الحِرف الأميركية (أميركان كرافت ميوزيوم) أو متحف العلوم الطبيعية لمشاهدة حجارة القمر وسواها، أو المتحف الآسيوي، أو متحف الفن الأفريقي (لمشاهدة معرض «انصهار»: فنانون من غرب أفريقيا) أو متحف غوغنهايم أو حتى متحف مدينة نيويورك أو «ويتني ميوزيوم» للفن الأميركي، أو متحف الفن الحديث الملقب بـ «موما» بالرغم من الكنوز التي يضمها، كأعمال بديعة لماغريت وماتيس وبيكاسو وروسو وشاغال وأعمال أخرى أقل إبداعاً لأميركيين أمثال وورهول وليشتنشتاين وسواهما.

وقد لا يهم السائح العربي أيضاً أن يعرف أن نيويورك انتزعت مركز ريادة السوق الفنية العالمية الذي لا تزال باريس تناضل لاسترجاعه. ولكن ثمة متحف لا بد للسائح العربي من زيارته، أو بالأحرى زيارة جناحين فيه، واسم المتحف هو «المتروبوليتان للفن». الجناح الأول يقع في الطابق الثاني من المتحف وهو مخصص للفن الإسلامي، والثاني مخصص للفن الفرعوني، في الدور الأرضي.

للفن المصري القديم أيضاً جناحه البديع الشاسع، فالهوس الهستيري بمصر وحضارتها ليس وقفاً على الأوروبيين. وها هم في المتحف الأميركي يعيدون بناء معبد دندرة بأكمله ـ وهو هدية شكر من الدولة المصرية مقابل المساعدة الأميركية في إنقاذ معبد أبو سمبل وغيره ـ وقد تم نقل الحجارة الشاهقة حجراً بعد آخر وتركيبها في قاعة كبيرة خاصة.

كما يجد المرء أيضاً مجموعة مدهشة من التحف والتماثيل وتوابيت المومياءات وتماثيل ملوك وملكات مصر القديمة، وشواهد على طقوسها آنذاك وممارساتها ومراكب موتاها و«أربابها». فالانبهار الغربي بتلك الحضارة المصرية العريقة يجد لنفسه كل يوم اكتشافات جديدة تزيده اشتعالاً.

وبتاريخ ٩٤/٥/٩ نشرت **الهيرالد تريبيون** تصريحاً لبروفسور الجيولوجيا في جامعة توليدو بأوهايو أدلى به إلى الصحافي جون نوبل ويلفورد ويقول فيه إن الفراعنة كانوا أول من «اخترع» تعبيد الطرق في كوكبنا حيث كشفت الحفريات أنهم عبَّدوا درباً طولها ١٢ كم بالحجارة الرملية وبقطع الأخشاب لتسهيل بناء الأهرامات!

وإلى جانب الثراء الفني للمجموعة الإسلامية والفرعونية يلفت المتفرج إتقان المتحف لفن العرض، والإضاءة المريحة (وهي أمر مهم لم يعد يتوافر دائماً). ففي متحف دورساي الباريسي مثلاً ينبغي على المرء أن يصطحب معه مصباحه اليدوي ليكون قادراً على مشاهدة اللوحات، فإضاءته الرديئة قد تصلح لكهوف مونتمارتر وبيغال وليس لمتحف.

إنها دعوة إلى زيارة تراثية، نتعلم منها الكثير عن ماضينا الرائع ربما لنستعيد ثقتنا الحضارية بأنفسنا وربما لتأنس آثارنا بحضورنا، وربما لنستلهم كيف نعرض تراثنا وندلله ونحرص عليه من الضياع والبيع والتهريب كما حدث في لبنان مؤخراً!

١٩٩٤/٨/١٢

المرأة ذات الشاربين !

يقودك الأصدقاء في نيويورك إلى معرض فني طليعي في حي «غرينتش فيلادج» الفني البوهيمي. تمشي معهم والبرد يقص المسمار ويقصك أيضاً، وتتمنى أن تستحق أعمال الفنانة ذلك العناء كله.

لا تجد نفسك في صالة عرض بالمعنى التقليدي، بل أمام غرفة للتلصص كالتي يجدها السائح في أزقة الليل وسوبرماركت الجنس! حتى الآن الفكرة جذّابة: أن تتلصص على المعرض من ثقب في الباب بدلاً من أن تدور بين اللوحات، فالفنان متلصص على الطبيعة البشرية، والمتلقي متلصص على التلصص الفني للمبدع بمعنى ما.

وهكذا، بدلاً من شراء بطاقة الدخول على الباب تقف في الصف بانتظار دورك للتلصص، وتضع نقودك المعدنية في الثقب الخاص بذلك حين يحين دورك، بعدما تثبت عينك على فتحة التلصص المظلمة. فقط حين تسمع صوت سقوط القطعة المعدنية في الآلة، يضاء النور في الداخل مرة واحدة ويصير بوسعك أن ترى «المعرض».

ها هو الفن يهبط من عليائه. من رسوم على سقوف الكاتدرائيات مثلاً عليك أن ترفع رأسك إلى الأعلى لتراها. الآن أنت تتعامل مع الفن غير «الجليل» كما مع اسطوانة في آلة «الجوك بوكس» أو أغنية «كليب» لمايكل جاكسون أو زجاجة «كوكاكولا» في ماكينة محطة القطار الوسخة الحزينة بروائح الوداع والأشياء العابرة الهاربة.

إذا كنت من النمط الكاره للمواقف المسبقة ستتساءل: هل هبوط الفن من عليائه أمر جيد أم سيىء؟ ولمن؟ للابداع ذاته أم للمتلقي العصري؟.. حسناً. أسلوب تعاطي الفن ليس جوهر المسألة، إنه «إطار اللوحة» بمعنى ما، الأهم: ما هو المعرض الذي نراه داخل صندوق الفرجة النيويوركي العصري إياه؟

★ ★ ★

لا نرى لوحات في الداخل. غرفة عارية تماماً من الأثاث، مبطنة بالمخمل الأحمر كما في بعض غرف «البيب شو» والتعري الرخيص في سوبرماركت الجنس، ولا نرى أثراً لعمل للفنانة بل نرى الفنانة نفسها واقفة تحت الضوء الساطع مثل تمثال، تحدّق بها كما

تحدّق بك بوجه زنجي جميل وجسد مصفح بثياب محاربي العصور الوسطى الحديدية، وقد ألصقت على وجهها شاربين كبيرين وحملت بيدها خوذة لرجل الفضاء! . .

تشعر «بصدمة» حين ترى الشاربين الهائلين، والمزيج من العصور الماضية والآتية في ثيابها، ونظرتها الحادة وهي تحدق بك عبر الثقب وتحاول أن تفهم: ماذا تريد أن تقول لك؟ هل تريد أن تلفتك إلى أنك من الداخل مخلخل ومضحك كما تبدو لك هي من الخارج، وبالتالي فالفن هنا مثل كرة تقذفها على الجدار فترتد عليك، والمعرض هو أنت وأعماقك؟ هل هي دعوة إلى تأمل ذلك المعرض الهاذي الهزلي في أعماق كل منا بعيداً عن تمجيد الذات الذي ترشونا به نرجسيتنا؟ أم أننا أمام صرعة لا أكثر؟ ينطفىء النور بعد ثماني ثوانٍ!

تتذكر معرضاً مشابهاً شاهدته منذ أسابيع في روما ـ إذا كنت من عشاق تتبع الفن الطليعي وتصادف أن زرتها ـ ففي أحد مقاهي الأدباء هناك قدمت ميريام لابلانت الفنانة الايطالية عرضاً مشابهاً أسمته «المرأة الملتحية». وحين تضع نقودك في ثقب غرفة التلصص يطالعك وجه الفنانة وقد ألصقت عليه لحية وهي تتأملك بعينين زرقاوين كبيرتين جالسة على مقعد بثياب النساء المتحفظات كما في زمن الملكة فيكتوريا! . . . وطوال الوقت لا يستطيع المرء أن ينسى أنه أمام استعراض كان يراه في دكاكين الجنس الغربية كما في أزقة سوهو بلندن أو البيغال بباريس. فلماذا يستعيض الفنان بجسده عن لوحته؟ وصحيح أن مريام لابلانت ملأت جدران المقهى بتماثيل من صنعها تمثل دمى لنساء ملتحيات زرق العيون، لكن «تحفتها الفنية» كانت غرفة التلصص، وحضورها الجسدي.

* * *

إننا أمام تيار فني جديد، وقبل أن ندينه أو نؤيده، تعالوا نرصده وننصت إلى ما يقوله مبتكروه.

تيار اسمه «فن الجسد» حيث يستعمل الفنان جسده بدلاً من قماشة اللوحة للتعبير عن فكرة تجريدية ما، وتصير السكين ريشته أحياناً!

الفنان كريس بوردن قدم ـ مثلاً ـ «معرضاً» من الزجاج المهشّم على أرض الغاليري، ركض فوقه على أربع! وبالطبع فقد صدم المشهد الجارح عشاق الفن، ولكن هذه الرعشة المكهربة هي ما كان يتعمد إثارته حيث يتنازعك الخوف على الفنان من نزفه، ووعيك بأن حياتك اليومية مسيرة مشابهة على الزجاج المهشّم للعلاقات المدببة سواء كنت تدب فيها على أربع أو تقفز على قدم واحدة! . .

الفنانة جينا باين جرحت نفسها أمام المتفرجين، وقدّمت لهم بجسدها لوحة الجرح! وثمّة فنان قام بإيذاء نفسه جنسياً بطريقة غير لائقة أمام الحضور، وآخر أهان ذاته جسدياً يدعى ڤيتو أكونشي. والأمثلة على هذا النمط من «الفن» تتكاثر في التسعينات، والتفسيرات متشابهة رغم التباين في التسميات (المرأة الملتحية تصر على أن ما تقدمه ليس فن الجسد بل مدرسة أخرى اسمها النحت الحي).

★ ★ ★

«فن الجسد»، «النحت الحي». . إلى آخره. .

لنتجاوز التسميات إلى الجوهر. هل لدى هذا «الفن» ما ينبشه فينا غير ما سبق ووعيناه عبر عباقرة كلاسيكيين أو من المجددين من مايكل أنجلو إلى ماغريت وبيكاسو ودالي وميرو؟ . .

وهل استفزتنا ميريام لابلانت (المرأة الملتحية) أو ربيكا واير (المرأة ذات الشاربين) أكثر مما فعلته بنا لوحة الغجرية النائمة لروسو مثلاً؟ الدمى التي تصنعها «الفنانة الملتحية» ملتحية مثلها واستثنائية، وحين تضغط على بطنها لا تقول «ماما» أو «بابا» بل تفتح عينيها الزرقاوين وتحدق بك على صورة ومثال صانعتها ـ هذه الدمى هل تقول لك بصمتها ونظرتها ما لم تقله لك نظرة الموناليزا في رائعة ليوناردو دافنتشي الذي عاش منذ قرون؟

هذا هو السؤال الذي يواجهه عاشق الفن الطليعي الذي لا يقبل ولا يرفض أي جديد لمجرد أنه جديد. والزمن في النهاية هو الحَكَم الأول للفن، ولكن الموناليزا تبقى والمرأة ذات الشاربين النيويوركية ستموت ذات يوم. ولأنها شخصياً هي «العمل الفني»، فهذا يعني أنها تقدم عرضاً عابراً لا إبداعاً له فرصة البقاء. هي تقول إن الفن هو التخلي عن فنية العمل الفني بما في ذلك وهم التفرد والخلود. . وأنا أقول انحيازي إلى تفرد الينابيع والكواكب والعبقريات الكبيرة، دون المطالبة بقمع الشهب التي تضيء لومضة خلال عبورها.

١٩٩٣/١/٥

مدينة تدخّنك كسيجارة!

كل شيء يهرول في نيويورك بسرعة لا تخلو من القسوة والغطرسة. أضواء المرور مثلاً تبدل شاراتها بسرعة تكاد لا تتيح لعجوز أو لطفل فرصة عبور الطريق بسلام هادىء. شيئاً فشيئاً تلحظ أنك تهرول حتى حينما تنوي التسكع! تتكلم بسرعة وبصوت عال حتى إذا كنت تضمر الهمس. تمشي في «بارك أڤنيو» بين ناطحات السحاب ويكاد يراودك شعور بالاختناق والغثيان وقد تحولت إلى جزء معدني صغير من آلة جهنمية عملاقة، وإذا لم تتناغم حركاتك مع ايقاعها الخاص طحنتك في وهلة عين.

تنتابك شهوة الانسحاب من سباق الفئران. تنعطف عند أول شارع «جانبي»، ولكن ليس ثمة ما يدعى كذلك حقاً. فناطحات السحاب تحاصرك في عملية اغتيال منظمة لزرقة السماء. وتجد نفسك في «ليكسنغتون أڤنيو» أمام مبنى شاهق ينافس ناطحة سحاب كرايزلر في آخر الدرب ـ أو ما يبدو لك كذلك ـ ناحية السنترال بارك. رجال مستعجلون يصدمونك بحقائبهم المعدنية المحشوة بالأوراق «المهمة» كما لو كانوا سيارات تمشي على الأرصفة. تريد أن تتأملهم فهم يبدون لك منوّمين بأمجادهم وشهوة امتلاك العالم. تنسحب لتجلس على جانب البركة أمام ناطحة السحاب، وقرب تمثال معدني لرجل أعمال ينادي التاكسي!... تتخيله يمشي ويدوسك بقدمه البرونزية. تزداد أنفاسك ضيقاً. تبحث وسط هذه الغابة المعدنية المهرولة إلى الجنون عن شيء أليف حنون من «معارفك» القدامى كمربع صغير من زرقة السماء مثلاً. تجده فتركز نظراتك عليه ريثما يهدأ روعك. يركض الغيم في السماء ثم يبدو الغيم لك فجأة ساكناً وناطحة السحاب هي التي تركض صوبك كي تسقط عليك... وتكاد تصرخ هلعاً، لكن متشرّداً هامشياً يوقظك من كابوسك ويحاول أن يعطيك إعلاناً عن مطعم جديد في مدينة تلتهمك إذا لم تلتهمها! عشرات من الهامشيين يطاردونك في شوارع مانهاتن ويرغمونك على قراءة الإعلان الذي يوزعونه كمهنة.. تعرف أنهم سينامون بلا طعام إذا لم تأخذ منهم ورقة الإعلان، فتجمعها ثم ترمي بها خلسة في الشارع المجاور وتتعاطف معهم.

في المدن المتوحشة، التي تبدو القسوة فيها مشتركة بين الأغنياء والفقراء، لا تملك إلا أن تكون هامشياً كي تحافظ على صوابك، ولا تتساقط ناطحات السحاب فوق

رأسك الباحث عن مربع سماء. تشهر سيجارة وتشعلها ساخراً من مكافحة التدخين في أزمنة الحضارة الاستهلاكية التي تدخن الإنسان بشراهة وتخلّفه عقب سيجارة بشرياً في منفضة المدينة الشاسعة. في مثل هذا المكان واليوم منذ تسعين سنة ألقت شرطة مدينة نيويورك القبض على سيدة لأنها كانت تدخن سيجارة في الشارع! ها أنا أدخن دون أن أثير التفاتاً. تلك المرأة كان ذنبها الوحيد أنها سبقت زمنها!

★ ★ ★

في هذا الجحيم تبدو المكتبات العامة والمتاحف واحة أمان إنسانية حقيقية. ولا يدهشك رصد حاكم نيويورك ٧ مليارات دولار لأنسنة المدينة يذهب كثير منها لتشييد أكبر مكتبة في العالم: أي واحة. نيويورك الذكية تدرك هذه الحقيقة، ومتاحفها تكاد تكون الأكثر تنظيماً في العالم والأحسن إضاءة، وربما الأغنى بكنوزها.

في باريس تستطيع أن تهرب إلى المقهى إذا كنت لا تحب المتاحف ولا الجلوس في الشارع على أطراف البرك تحت ناطحات السحاب. في نيويورك تكاد مقاهي الأرصفة تكون معدومة، وليس أمامك إلا . . المتحف. وفي مانهاتن تجد أحد أهم متاحف الفن الحديث في العالم. واسم «الدلع» له هو: موما. للمتحف حديقة «شامية» لطيفة، مرصعة بتماثيل لرودان وبيكاسو وهنري مور وكالدر وسواهم. لا تأبه بالبرد، لكن صوت الحفارة المعدنية من الشارع المجاور يدفع بك إلى الهرب صوب الداخل.

في متحف «موما» يذهل المرء لا أمام الكثرة العددية للتحف بل وأيضاً أمام نوعيتها. فالأعمال التي اشتراها هي بالتأكيد من أجود عطاء الفنانين أمثال كاندنسكي وماتيس وميرو وغيرهم. أجمل لوحات روسو مثلاً «الغجرية النائمة» تجدها في «موما»، وكذلك رائعة فان غوخ «الليلة ذات النجوم»، وتحفة ماغريت «المرآة المزورة»، وحتى تحف العالم الثالث الفنية نجدها هنا كلوحة دييغو ريفيرا «زاباتا». أما الحضور العربي فمعدوم تماماً مما يثير الغصات لأن الفن العربي التشكيلي بالذات بلغ مرتبة العالمية في بعض أقطارنا العربية، ولكننا في الوطن ننشغل كثيراً بتهديم بعضنا بعضاً، ونخص بذلك الذين نجحوا في الوصول بفنهم إلى العالم الخارجي، وبدلاً من دعمهم نحاول قتلهم في مذبحة الحماقات الصغيرة.

★ ★ ★

على العكس منا، تدلل نيويورك فنانيها المحليين في متاحفها. وإذا كنا نحن نتوهم أن أي رسام غربي شهير هو أفضل بالضرورة من أي محلي كبير فإن متحف الفن الحديث في نيويورك (موما) يحرص على عرض أعمال فنانيه المحليين جنباً إلى جنب مع عباقرة

الدنيا كنوع من الدعم اللامحدود لأبناء البلد حتى للذين لا يستحقون (في نظرك). وهكذا فنحن نرى أعمال الأميركي روي ليشتنشتاين إلى جانب تحفة خالدة لإدوارد مونش مثلاً (لوحة العذراء). ويبدو لك الجوار أحياناً كجوار الهامبرغر والموناليزا، لكن البلد بلدهم والمتحف متحفهم وهم اشتروا كنوز العالم بمالهم. فمن أنت حتى تحتج على فنانيهم أو تجرؤ على أن تقول بصوت عال إن وضع أعمال جوزف بويس إلى جانب إبداع بيكاسو أمر غير مقبول في نظرك. وكيف تتطاول على أمبراطورية الكوكاكولا والنيون والبلاستيك؟ بالمقابل، لا تملك إلا أن تغار من رعايتهم الاستثنائية لفنهم وأدبهم وتمجيدهم لرموزهما في حين نحرص نحن على تهديم رموزنا أو تمجيدها بشكل خاطىء عكسي النتيجة!

جولة على متاحف نيويورك وواشنطن وسواهما من المدن تشفّ عن وعي فني أميركي خارق، حيث تجد نفسك أمام «أمم متحدة فنية» لأن أجمل لوحات العالم تقريباً تم شراؤها من قبلهم. أما نحن فما زلنا نبيع تحفنا وآثارنا من أجل حفنة من الاتكالية، بل ونحاول التخلص من كنوز اشتراها آباؤنا بحجة الحصول على ثمنها، بدلاً من التوقف عن التبذير في مجالات أخرى. صحيح أن الفن لا يطعم خبزاً للفقراء، لكن العقل الذي يحترم الإبداع هو القادر على خلق فرص العمل للفقراء..



تجلس على أحد المقاعد المتوافرة في أروقة المتحف. تعرف أن نيويورك تتربص بك في الخارج بكل عدوانيتها وقسوتها وبردها لتدخنك كسيجارة. تتأمل كنوز الحزن الإنساني والوعي والأمل المحيطة بك، وتشعر بشيء من الشماتة لهبوط أسعار اللوحات في البورصة! ذلك يعني أن أصحاب الملايين لن يقبلوا بعد اليوم كثيراً على شرائها والاستحواذ عليها في قصورهم، لا حباً بها بل احتراماً لأرقام مبيعاتها في السوق المالية. وهكذا ستظل اللوحات في المتاحف للمفلسين مثلك، واحة طمأنينة وأرض لجوء خارج الزمان والمكان المسمم بالعدوانية والمدن المكهربة... فكيف لا أدهش حين أسمع أن شخصاً ما، زار نيويورك ولم يزر متاحفها، لكنه تعرّف جيداً على مطاعمها وأسواق «الشوبينغ» فيها؟

١٩٩٣/٣/٥

حلم أميركي أم كابوس؟

إذا وجدت نفسك مدعواً إلى سهرة في أحد الفنادق الكبرى في نيويورك، ستظن نفسك في حفل عربي من حيث بهرجة النساء في ارتداء ملابس السهرة الليلية إلى حد المبالغة.

فالمرأة العربية عامة تشترك مع الأميركية في حبها المبالغ به للمـذهّب والمقصّب والمطرّز بالألوان الفاقعة بعيداً عن الأناقة الأنيقة!

وخيّل إليَّ في السهرة النيويوركية أن كل امرأة تحاول أن تبدو مثل شجرة الميلاد، وترتدي كل ما لديها من مجوهرات مرة واحدة، وتتوهم أن مضاعفـة تطريـز الفستان سيؤدي إلى زيـادة جمالـه وثمنه وبـالتالي «قيمتـه». . . ويزيـد في فظاعـة المشهد تلك النظارات الأميركية التي تبرق بالماس الاصطناعي (أو الطبيعي) وزينة الشعر المذهّبـة وأحمر الشفاه الفاقع الذي يغطي بياض الأسنان ويلطخ الطرف الأبيض للياقة الخضراء البنفسجية على الفستان الأحمر المطرز بورود ذهبية كبيرة مثلاً تتوسط أخـرى برتقـالية وزرقاء! . .

وكلما زاد ثراء المرأة، كلما كانت قدرتها أكبر على الإفصاح عن قلة أناقتها. في سهرات كهذه، يتذكر المدعو المرأة الفرنسية الأنيقة بالمعنى الحقيقي للكلمة. لا أتحدث هنا عن دور الأزياء الكبيرة بل عن أناقة البسطاء والعاملات. . . أناقة المرأة في المترو مثلاً. . حيث ترتدي ثياباً بسيطة منسجمة الألوان، وبلمسة صغيرة من زر إضافي أو منـديل حـول العنق (ايشارب) أو قـرط متقشف يتدفق ذلـك السحر الخفي المسمى «أناقة».

ومعظم ممثلات فرنسا المغمورات يرتدين ثيابهنّ بأناقـة لا توازيهـا أناقـة بعض المليونيرات الأميركيات أو الشرقيات عامة مع استثناءات قليلة.

ويندر أن ترى ممثلة فرنسية على شاشة التلفزيون (أو مذيعة) ترتدي مجوهراتها كلها مرة واحدة، فالبساطة مفتاح أناقة الفرنسية الثرية والفقيرة معاً. . . حتى إن الإقامة في باريس تكاد تكون جولة دراسية في الأناقة. .

ودرس البساطة يوفر الكثير من المال (والبشاعة) على الأميركية والعربية. . وليس صحيحاً أن الأناقة تعني سعة الإنفاق على الثياب كما قالت فنانة لبنانية جادة وجيدة في معرض الدفاع عن أناقتها. . بل إن العكس يكاد يكون صحيحاً. . فالمال ليس عقبة في وجه الأناقة، لكنه يساعد على تضخيم قلة الذوق وعرضه على شاشة مذهّبة ملونة. . وهذا ما يحدث بالذات في سهرات الفنادق الفخمة الأميركية إلا فيما ندر. . . ونتذكر الكرنفالات البورجوازية في الوطن حيث التبذير جريمة بحق الأغلبية الفقيرة، وتشعر بحاجة إلى نظرة عربية جديدة نحو قضية الأناقة ترفض منطق: صاحب المال يأتي بأجمل الثياب. فصاحب الذوق هو الذي يفعل ذلك بالأسعار كلها. واسألوا مادونا (الأميركية لا اللبنانية) التي تنفق الملايين لترتدي أبشع الأزياء حتى استحقت «الفوز» في لائحة السيدات الأقل ذوقاً وأناقة!!

★ ★ ★

مع نيويورك يبدو الكلام بلغة «التعميم» هزلياً. فأنت لا تستطيع أن تقول إنها مدينة بشعة، فهي تكاد تكون رومانسية وجميلة في بعض أحيائها البحرية ومنتزهاتها. بالمقابل لا تستطيع أن تقول إنها مدينة جميلة حينما تزور بعض ضواحيها الفقيرة البائسة (في سيارة مصفحة مغلقة النوافذ بإحكام) وترى الناس ينحنون على أكوام القمامة بحثاً عن الطعام فتشعر أنك غادرت العالم الأول في مانهاتن إلى العالم الثالث في الضواحي والأحياء البائسة وأنك لم تعد في نيويورك بل في نيوكالكوتا!!

في معظم المدن الكبيرة يلتقي المرء بهذا المزيج المتفجر: الثراء الفاحش والفقر المدقع. لكنه في نيويورك يثير الذعر أكثر منه في أي مكان آخر، ربما لتحرر تلك المدينة من العديد من الضوابط الروحية والأخلاقية التي قد نجدها في كالكوتا مثلاً. قبل ربع قرن كان الناس يحلمون بالسفر إلى المدن الكبيرة لممارسة متعة الاكتشاف والدهشة، وتحوّل الحلم إلى كابوس على مشارف القرن الحادي والعشرين!!

★ ★ ★

ليس ثمة ما هو أقل جدوى وأكثر غروراً وزيفاً من المسرح، ولا ما هو أكثر ضرورة!! . . ستتذكر هذا القول للويس جوفيه وأنت تحجز بطاقات الدخول لمشاهدة معظم أعمال عاصمة المسرح الغنائي: برودواي. .

وإذا كنت من عشاق المسرح مثلي، ستدهشك حيوية برودواي وغزارتها الإبداعية وتدفق الناس على أعمال من نمط مسرحيات «شبح الأوبرا ـ القطط ـ البؤساء». في نيويورك ثمة مفارقة، وهي توظيف الحياة العصرية السياحية لصالح الرواج المسرحي،

وثمة «خطوط مباشرة» بين الوكالات السياحية التي تجلب السياح إلى المسارح والمنتجين حتى كاد هذا الفيض من السواح يؤثر في اختيار مستوى العروض ونوعيتها، مما جعل نقاد الفن الجادين يرفضون هذا الواقع المسرحي الاستهلاكي. فماذا فعل «أرباب» برودواي؟ أهملوا ببساطة آراء النقاد، وبعدما كانت الملصقات المسرحية تصدر حاملة مقتطفات من تقريظ النقاد، استغنى العديدون عن ذلك، وشاهدنا مثلاً ملصقات مسرحية «شبح الأوبرا» وكاتس (القطط) وسواهما من الأعمال المنافسة سياحياً «للإمبايرستيت» وقد طلعت علينا بغير المقتطفات التقريظية المألوفة. ولعل هذا الموقف العام من «المثقفين» وأمزجتهم يساهم في تكريس لندن عاصمة للمسرح الجاد حتى اليوم. «برودواي لم تستطع إفساد مسرح لندن». . هذا القول لبول موران منذ ثلاثة عقود ونيف ما زال ساري المفعول. فالمسرح الجاد هو في النهاية من العقاقير الأولى التي اخترعتها البشرية ضد اليأس واللاجدوى والعزلة والحزن وحاجة إنساننا المعاصر إليها في زمن «التسمم الإيديولوجي» لم تتناقص، ولم تتطور وفقاً لأمزجة الوكالات السياحية وشباك التذاكر!



في طائرة العودة من نيويورك إلى باريس، أنظر إلى مجمل مشاهدات رحلتي و«أعتقد أن الأميركيين مثلاً لو التفتوا إلى الماضي أكثر مما هم ملتفتون إلى المستقبل لوجدوا أنفسهم شعوباً وأرومات تاريخية متناقضة ما بين ألماني وفرنسي وانكليزي وأميركي جنوبي وبحر متوسطي وآسيوي، وبالتالي مختلفين ومتناقضين. ولكنهم بنظرتهم أولاً إلى مستقبل وطنهم عينوا أنفسهم شركاء في شركة لا تنفصم هي شركة الحقوق والواجبات في إطار حياة مستقلة ومتصالحة مع قيمها وقيم العالم». هذا القول للمفكر العربي منح الصلح يلخص شعور كل من عانى من حروب «الزواريب» والحماقات الصغيرة بين القبائل وهو يرى مئات ملايين الناس الذي نجحوا حتى الآن في التعايش في أوطان أخرى لأنهم جعلوا من المستقبل قاعدة لبناء حياتهم لا من الماضي وحده.

بهذا المعنى لا نملك إلا الاعتراف بأن المجتمع الأميركي يشكّل تجربة إنسانية متقدمة في مجال التعايش والتمازج بين البشر والثقافات والأديان والعادات و«التراثات» والعروق. وهي تجربة لا تخلو من العلل الكابوسية لكنها أيضاً محاولة مستقبلية رائدة، لأن مصير كوكبنا ـ حين ينضج إنسانياً ـ أن يصير دولة واحدة في عصر الفضاء الذي نرى انبلاجه في مجرتنا. . فهل نغادر عصرنا الحجري في لبنان لنلحق بقطار الإنسانية والتطور أم نظل نتناحر داخل البيت الواحد والطائفة الواحدة بين انتحار وآخر من انتحاراتنا؟

١٩٩٤/٣/١٢

سان فرانسيسكو:
بوابة ذهبية وشرفة خضراء على المحيط الهادىء

«إذا كنت ذاهباً إلى سان فرانسيسكو، لا تنس تزيين شعرك بالأزهار» . .

هذا ما تقوله الأغنية القديمة الآتية من زمن «الهيبيز» . . ولكن الأزهار لا تنقص أحداً في سان فرانسيسكو. وإذا لم تعد تزين شعر الشبان بعدما انقضى زمن الهيبيز، فإنها ترصع ثوب المدينة البحرية بتطريز منمنم مرهف على «تنورة» من الخضرة البديعة لحدائق عامة شاسعة وتلال بحرية ثرية بغاباتها.

ولعل الجمال الطبيعي لسان فرانسيسكو هو أحد مراكز الجاذبية فيها، بالإضافة إلى ثقلها الثقافي الجاد الإبداعي وثرائها بالتنوع البشري الحضاري (ربع سكانها من الصينيين و١٢٪ من الزنوج و ١٥٪ من أميركا اللاتينية عدا عن الروس) مما جعل البعض يلقبونها بالعاصمة الثقافية للساحل الغربي الأميركي، والمدينة الأكثر «أوروبية» في أميركا لنشاطها المسرحي والفني والأدبي الأقل تجارية مما هي الحال في مدن أميركية أخرى. وعشاق البحر يبدأون جولتهم من الشاطىء، من الـ «فيشرمانز وارف» أي مرسى الصيادين حيث تقدم المدينة استعراضاً يومياً لقدرتها على ضخ البهجة في قلوب زوارها. وتمتزج رائحة ملوحة البحر وصوت الأمواج مع ضحكات الأطفال في الأراجيح والأحصنة الخشبية الدوارة ومسرح خيال الظل وغيرها من الفعاليات المهرجانية كأنك في مدينة العيد.

ويزيد من سحر تلك الزيارة أن بوسعك القيام بها من ساحة «يونيون سكوير» التي تتوسط المدينة، راكباً التراموای من هناك. وتنتشر في «الوارف» المطاعم البحرية، وتزدهر فيها حياة ليلية حتى مطلع الفجر. لكن رمز المدينة هو جسر استثنائي، وحين يزوره المرء يجد نفسه أمام أطول وأعلى جسر في العالم، بعد جسر النورماندي الفرنسي الجديد، وهو «غولدن غيت بريدج» الشهير (طوله ١,٧ ميل وتمر فوقه ٤٠ مليون سيارة في العام). ويدهش أيضاً لجمال خليجه . . تلك الزرقة البحرية الاستثنائية لأمواج بلون «المينا» الصينية، وتلك الضبابة المعلقة بين السماء والماء والشهقة مثل غيمة سقطت سهواً تشف حيناً وتغمر الجسر بالضباب أحياناً.

★ ★ ★

هذه الضبابة لا تفارق سان فرانسيسكو وبحرها وتمنحها شحوباً غامضاً جذّاباً. والحدائق في المدينة لا تحصى، كحديقة «فيكتوريا» التي تستطيع أيضاً أن تستقل الترامواي إليها (وتتذكر ترامواي بيروت بغصة إذا كنت مخضرماً!). تجد في حدائق سان فرانسيسكو أشجاراً بديعة من الأوكاليبتوس العملاقة والأرز البديع وغيرهما. فمن كل قارة شجرة وزهرة، حتى لتبدو المدينة شرفة خضراء على المحيط الهادىء. وتلتقي بأزهار نيوزيلاندة الحمر المتوحشة وياسمين الحوض المتوسط وأوركيدة سنغافورة في معظم شوارعها وحدائقها.

أما حديقة «غولدن غيت» فتعتبر واحدة من أكبر حدائق العالم وتضم العديد من المتاحف مثل المتحف الآسيوي للفن وأكاديمية كاليفورنيا للعلوم وحديقة الشاي اليابانية التي تقدم لك الشاي الصيني!

وبيوت سان فرانسيسكو صغيرة ملونة نظيفة كبيوت الدمى، وتترك مسافة إنش واحد من الفراغ بين كل بيت وآخر، هي «مسافة الحب» لأن الالتصاق يخنقه، ومسافة الزلازل (من وجهة نظر العلماء) كي لا تنهار المباني دفعة واحدة في مدينة تاريخها مرصع بالحرائق والزلازل.

وبالرغم من ماضيها مع «صيادي» الذهب العنيفين الذين كانوا يهاجرون إليها طمعاً في الأصفر الرنان، والبغايا الأسطوريات، فإن سان فرانسيسكو اليوم تكاد تبدو مدينة جادة في مشاغلها الثقافية الإبداعية. وما زال بوسع المرء أن يصطاد الذهب فيها بالمعنى النفسي للكلمة، والطرافة أيضاً إذ تقيم فيها مثلاً عرّافة المسز ريغان الشهيرة. كما أن شمس الهيبيز لم تغرب فيها تماماً وما زالوا يعقدون لقاء سنوياً يوم ١٢ حزيران (يونيو) من كل عام في «هايت ستريت فير»، كما أن مسرحية «هير» تعرض حالياً فيها بمناسبة مرور ربع قرن على ذلك الاحتفال الهيبي.

* * *

عدد سكان سان فرانسيسكو حوالى ثلاثة أرباع المليون فقط، ولذا يشعر السائح فيها بالراحة النفسية لبعدها عن الهستيريا النيويوركية مثلاً، وتكاد تبدو مدينة أوروبية آمنة ووديعة ـ نهاراً على الأقل ـ محافظة ومتزنة، ولكنها لا تخلو من الصرعات الأميركية كتحويل جزيرة الكاتراز المقابلة لها إلى مرفق سياحي هذياني، وتحويل تمثال مارك توين إلى تمثال لفيردي بعد إضافة شاربين له (يقع بالقرب من حديقة شكسبير)..

مرتفعات المدينة، الشاهق منها، مثل «توين بيكس» «وماونت ديفيد»، وتلالها الصغيرة الكثيرة زادتها طرافة، وثمة شوارع متعرجة إلى المدى الذي تضطر فيه للمشي

بسيـارتك بسرعـة السلحفاة (فيهـا أكثر الشـوارع تعرجـاً في العالم ويـدعى لـومبـارد ستريت). . ولها منحدرات هائلة بزاوية ٤٥ درجة ويمكن أن تطير بك السيارة إذا لم تخفف من السرعة. وقد أحسنت هوليوود توظيف ذلك في المطاردات الشهيرة بالسيارات التي تدور في شوارعها ويذكّرونك بأن مارلين مونرو تزوجت لاعب البيسبول جو ديماجيو في كنيستها (قرب ساحة واشنطن)، وأورسون ويلز لعب أدواراً على شواطئها، وكذلك فاي داناواي (في الحي الصيني) وناتالي وود وبروس لي الذي كبر في حيها الصيني وأفواج البيتنكس والهيبيز، ولا تزال تجد حتى اليوم هيبياً عجوزاً هنا أو هناك نسيه الزمان داخل ثيابه وأزهاره وعقوده نفسها منذ السبعينات!. .

★ ★ ★

لا تدع المظهر الوديع للمدينة يخدعك ويجرك إلى مهالك ليلية، ففيها شوارع لا يجرؤ البوليس على دخولها!. . وصحيح أن الفنـانين رسمـوا حتى جدران البيـوت في شوارعها، وأنها العاصمة الفنية والثقافية لكاليفورنيا، وصحيح أنه لا حدود لطرافتها حيث تجد يختاً للإيجار ليلة واحـدة، وبيوتـاً عائمـة فوق المـاء للفنانـين في ضاحيتهـا سوساليتو، وبصارات وسحـرة وحواة وعشرات المسـارح والمتاحف والمعـاهد العلميـة وصالات الفن، ومقاهي مثقفين كما في صالون «هانغ آه» للشاي و«ديم صام تي لانش» وسواهما، ولكن ذلك لا ينفي مخاطرها الليلية كأية مدينة أميركية أخرى. . ولعل ذلك يزيدها جاذبية في عيون البعض!

١٩٩٤/٨/١٩

نملة داخل ماكينة

قبل أن تُسافر إلى سان فرانسيسكو «سيخوفونك» من الزلازل الكثيرة هناك. من يخشى الزلزال إذا كان عمره زلازل متواصلة؟

في الفندق ستنتظرك مفاجأة: ثمة تلفزيون في الحمام لا في غرفة نومك فقط!.. وهي ظاهرة غير مفرحة ولا وجيهة، إذ لم يعد بوسع الإنسان أن ينفرد بنفسه حتى تحت «الدوش» مغنياً أو منصتاً إلى صوته الداخلي، محاوراً ذاته وربما محاسباً إياها.

في مطار كينيدي في نيويورك ثمة مقاعد انتظار، ولكل مقعد تلفزيونه الخاص الذي تلقمه قطعة معدنية فيعوي بالإعلانات وينهمر منه الرصاص عبر المسلسلات البوليسية. كأن هذه المقاعد إيذانٌ بانتهاء زمن الأُلفة والحوار مع الغرباء في صالات الترانزيت أو مع رفاق الأسفار الطويلة في الماضي حيث يروي كل واحد قصته كما في **كانتربري تيلز** لتشوسر و **دي كاميرون** لبوكاشيو. أهو إيذانٌ بموت عالم تشوسر وبوكاشيو وما يمثلانه لحساب دونالد داك وميكي ماوس وجاك ذي ريبر (جاك السفاح)؟ ظاهرة التلوث الصوتي تُعاني منها أينما تجولت.. وتتعجب لماذا تتكلم المراهقات الأميركيات بصوت مرتفع يشبه صوت ميكي ماوس أم أنه هو الذي يقلدهن؟

في فندق ديزني لاند في ضاحية لوس انجليس ثمة ملاعب وبرك سباحة ومراكب ـ دراجة تجذّف فيها بقدميك، وعاملات حسناوات للإنقاذ من الغرق (أو العكس). ويبدو الصخب في تلك المساحات جزءاً من زخم الحياة، ولكنك لا تستطيع أن تفهم المبرر لوجود ثلاث شاشات تلفزيونية متلاصقة في ركن هادىء لبار رومانسي قرب البركة تعوي كلها دفعة واحدة! السلالم المتحركة هناك تحدّثك وتطلب منك الانتباه إلى العتبة فتنجو برجلك وتحرق أعصابك، والمصعد نفسه لا يدعك بل يثرثر ميكروفونه بلطف لزج!

وظاهرة التلوث الصوتي تتصاعد ولا يُبالي بها أحدٌ قياساً إلى ردة الفعل الهستيرية على التلوث التبغي. ويبدو عالمنا المعاصر هزلياً فيما يبيح وما يحرّم، فهو مثلاً يزرع للناس قلوباً كي يطيل في عمرهم، ويقتلهم بالتكنولوجيا ذاتها التي مدّت في حياتهم توتراً

وهموماً، حيث يصابون بالسكتة من الإحباط والاختناق والزحام ووحشة المدن الكبيرة والتلوث الصوتي. ولن يدهشني أن أرى ذات يوم مقبرة وفوق كل قبر تلفزيونه الخاص بالزائرين، ناهيك عن تلفزيون المرحوم في التابوت معه.

★ ★ ★

وإذا كنتَ تجهل التعامل مع الآلات باستثناء الراديو العتيق البسيط فأنتَ في ورطة. فالألفة مع الماكينات من شروط الحياة في المدن الكبيرة في الغرب. وليس بوسعك مثلاً إهدار وقت موظف البنك في سحب مبلغ من رصيدك، بل عليك بالماكينات الخاصة بذلك في الشوارع. تريد أن تسأل عن موعد إقلاع الطائرة؟ لا أحد يرد بعد الآن على الهاتف غير آلات التسجيل التي تحيلك على آلة «الميني تيل» الملحقة بالكومبيوتر. وإذا كنت تجهل طريقة استعمالها، فمن الأفضل لك أن تعود إلى قريتك (وهو ما سأفعله!). وحتى إذا أردت الصعود إلى غرفتك لن يكفي أن تضغط زر المصعد على الدور الذي تنزل فيه، بل عليك بإدخال بطاقة أمنية في ثقب عرضاني لماكينة خاصة بذلك، وهذه البطاقة الممغنطة هي نفسها مفتاح بابك وأنت الذي ما زال يحنّ إلى مفاتيح الأبواب العتيقة في الفنادق القديمة المعلقة بقطع معدنية كبيرة كي لا تنساها في جيبك وتفوتك عبارة صباح أو مساء الخير من فم الموظف اللطيف.

هنا لا صباح ولا مساء الخير، فالبطاقات تحاور الفواتير داخل الكومبيوتر. وعليك أن تراجع الفاتورة على شاشة تلفزيونك في الغرفة «أو الحمام» بعد أن تضغط على زر خاص فتتحول شاشته إلى كومبيوتر موصول مباشرة بكومبيوتر المحاسبة في الفندق. وبوسع بطاقة الائتمان أن تسدد فاتورتك دون الحاجة لمخاطبة أنسي!

★ ★ ★

من أجل الدخول إلى قاعة الإفطار في الفندق، عليك أن تضع بطاقتك (أي مفتاح غرفتك) في ثقب آلة تتحكم بالقفل، بدون صباح الخير.

الطعام على المائدة تختار ما تشاء. لا تكلم أحداً إذ يربض فوق مائدة الطعام جهاز تلفزيون معلّق في الأعلى كوثنٍ لقبيلة بدائية، تتناول إفطارها بعيون منوّمة بالتلفزيون مع جرعات كبيرة من التلوث الصوتي ولكن التدخين ممنوع!... آلات تكاد تحكم المدينة بحماقة متناهية، فالنهار غائم وبارد، لكنِ آلة التبريد تنفخ رياح سيبيريا، وجهاز التدفئة (الشوفاج) الملاصق لطاولتك يعمل أيضاً حاملاً رياح أفريقيا. مدفأة وآلة تبريد! هكذا قرر الكومبيوتر الذي يدير ناطحة السحاب هذه، وأنت نملة صغيرة داخل ماكينة هائلة، فالتهم إفطارك ودع الآلات تسرق روحك، وتعذبْ شيئاً فشيئاً ريثما تتحول بدورك إلى

آلة، وتبدو على وجهك «يوفوريا» الغطرسة والفرح الطاووسي بالذات ككل رعايا الماكينات. وحذار من أن يضبطك أحدٌ متلبساً بشم زهرة، سيضحكون منك لأنك مثل نحلة تحاول امتصاص الرحيق من زهرة اصطناعية. وحذار أيضاً أن يضبطك أحدٌ متلبساً بتأمل الحي الصيني وسوق الصيادين في الـ «فيشرمانز وورف» وناطحة السحاب الهرمية الطريفة والبحر، عبر الجدران الزجاجية للطابق ٣٤ حيث تتناول فطورك وإلا لسخروا منك لأنك لا تحدق في التلفزيون كأي مواطن عصري صالح.

* * *

ما الذي جعل إدارة الفندق تسبغ عليك «شرف» الإقامة في جناح الوجهاء V.I.P.، وتمنحك غرفة لحمامها تلفزيون وبطاقة تؤهلك لتناول الفطور مع أهل الوجاهة في «الكلوب»؟ غلطة بسيطة لصالحك في الكومبيوتر قام بها موظف الوكالة السياحية الباريسية الذي رتّب لك أمر بطاقات السفر والحجز في الفنادق. لقد ظنك فرنسياً، وها هم في كل فندق أو شركة طيران يُعاملونك على أنك فرنسي.

وإذا كُنتَ قد ذُقتَ أهوال المطارات والفنادق لمجرد أنك عربي، ستلحظ أنهم فجأة ـ ودون أن تدفع دولاراً واحداً إضافياً ـ ينتقون لك أفضل الغرف في الفنادق. وأحياناً يمنحونك مقعداً في «الكلوب» بالطائرة دونما مقابل، وبقية التسهيلات التي لا حدود لها (حين يرغب الموظفون في ذلك)! تماماً كالعراقيل والإزعاجات التي كانت من نصيبك لمجرد أنك عربي وتسدد دونما ذنب فاتورة الوهم الشائع في الغرب: إنك إرهابي أو ثري بلا عراقة إنسانية أو مهرب مخدرات أو سلاح.

في لوس انجليس قامت موظفة شركة الطيران في الفندق الهوليوودي بتبديل بطاقتي الرخيصة التي ترغمني على المرور بدنفر وكليفلاند كي أطير إلى واشنطن بأخرى تمر بهيوستن فقط، موفرة عليّ تسع ساعات طيران والهبوط بلا مبرر في المطارات، ودون أن تتقاضى مني دولاراً إضافياً. فقد قضت إجازتها في السنة الماضية في فرنسا وكانت سعيدة جداً، وعاملها الناس بشكل رائع وتريد أن ترد الجميل للفرنسيين!! أردت أن أُطلعها على جواز سفري اللبناني، وأقول لها الحقيقة ولم أجرؤ، إذ خفت أن يكون لها قريب سبق أن خُطف في لبنان وأقوم أنا بتسديد «الفاتورة»، وتلغي لي الحجز وترغمني على الذهاب مشياً إلى واشنطن.

في كل فندق حللت فيه كان عنواني في باريس داخل الكومبيوتر يستدعي تعليقات كلها ودّ، ويغبطني أصحابها لأنني «باريسية»، وألقى منهم أفضل معاملة. فالتراث الفرنسي والمطبخ والأناقة والثقافة الفرنسية.. هذه كلها تلقى احتراماً في أميركا يُشبه

الانبهار. وذُقتُ طعم أن يكون المرء جزءاً من دولة محترمة في العالم. وحزنت لأن المكان الذي ينتمي قلبي إليه لم يعد يثير غير الخشية والإشفاق في آن... وكانت هذه المعاملة اللطيفة تؤلمني، إذ أُقارنها بما ألقاه عادة لأنني عربية في زمن الانحطاط والاقتتال الذاتي والإيذاء العشوائي لأنفسنا وسوانا.. وأغصّ لأن قلبي ما زال في الـطرف الآخر من الكرة الأرضية وما زلت أضمر لبيروت العودة. فكيف تتبدل معاملة الدنيا لنا ولقومنا إذا لم نبدل ما بأنفسنا؟

١٩٩٤/٩/٢

بيت عائم في «سوساليتو»

تبدو سان فرانسيسكو بمرتفعاتها مثل سيدة جميلة ممددة على الشاطىء ترتدي ثوب الغابات وتغطس قدميها في الماء، حريصة على ثوبها المخضر حرصاً واعياً تكرسه القوانين الصارمة. ولذا لم تتحول شواطئها الجميلة إلى غابات من الاسمنت والحديد المكدسة بين القلب والبحر كأنصاب للبشاعة، وهو ما يحدث للأسف في غير مكان من لبنان. الأخ والصديق الحميم لأسرتنا الأستاذ س.ك. كتب يقول لنا «تحية من بيروت التي فقدت ويا للأسف آخر مرجاتها الخضراء وشجيراتها الوادعة أمام زحف الاسمنت المسلح بفضل شراذم المضاربين والمقاولين. فهم يعيشون الآن عصرهم الذهبي في بيروت ما بعد الحرب. ويكفي أن تقفوا على كورنيش البحر قبالة أوتيل الريفييرا وتنظروا إلى ما حل بجرف رأس بيروت الأخضر البديع لتعلموا أية جريمة منكرة تنزل بهذه المدينة المبتلاة بأهلها قبل غيرهم. وظلم ذوي القربى أشد مضاضة.. على ما قال الشاعر الجاهلي... وإنها لجاهلية حتى الانقراض على ما أرى أنا، وبئس المصير»!!...

نعود إلى سان فرانسيسكو. المدن البحرية تعيدني دوماً إلى بيروت، أما المقاهي الخشبية فوق الماء فتزرعني من جديد في مقهى «الحاج داوود» الذي ما زال قائماً داخل ذاكرتي بكل أخشابه الحلوة المنخورة.

ثمة أشخاص يحرصون على النسيان وهذا حقهم، لكنني من الذين يجدون الذاكرة واجباً روحياً في العلاقة مع المدن على الأقل!!

سان فرانسيسكو ليست من هذا الرأي حين يتعلق الأمر بتلك الجزيرة الجميلة التي تسبح مقابلها بثوب من ضباب: إنها «ضبابة» سان فرانسيسكو الشهيرة التي لا تفارقها معلّقة بين الشمس والماء تتكاثف حيناً وترقّ أحياناً. أما الجزيرة واسمها «ألكاتراز» فكانت مقراً لسجن شهير بالغ القسوة يتعذر على السجناء الهرب منه. لكن سان فرانسيسكو قررت نسيان آلامهم وذويهم (والأبرياء منهم، وفي كل سجن بريء ما لأن العدالة البشرية ناقصة مهما اكتملت) وهكذا حولت الجزيرة إلى مكان «للهيصة» السياحية على الطريقة الأميركية.

★ ★ ★

تتأمل جزيرة ألكاتراز وأنت واقف تحت الجسر الذهبي الشهير (غولدن غيت)... السجون أينما كانت تثير غصتك. لن تتورط في الدفاع عن «إنسانية» المجرمين على الطريقة الأوروبية وتنسى ضحاياهم لأن المجرم حين يهدد حياة الآخر يكون قد قتل إنسانيته وتنازل عن حقه فيها. لكنني أفكر بالأبرياء، وسجناء الفكر، وما أكثرهم في كوكبنا حتى لتقترن فكرة السجن في الخاطر بالقمع أكثر مما تذكر بالعقاب العادل.

لكن صلة سان فرانسيسكو بجزيرة ألكاتراز المجاورة لجزيرة «اينجل ايلند» أي الملائكة (كأنها ثنائية الخير والشر!) لا صلة لها بهذه التأملات كلها. فاركب القارب السياحي ورافق قطيعاً فضولياً مثلك إلى الجزيرة وتصور داخل السجن خلف القضبان كأنك المجرم الكبير آل كابوني، وتخيل كم سيضحك الأهل والجيران حين يرون هذه الصورة. وإذا كنت من رعايا دوار البحر، لست مضطراً للذهاب إلى ألكاتراز فالجنون الأميركي السياحي متوافر على الشاطىء حيث تستطيع أن تتصور بثياب المساجين وعلى صدرك رقمك في «ألكاتراز»!

وإذا كنت عاجزاً عن الاستمتاع بكل ما يمت إلى السجون بصلة، لا تشتر قميصاً عليه صورة سجنك ورقمك فيه، أو أقلاماً وقبعات «تخلِّد» تلك الزيارة، واكتف بنزهة بين رصيف المرفأ رقم ٤١ حيث تنطلق رحلات ألكاتراز والرصيف ٣٩ حيث الفعاليات الإنسانية الجميلة، من مسرحية لخيال الظل وأخرى للهواة وللحواة (في فيشرمانز וورف) وسواهم من الماهرين في ألعاب الخفة، ومدينة ألعاب مصغرة للأطفال، وماكينات للحقيقة الافتراضية أي للوهم، ترتدي خوذتها المعدنية وسماعاتها على رأسك فترى داخلها شاشة تلفزيونية تعرض لك المكان الذي تتوهم أنك تتحرك داخله، والعدو الذي عليك أن تبارزه بسلاح فضائي، وتغرق في معركتك وتبدو من الخارج للواقفين «دون كيشوت» يقاتل طواحين هواء وهمية. هذا النمط من «المقاتلين» تعرفه وعايشته عن قرب بكل خزعبلاته «الميليشياوية» وتستعيد صلتك الخائبة به بمرارة ذكرياتها وتحزن. لماذا تدفع بك بعض المباهج الأميركية السياحية إلى الحزن؟

★ ★ ★

تعترف، ثمة مباهج سياحية أميركية تضخ النشوة في قلبك، منها مثلاً زيارة إلى قرية الفنانين وتدعى «سوساليتو» ولا تبعد عن المدينة كثيراً، وبيوتها من الخشب العائم على شاطىء المحيط الهادىء. تلك القرية الطافية على وجه الأحلام والذكريات ستأسرك بالبيوت ـ القوارب فيها وبجمالها الطبيعي، ومناخها الإبداعي الإنساني بين الفنانين

والأدباء وصيادي الأسماك وبعض الأثرياء المشاهير من مخرجين ونجوم وكتّاب يهربون إلى قصورهم ـ اليخوت فيها لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. وإذا قررت الإقامة فيها فترة خلال إجازتك، فسيطالعك في الليل منظر بديع لكوم من المجوهرات المضيئة هي مدينة سان فرانسيسكو في الخليج المجاور. ويذكرك المشهد ببيروت أيام زمان حين كنت تراها من خليج المعاملتين!

من اللحظات السياحيِة الحلوة في سان فرانسيسكو أيضاً إطلالة من هضبة «توين بيكس» على المدينة. إنها تذكِّرك بمنظر دمشق من قاسيون كما حفظته في ذاكرتك منقوشاً كوشم لا يمحوه الزمن. تبدو المدن من المرتفعات المطلة عليها وديعة كالأطفال والأشجار الضاربة جذورها في العراقة والزمن. وتتعجب لماذا اختار مخرج أميركي اسم «توين بيكس» عنواناً لمسلسل تلفزيوني شهير كله مخدرات وجرائم غامضة واختناق، فالمكان يوحي بالهواء النقي والرحابة والتنهد بارتياح! ثمة لحظات تشعر فيها أن المسلسلات والسينما الأميركية تشوهان صورة أميركا حيث تحولان شوارع مدنها إلى متاحف حية للرعب، ويصير ترام (ترامواي) سان فرانسيسكو اللطيف الأليف مكاناً لمطاردات دموية، ناهيك عن شوارعها ومدينتها الصينية.. ولكن، من أنت حتى تقرر؟ أليس أهل البيت أدرى بما فيه؟

★ ★ ★

إنه الليل الحنون المعتم الهادىء كرحم أم...

إنه الليل وأنت جالس في بيتك العائم على وجه الماء بعدما استأجرته في قرية الفنانين سوساليتو. تستطيع أن ترى عبر نافذتك ذلك المركب الآخر الذي شيده صاحبه على صورة تاج محل. قصيدة حب مائية. إنه الليل العتيق، حيث صوت الموج وحده هو السيد، لا هدير زحام السير وأبواق السيارات ونباح المدينة الهادر. أما الضجيج الذي قد تشكو منه هنا، فهو صوت ضفدع البحر الليلي الذي يحلو له الغناء ساعة ونيف (كحفلات أم كلثوم مثلاً وسهرات الطرب)، وغيره من مطربي الليل كالفقمة والحوت بخواره الخاص وبعض الأسماك التي ترندح عبر تقلص بعض عضلاتها! ويا لها من سيمفونية ليلية تذكِّر بصوت الصراصير العذب في الغابة. تحبه بيتك العائم هكذا على وجه الماء كما العمر عائم على وجه القارات. تكتب طويلاً، فالكتابة صرخة استغاثة بمعنى ما، حيث يخط المرء صدقه، ويضع الرسالة في زجاجة ويقذف بها إلى الموج ولا يدري إلى أين تمضي وأية يد ستفك إسارها وتطالعها، وقد تفهمها وقد لا تفعل، وقد تتعاطف معها بل وتجد ذاتها فيها أو ترفضها. فالكتابة فعل مغامرة، وليس بوسع مجانين

الكتابة إلا الاستمرار حتى وإنْ التقط زجاجاتهم بين آن وآخر من لا تعني له شيئاً.

فالكتابة هي الجنون الذي لا شفاء منه إلا بالموت. يرتعش بيتك العائم على سطح الماء كما البيوت الحجرية في الزلزال.

ولكن المرء ينسى خطر الزلازل في سان فرانسيسكو ربما لأنها مدينة مدت جذوراً إنسانية حية في تربة الفعاليات الثقافية والفنية والمسرحية الراقية... وربما لأن التجارب علمتنا أن الزلزال الجغرافي ليس أخطر أنواع الزلازل على المدن... فنمْ في بيتك المائي العائم وانعم فيه بزلازل الكتابة!

١٩٩٤/٩/٩

هوليوود: «رولز رويس» أمام بابك!

حين تحلق بك الطائرة فوق لوس انجليس وضاحيتها هوليوود، بوسعك أن تميز منطقة بيفرلي هيلز/هوليوود من شهوة الأزرق التي تصبغها. وأعني بشهوة الأزرق عشرات برك السباحة التي تميز الفيلات الفخمة في تلك المنطقة ويستحم فيها النجوم وأحلامك. وحتى الفيلات «الفقيرة» التي لا برك في حديقتها، طُليت سطوحها باللون الأزرق!

من قريب تبدو هوليوود مكاناً محزناً بعض الشيء. فالفيلات الفخمة للنجوم ليست طالعة من شهوة الأزرق بل من رعب القضبان التي تذكّر بالسجون. إنها مسورة بالتكنولوجيا وصفارات الإنذار والصدمات الكهربائية للمتلصصين، وللأسوار فيها أسوار، وتبدو من الخارج أشبه بالقلاع منها بالبيوت التي تدور فيها حياة يومية بسيطة معافاة، وعلى أبوابها لوحات تحذرك لا من الكلب المسكين «المفترس»، فتلك «موضة» قديمة، بل من الحارس المسلح برشاش. تأتي حاملاً أحلامك الطفولية القديمة لتعمدها في شهوة الأزرق الشاسع الحنون، فتجد نفسك تدور في قرية مذهّبة السجون، والكاميرات على أبواب الفيلات تقوم بتصوير كل ذبابة تمر وكل سيارة، وكل سائح مثلك زاده الخيال، يريد السياحة داخل أحلام الطفولة والمراهقة مع السينما واستعادتها، فيجد نفسه داخل التكنولوجيا لأبواب بلا مقابض وستائر معدنية تعلو وتهبط على مداخل المرائب (الكاراجات) كما في بيوت الأشباح، وحراس بقمصان مضادة للحلم والرصاص معاً.

★ ★ ★

ليس بوسعك التسكع في هوليوود وأنت تسترجع ماضيك الطفولي مع الحب حين كنت صغيراً واكتشفت السينما للمرة الأولى، ولمحت أول قبلة على الشاشة. ولن تسمع صوت والدك وهويطلب منك أن تدير وجهك عن الشاشة ريثما تنتهي القبلة حرصاً على «أخلاقك»، ولن تتذكر بحنين ذلك الوالد الرقيق الخائف عليك الذي كان يراقب الأفلام قبل أن يصطحبك إليها ـ وتشتد المراقبة إذا كان المتفرج أنثى وعربية ـ!

ولن تمشي بين بيوت النجوم الذين أيقظوا مشاعرك الأولى في عتمة الصالة

السحرية. ويستيقظ فيك الحنين إلى الأب وإلى تلك اللحظة الأليفة الطريفة كلما تجرأ البطل الهوليوودي على تقبيل البطلة بحشمة ذلك الزمان وهمس الوالد في الظلام: أديري وجهك!

ويتعالى الصفير والتصفيق في الصالة الدمشقية مع كل قبلة!

لن يكون بمقدورك أن تستعيد تلك الأصوات الغالية المتمازجة ـ كما في الأحلام ـ لموسيقى الفيلم وهمس الوالد اللاعن لمشاهد التقبيل و«قلة الحياء». فصوت الدليل السياحي يطغى عليها كلها وهو يروي لك فضائح المقيمين في هذه القصور من نجوم. والأمر لا يعنيك حقاً، فهم رموز لحلمك المكسور ولا تهمك تفاصيلهم الدنيوية، فحياتهم من شأنهم وحلمك من شأنك. وليس من حقك أن تحمِّلهم مغبة أحلامك!

★ ★ ★

التسكع في هوليوود غير ممكن، فهي بلدة بلا أرصفة، ولا مفر من السيارة، أو «باص» الرحلات السياحية الجماعية. ولعلها القرية الوحيدة في العالم التي تم تعبيد شوارعها بطريقة لا تسمح فيها لأي مخلوق بالمشي على قدمين دون أن تدهسه سيارة. ومهما حاولت الحد من خسائر الحلم بالذهاب في سيارة صغيرة لمجموعة سياحية لا يزيد عدد ركابها عن عشرة أشخاص، فالمشكلة هي نفسها: إنها ميكرفون الدليل السياحي الذي يتوهم أن الناس كلهم حضروا لسماع فضائح المقيمين والشائعات عنهم. وحين يمر مثلاً أمام فيلا لانا تيرنر ويخبرك بأن ابنتها قتلت لها عشيقها في هذا البيت تشعر بالرثاء لأن مأساة كهذه صارت موضوع شماتة متلذذة. وحين تنفتح أسوار قصر اليزابيث تايلور وتخرج سيارة يفرح الدليل السياحي كأنه سجل نصراً ويتوقف الباص لتتلصص على السيدة ومن معها، فتشعر بشيء من الخجل الداخلي لهذا الاعتداء على الحلم ولو بالنظرة الصفيقة. ولا تلوم «النجوم» على السجون التي يعيشون فيها ما دام ثمة من يعاملهم مثل مخلوقات الأقفاص في حدائق الحيوان. وإذا كنت لا تحب الثرثرة عن حياة الآخرين وفضائحهم (وليس بيننا من تخلو حياته من قشة في عينه أو خشبة) ولا تستمتع بالتلصص على خصوصيات النجوم، فلا تذهب إلى هوليوود بذكرياتك الطفولية الغابرة التي جئت تفك ضفائرها وتسرِّح شعرها. فأنت هنا في هوليوود «الفترينة» التجارية المليئة بسلع براقة (البزنس).

★ ★ ★

في «صن ست ستريب» بهوليوود ـ أي شارع غروب الشمس ـ شاهدت مرآباً يضم عشرات السيارات للبيع، بينما رولز رويس حمراء فاخرة تضيء بطريقة استثنائية،

وأذهلني أن ثمنها يعادل ثمن فردة حذاء في بيفرلي هيلز أي ٩٠٠ دولار. كيف يمكن لسيارة رولز رويس جديدة فاخرة كهذه أن تباع بهذا الثمن البخس؟ وسألت البائع فقال لي: هذا هيكل سيارة بلا محرك كما في السينما، وإذا حاولت الجلوس فوق ما يبدو لك مقعداً فاخراً فسوف يتحطم «الكرتون» الملون تحتك! . . .

سألته: وماذا عن التلفزيون فيها؟ والتليفون؟ والبراد؟ والبار؟ قال: كلها ديكورات من البلاستيك الملون.

سألته: ولماذا تباع؟

قال: للوجاهة. إنهم يشترونها لإيقافها أمام بيوتهم. الأثرياء يفعلون ذلك إذ لا خوف عليها من السرقة. ومتوسطو الثراء من سكان حي «بيل اير» - أي الهواء الجميل - يشترونها لغش الدائنين وتطمينهم على الحالة المالية لأجل الاستدانة! ألا تعرفين أن البنوك لا ترضى بتديين إلا الذين لا حاجة لهم إلى المال من الأثرياء؟ ألم تسمعي القول بأن البنك هو البائع الذي يعطيك مظلة حين لا تكونين بحاجة إليها، ويسحبها منك إذا أمطرت عندك؟ هذه الرولز رويس المزورة تطمئن مندوب البنك، ونصف الذين يعيشون في هذه المدينة يعيشون على الاستدانة والحبوب المنومة والمنبهة ويقامرون ويخسرون في ليلة ما ربحوه في عمر. فعلى النجم الأميركي أن يبدو متهوراً ومجنوناً وينفذ كل ما يحلم الناس بالقيام به من حماقات ونزوات وإلا سحقه نظام النجوم أو وضعه على رف الغبار بالإهمال أو النسيان.

وقدم لي فاتورة على الكومبيوتر عليَّ أن أدفعها مقابل الوقت الذي هدره على «تنويري» بمحاضرته. فقلت له إنني مفلسة.

وهكذا عرض عليَّ العمل كوكيلة لبيع الرولز رويس الخاوية في بلدي، وقبلت فوراً، وقلت له: سيباع الكثير منها في بيروت وسأصير غنية! ضحك طويلاً فقدمت له بدوري فاتورة مقابل ذلك.

وغادرته لمتابعة السياحة داخل حلم آخر لمّا ينكسر بعد!

١٦/٩/١٩٩٤

لوس أنجليس: مدينة «صدّق أو لا تصدّق». .

صبيتان جميلتان تحملان باقتين بديعتين من الأزهار وتقفان أمام باب قاعة الوصول في مطار لوس أنجليس. شاهدتهما وأنا أغادر الطائرة في طريقي إلى التاكسي وقلت لنفسي: لعلهما بانتظار عروسين لتكريم حبهما بالأزهار، أو بانتظار أديب أو فنان كبير ما لمنحه الباقة احتراماً للثقافة، أو بانتظار الأم تيريزا لتقديم الولاء لأعمالها الخيرية. وسمّرني الفضول لأرى، لمن تقدم لوس أنجليس أزهارها. وحين أطل من الباب رجلا أعمال يابانيان تبدو عليهما مظاهر الثراء، تقدمت الصبيتان منهما بالأزهار والقبلات، وقامت سكرتيرة بحمل الأزهار عنهما بينما لحق بهما فريق من المرافقين.

هذا المشهد الصغير الذي قد يطالعك بصور متعددة منذ لحظاتك الأولى في لوس أنجليس يكاد يلخّص الايقاع النفسي للمدينة وضواحيها كبيفرلي هيلز وهوليوود «وأناهيم» وشواطئها الجميلة مثل لونغ بيتش وفينيسيا وسواهما.

في فندقك في بيفرلي هيلز، ستستقبلك «هيصة» وزفة على الطريقة الأميركية: ثلاث بنات زنجيات جميلات يغنين في الصالون ربما بمناسبة افتتاح مؤتمر ما (أو إغلاقه) ويرقصن بلا موسيقى بينما يتابع الحاضرون أحاديثهم، ويصفق لهن بعضهم من وقت إلى آخر بداعي اللياقة في مناخ غير مريح حيث يمتزج حديث المال بالفن بالطعام الممدود على طاولة خلفية والذباب يتلذذ بالبطيخ الأحمر. وحده شاب يصفق لهن بحرارة هو بالتأكيد مدير أعمالهن ويحاول عبثاً جذب الانتباه إليهن. ويبدو لك صوتهن الجميل خافتاً في محراب المال ورجال الأعمال، فتتعاطف مع استماتتهن لكسر زجاج اللامبالاة الخارجي رغم الارتباك الداخلي لديهن، وتشارك «الامبريزاريو» التصفيق إشفاقاً. من يدري، قد يأتي ذات يوم ينجحن فيه، وحينئذ فقط سيتسابق رجال الأعمال في الصالة على خطب ودهن وتوقيع العقود معهن. . . وقد يذهبن إلى الجنون أو النسيان بدلاً من النجاح؟ من يبالي هنا بمصير الآخر إذا كان ذلك لا يدر عليه المال؟

* * *

في مقاهي «روديو درايف»، الشارع الوجيه الفخم في بيفرلي هيلز، ستلتقي بمجموعة من الصبايا الجميلات اللواتي يعملن نادلات (جرسونات) بانتظار المجد

الهوليوودي الموعود. . مئات الصبايا الحلوات يعملن أيضاً بائعات في الدكاكين التي تمتد على جانبي الشارع المطرز بأشهر أسماء مصممي الأزياء الفرنسيين وسواهم. واحدة فقط ستلمع وتنجح من بين هذا الجيش من الطامحات، وقد تعود بعضهن إلى قواعدها سالمة، أو تتحول إلى مهنة الأفلام الخلاعية وسواها بانتظار «المجد». أحد المقاهي التي يؤمها النجوم والسياح قرب فندق ريجنت بالاس يبدو اختصاصياً في توظيف الجميلات اللواتي يتحدثن بصوت ميكي ماوس ونبرته ومعظمهن من «السينمائيات» الخائبات. والطريف أنهن يتصرفن كنجمات السينما «الكبيرات». فقد ذهبت لشرب فنجان قهوة في الخامسة بعد الظهر لكن إحداهن (وهي شقراء جميلة شاهقة القامة أربعينية) سألتني: هل أريد تناول طعام الغداء؟ وسألتها بدهشة: من يمكن أن يتناول الغداء في مثل هذا الوقت؟

أجابتني ببساطة: أنا! هذا ما أفعله في عطلتي الأسبوعية حيث أسهر ككل الناس حتى الصباح وأنام في النهار! أدهشتني فكرتها عن حياة «كل الناس»! إنها رؤية هوليوودية للحياة، حتى إنني لم أجرؤ على أن أخبرها بأنني تناولت فطوري في الثامنة صباحاً كي لا ترفض خدمتي. لاحظت بعدها أن زبائن مقهى النجوم يتناولون الغداء في الخامسة مساء ويلتهم بعضهم المقانق الوردية الهوليوودية الشهيرة التي اخترعها «شون بين» الممثل وصاحب الملهى لحبيبته سابقاً مادونا. وأدركت أنني لست في «إنائي» بل في دنيا ليست لي. تذهب لتزور متحف «صدق أو لا تصدق»، فتشعر أن التسمية تنطبق على المدينة كلها وأنها متحف واحد كبير يحمل هذا العنوان، وتكاد تسرق لافتة المتحف وتزرعها في مدخل المدينة!!



الثراء «المدقع» في هوليوود وبيفرلي هيلز يغمرك بغيرة مشوبة بالتقزز!!. . . سيارات فخمة تمر بك، لم تر مثلها من قبل إلا في السينما. وهذه سيارة تتوقف في بولفار هوليوود أمام الرصيف، ويستقلها أحد نجوم هوليوود وهو يقودها بنفسه وإلى جانبه كلب هائل الضخامة يرعبك. تخرج من إحدى الغاليريهات صبية جميلة تبدو على ثيابها رقة الحال «نسبياً» وتتأهب للصعود إلى السيارة المكشوفة مع النجم كمن يحقق حلماً طال انتظاره، ثم تتراجع إلى الوراء خوفاً من الكلب. يشير إليها النجم بطرف إصبعه أن تصعد. أنياب الكلب ترعبها، ومباهج الثراء تغريها متحالفة مع أحلام النجاح التي يمثلها النجم. تتحامل على نفسها وتركب في السيارة، ويقفز الكلب فوقها مداعباً فتتظاهر بملاطفته وفي وجهها معالم الذعر المكتوم. يبدو المشهد مثل نبوءة بما ينتظرها في هذا العالم الذي طالما حلمت المسكينة به. إنها مدينة الأحلام المكسورة حيث يصادق

المرء أنياب كلاب النجوم تقرّباً منهم، وهي أنياب رمزية بعضها قاتل أكثر من أنياب «الفك المفترش».

تتابع تسكعك في شارع «شانزيلزيه» بيفرلي هيلز ويدعى «روديو درايف» ويمتد حتى و«يلشاير أڤنيو». ترى نجمات يغادرن الدكاكين محمّلات بالمشتريات من المخازن الشهيرة ويمر بهن صعلوك فقير ما كان ليثير التفاتاً في نيويورك. أما في هذه الشوارع المرفهة المدهونة بطلاء الأظافر(!)، فمنظره يثير الخزي الإنساني. تغادر محلات شانيل صبية يابانية وعريسها الياباني (هذا هو السيناريو الذي كتبته لهما) وهي محملة بالمشتريات. وللمرة الأولى ترى يابانياً ويابانية يتبادلان القبلات في الشارع كالغربيين. وتلحظ أن أهل اليابان تأمركوا أيضاً بقبلات هامبرغرية استعراضية شارعية. المتشرد يتأملهما ويتجاوزني ويختار أن ينتشل الحقيبة الوجيهة من كتف اليابانية ويركض بها. وأنا أرقب الفيلم البوليسي الهوليوودي الذي يدور أمامي بدون بوليس.



أين سيارات البوليس التي تراها في المسلسلات الأميركية تزرع شوارع لوس أنجليس وبيفرلي هيلز وهوليوود؟ لن ترى سيارة بوليس باستثناء واحدة داخل خيالك تركض وسط شارع النخيل أمامك وسبق أن شاهدتها في مقدمة أحد المسلسلات الشهيرة عشرات المرات وفي هذا الشارع بالذات. وإذا شاهدت بأعجوبة سيارة بوليس (خارج خيالك!) لن تعرف هل هي حقيقية أم سينمائية؟ كل ما حولك هنا، يوحي لك بالحيرة: هل ما يدور يدور حقاً أم هو تمثيل؟ أهذا باب ديكور؟ هل خلفه بشر أحياء أم خواء؟ أهذا مقهى نجوم أم مقهى يمثلون فيه أدوار النجوم؟ تركب باصاً سياحياً مثلاً فترى أن معظم الناس يتأملون ما يدور حولهم منقولاً على شاشة التلفزيون الذي يعتلي سدته في مقدمة «الباص» بدلاً من تأمل المشاهد عبر النافذة. التلفزيون يعرض صورة الرحلة التي تقوم بها، لكن الناس يختارون مشاهدتها مصورة على شاشة مؤطرة بدلاً من التحديق عبر النافذة إلى آفاق الله الشاسعة وسمائه الواسعة.

شاشة التلفزيون غلبت النافذة، والتمثيل التهم الحقيقة وتجاوز الخيط الدقيق الفاصل بينهما، وعلى الأرض الإسفلتية لشارع «روديو درايف» تلحظ شقوقاً وسط الشارع خلّفها الزلزال الأخير. كل ما حولك يؤكد أن «الزلزال» في لوس أنجليس مستمر في كل لحظة بمعنى ما، ولكن البعض لا يشعر به!... فهل تحسدهم أم ترثي لهم؟

١٩٩٤/٩/٢٣

هوليوود تصنع الحلم
ثم تحطمه على رأس المتفرّج!

هوليوود القشرة البراقة السياحية تكاد تنسيك أن هذه المدينة ليست مجرد معمل للأوهام، بل هي ذاتها تعيش يومياً خلف الكواليس أفلاماً لا تخلو من العمق المأساوي لممثلين بشر من لحم ودم يواجهون أقدارهم وأهواءهم كل لحظة.

وتأتي استديوهات يونيفرسال في هوليوود فتساهم في التعتيم على الجانب الإنساني الهوليوودي لصالح الجانب التكنولوجي هائل التقدم في صناعة السينما، وتكشف لك «أسرار المهنة» وحيلها التكنولوجية وتجعلك شريكاً في الخدع السينمائية لأفلام طالما أحببتها في رحلة استثنائية وراء الكواليس.

ليس في أوروبا أي مكان مشابه للحديقة «الديزني لاندية» الهوليوودية لاستديوهات يونيفرسال. والتجربة التي تعيشها في زيارتك جديدة بكل معاني الكلمة، وليس ثمة ما يوازي تلك المغامرة، إلا بعض «الرحلات» التكنولوجية داخل «إبكوت سنتر» في أورلاندو بفلوريدا. ها أنت في هوليوود، في استديوهات شركة يونيفرسال الشهيرة، بالضبط في حديقة شاسعة على مرتفع يطل على لوس أنجليس حيث ديكورات خاصة بتصوير الأفلام، وتطرزه مجموعة من المنشآت ترحل داخلها لتصير جزءاً من أفلام ومسلسلات طالما أحببتها مثل «حرب النجوم» و«كينغ كونغ» و«الفك المفترس» و«اي. تي» و«الوصايا العشر» وسواها.

ها أنت هذه المرة تكسر جدار الوهم بينك وبين الشاشة البيضاء للسينما وتصير في الداخل كجزء من الأحداث. وعلى سبيل المثال، نتحدث عن الرحلة «داخل» فيلم «العودة إلى المستقبل». تقف في صف طويل للناس يضم مئات دونما مبالغة، وتنتظردورك وأنت تقرأ طوال الوقت لافتات تحذر أصحاب أمراض القلب أو الضغط أو وجع الظهر والرقبة أو العيون أو الأعصاب المتعبة من الدخول وتمنع طبعاً دخول الأطفال الصغار.

بعد حوالى ٤٥ دقيقة من الانتظار وشاشات عملاقة محيطة بك تحذرك من الأهوال

التي ستصيبك بصوت أحد ممثلي الفيلم هذه المرة، يقودك الموظف، إلى دهليز ومنه إلى غرفة مغلقة تماماً. تتراجع صبية وتصاب بالذعر فتدعي أنها حامل، وتبقى أنت بالرغم من أنك قد تعاني من كل الأمراض التي حذروك من الدخول إذا كنت مصاباً بها. يغلبك حسّ الطفولة والفضول على الهشاشة الجسدية. تجلس في مقعدك في المركبة الفضائية ويبدأ الإقلاع بعد إطفاء الأنوار وتثبيت الإفريز الحديدي للمقعد، وتجد نفسك منطلقاً في الفضاء والعربة ترتجف بك ورقبتك تكاد «تنفك» عن جسدك من ضغط الاندفاع، وصوت الإقلاع يصم أذنيك. وتمر بالأهوال في رحلتك وأنت تخترق حاجز الزمن طائراً عام ٢٠١٥ فوق وادي الهضاب المستقبلي عائداً إلى العصر الجليدي. ويدخل الصاروخ في المغاور ويرتطم ويكاد يتحطم وتؤلمك عظامك وتخاف وتتمسك بمقعدك. وحين تدخل المركبة داخل بركان تصرخ مذعوراً وتنسى تماماً أن القصة لعب في لعب وسينما في سينما. وتتابع الصراخ حين تهاجم المركبة الديناصورات وتكاد تبتلعك، وتعيش أهوالاً أخرى من مختلف الأنماط كالانهيارات فوقك والحروب الفضائية وتنجو كل مرة بأعجوبة حتى تنتهي الرحلة. ويضاء النور العادي فتتعجب لأن المركبة لم تغادر الغرفة، ولكنك كنت فريسة ٢٠ كومبيوتر و ٥٠ ميلاً من الأسلاك الكهربائية التي تحرك الصوت والضوء ومركبتك الفضائية، هذا إلى جانب ٣٠٠ ميكرفون مختلف و ٢٠ ديسك ليزر و ٦٠ فيديو مونيتور على شاشات السقف والجدران وسبع طبقات (دور) من «اومنيماكس» لشاشة قبة وغيرها. . منها أن مقعدك نفسه «ملغوم» يكاد يكسر رقبتك بتحركاته الشبيهة بما كان سيصيبك لو كنت في صاروخ.

مهارة تقنية لا تجاري تعيشها في كل «رحلة» تختارها داخل فيلم. . كأن «تدخل» وسط فيلم «اي. تي» وتشارك الأطفال طيرانهم بالدراجات فوق السطوح ـ كما في الفيلم ـ ثم تتابع رحلتك مع اي. تي في مركبته الفضائية إلى كوكبه العجيب حيث الأزهار الملونة البديعة تتحدث وتغني. . والشرح يطول. . وقس على ذلك ما يحدث لك في «الحديقة الجوراسية» مثلاً.

وهكذا بعد أن تبني لك هوليوود ذروة الحلم تعود فتريك كم أنت هش بمواجهة تحالف التكنولوجيا مع حواسك وأوهامك. وتكسر لك الحلم تماماً حين تركب القطار الذي يدور بك في الاستديوهات ويكشف لك أسرار الحيل السينمائية للمشاهد التي طالما أذهلتك، كمنظر كينغ كونغ على ناطحات السحاب، والحرائق في نيويورك. ويمر بك القطار داخل الحرائق المزيفة ويكاد كينغ كونغ الكرتوني يدوس حافلتك والدليل يشرح أسرار الحيلة، ثم يدخل القطار نفقاً ينهار فوقك، ويفسر الدليل «تقنية» الخدعة. وها هو

شارع ماطر (والشمس في كل مكان آخر مشرقة!) وتهب العاصفة فتكسر شجرة وتقع على الأرض، وبعد قليل تعود الشجرة واقفة (بمحرك) ويكف المطر «الاصطناعي» عن الهطول.. ترى غواصات السينما وإذا بها مجرد دمى يقومون بتكبيرها مرات على الشاشة!.. وترى كيف شق موسى الماء بعصاه في فيلم الوصايا العشر ومشى الناس وسط الموج دون أن يغرقوا، ويمشي بك القطار على الدرب ذاتها وسط بركة ضحلة وتكاد لا تصدق أنهم مثلوا هذا المشهد المهيب فيها!

أما سمكة القرش المرعبة (جوز) فهي تشبه في حقيقتها فأرة، والذنب مجرد خشبة صغيرة كبقية الديكورات! أما بيت الرعب الذي يملكه أنتوني بيركينز (أو بالأحرى بيتس بطل فيلم هتشكوك الشهير سايكو) فهو مجرد مكان صغير عادي لا يلفت الأنظار ناهيك عن الديكور الخشبي حيث دار مشهد القتل الشهير بطعن البطلة (جانيت لي) تحت الدوش بسكين مرعبة لم تغادر كوابيس المتفرجين حتى اليوم!!..

بعد هذه الزيارة الممتعة، ينكسر جدار الوهم، ولا تعود قادراً على متابعة أي فيلم أو مسلسل تلفزيوني دون أن تتذكر أن القصة «كذب في كذب» وستفسد عليك هذه الخواطر متعة الاستغراق في لعبة الخيال.. ولكن هذه هي هوليوود، إنها تحب أن تصنع الحلم وأن تحطمه في آن ولو على رأسك!

١٩٩٤/٨/٢٦

رحلات سياحية للنميمة والحسد

تبدأ الرحلة إلى هوليوود منذ النهاية، أي منذ نهاية درب الفنان، حين يصل إلى الشهرة والمجد، وتتاح له فرصة طبع آثار يديه وقدميه وتوقيع اسمه في الاسمنت نصف الجاف أمام سينما «المسرح الصيني» أو «مانز تشاينيز ثياتر» في الباحة الخاصة بشراء البطاقات والانتظار. ودار السينما الشهيرة هذه تقع في قلب شارع النجوم (بولفار هوليوود) حيث تم تطريز الرصيف بنجوم ذهبية، وكل نجمة تحمل اسم فنان كبير تكرمه البلدية (هو يدفع النفقات عشرات آلاف الدولارات)، فتقرأ ـ تحت قدميك ـ وأنت تمشي على الرصيف أسماء هتشكوك ودين مارتن وبنغ كروسبي وناتكنغ كول وسواهم. أما «باحة الشهرة» التي تحمل بصمات المشاهير وأسماءهم فلها حكاية طريفة.



عام ١٩٢٧ حين كانوا يشيدون دار السينما، جاءت ممثلة شهيرة لزيارة صاحب المسرح الصيني «سيد مان»، وكان اسمنت المدخل لا يزال طرياً، فداسته مرافقتها خطأ واعتذرت. لكن الفكرة ومضت في الرأس التجاري الفني لصاحب السينما، وطلب من النجمة أن تترك له عمداً آثار كفيها وقدميها في الاسمنت الطري وتوقع اسمها. وهكذا بدأ تقليد لا يخلو من الطرافة، كما ردود فعل بعض المعجبين الغاضبة حين تدوس لهم على اسم نجمهم المفضل ـ دونما قصد! ـ وأنت في طريقك لشراء بطاقة سياحية ما. فـ «الكشك» الذي يبيعها يتوسط الباحة أيضاً! وعلى رصيف «هوليوود بولفار» الثاني، مقابل المسرح الصيني الذي كان يعتبر تقديم فيلم فيه في حفل الافتتاح تكريساً لأشهر أفلام تاريخ السينما، تجد فندقاً قديماً عريقاً اسمه «روزفلت» شهد نجمات هوليوود الغابرات الأسطوريات وحكايا حبهن أو ذبولهن وجنونهن.

بعد هذه الزيارة إلى «الأوتوغراف» الاسمنتي، والمسيرة في بولفار النجوم وقراءة أسمائهم ذهاباً وإياباً، يتم الذهاب بالزائر إلى «رحلة تلصص» على بيوت الفنانين. أما الدليل السياحي فهو ليس الأكثر معرفة بالفن بل بالفضائح، ويرويها في ميكروفونه للسياح باللغات كلها متلذذاً بشرورها مثل عجوز ثرثار في مقهى يستمتع باغتياب الذين يحسدهم!

★ ★ ★

في بيفرلي هيلز يشير إلى ناطحة سحاب قائلاً: إن مِلْ جيبسون قفز من هذه النافذة إلى بركة السباحة في فيلم كذا، وإن تعمير الديكورات موضة قديمة وصاروا يجدون أن استئجار الأماكن الحقيقية للتصوير أرخص كلفة! يتابع: هنا أقام الرئيس ريغان أيام كان يحاول صنع نجومية فنية، وهنا احتفل أول رجل فضاء بعودته إلى كوكبنا.

تمر بفيلا طريفة بين «روديو درايف» ـ الشارع الفخم ـ وويلشاير بولفار، بناها صاحبها على هيئة بيت غرائبي ونقلها حرفياً عن بيت سبق ورسمه سلفادور دالي في إحدى لوحاته. الدليل لا يقول لك شيئاً عنه، ويظل صامتاً حتى تمر بقصر «آرون سبيلنغ» فيُفهمك بأن كلفة بنائه ٥٥ مليون دولار، فيه أكثر من ١٠٠ غرفة، منها ٥ غرف نوم له شخصياً، أما خزانة ملابس زوجته فمن ثلاثة طوابق ولها مصعد. ويعيش فيها ٢٧ خادماً وشخصان: المليونير وزوجته.

تكاد لا تصدق هذا الهراء: خزانة من ٣ طوابق ولها مصعد! ولكن ذلك بالمقابل ممكن. والأهم أنه لا يخصك. تشعر أنك في رحلة سياحية مخزية للنميمة و«البصبصة».

ويتابع الدليل متلذذاً: هنا قصر هفنر (صاحب البلاي بوي) الذي تزوج مؤخراً «أرنبة» أصغر سناً من ابنته الصغرى. يصوّر السياح القصر، بينما كاميرات القصر الخاصة بالحراسة تصوّرهم!.. ها هي اللافتة الشهيرة «هوليوود» تتربع بحروفها العملاقة على حضن الجبل، وكانت أصلاً لتسويق مشروع عقاري، وفشل المشروع وبقيت اللوحة. وجاء زلزال فانهارت الحروف لكنهم أعادوها إلى مكانها ودفعوا ٢٧ ألف دولار لتصليح كل حرف!.. واسم هوليوود معناه بالانكليزية «الغابة المقدسة» وهي بالتأكيد من أسماء الأضداد مثل اسم مدينة لوس أنجليس ومعناها الحرفي «مدينة الملائكة!»..

يتابع الدليل: هنا يقيم توم جونز وزوجته تقيم في بيت آخر، وهذا قصر جوني كارسون ولكن زوجته جوانا طردته منه. هذا كان بيت ريغان وكان رقمه ٦٦٦ فبدله إلى ٦٦٨ لأن الأرقام الأولى هي أرقام الشيطان في أساطير أميركا! وهنا بيت اليزابيت تايلور التي تزوجت ٨ مرات، مرتين من الشخص ذاته. وهذا قصر يعمرونه من الخشب خوفاً من الزلازل (ماذا عن الحرائق؟). وهنا أقام هتشكوك. وهنا ما زال أنطوني كوين يقيم وزوجته في فيلا سان كلو بالرغم من إنجاب سكرتيرته لطفل منه. وهذا قصر جوني وايسملر، الطرزان المخضرم والنجم والسباح الأولمبي، ومسبحه على شكل نفق ليقطع المسافات وعلى بابه عبارة «المسؤول مسلح» بدلاً من «احذر الكلب».. وتقول لنفسك:

يا لها من منطقة من الجنة تدور فيها حكايا من الجحيم.

ويتابع الدليل مشيراً إلى بيوت بول نيومان وإلفيس برسلي وبرت رينولدز ومطلقته لوني اندرسن وبربارة سترايسند التي يفرح ببوابتها المفتوحة مشيراً إلى البيت الذي عمَّرته لأختها أيضاً، وقصور ايليان ديزني (زوجة والت) وجودي غارلند وسبنسر تراسي، وأمام قصري غريغوري بيك وانغلبرت هابردنغ تلفتك تماثيل منحوتة من خضرة الأشجار لبستاني وحمارين طريفين!...

★ ★ ★

والدليل يثرثر وأنت سئمت هذا الهراء، وندمت على مرافقتك للدليل السياحي. ولست معنياً بالحياة الخاصة للنجوم فهم بشر وحياتهم كحياة الناس كلهم. إنك معني بالفن لا بالفنانين، كمن يهمه التحليق لا شكل الأجنحة.

تغسل عينيك بجمال الحدائق المدهشة فنياً، وتقرر أن تمنح الأوسكار للبستاني المجهول في هوليوود في فن الحدائق. فالأشجار تبدو وحدها حقيقية وسط هذا العراء الإنساني كله والثراء «المدقع».

في هوليوود تنتشر الملاهي الليلية والمطاعم والمقاصف التي يملكها هذا النجم أو ذاك، ويجلس في ديسكو «هارد روك» مثلاً شبيه لصاحبه النجم لتضليل الزبائن!

كما يتم ترويج شائعات عن تردد توم كروز وسيندي كروفورد وشارون ستون ودون جونسون على هذا المطعم أو ذاك لجلب السياح المعجبين! فعاصمة الوهم هوليوود خبيرة في اختلاق الأكاذيب..

قبل أن تزور هوليوود، تكاد تصدق أن عاصمة السينما هي المكان الذي يتحول فيه المال إلى نور ـ على حد تعبير سيلزنيك ـ لكنك وأنت هناك في زيارة إلى هوليوود البراقة ـ المصرة على أن تقدم نفسها كذلك ـ تكاد تنسى أنك في مكان زاخر بالحياة الإنسانية الداخلية، وتكاد تقرر أن هوليوود هي المكان الذي يحوِّل النور إلى مال، عاصمة للوهم والحلم في آن...

١٩٩٤/٨/٥

ديزني لاند: تجاوزت الأربعين وما زالت طفلة!

في «الضاحية الجنوبية» لمدينة لوس أنجليس تقع «ديزني لاند» كاليفورنيا الشهيرة، والأولى قِدَماً بين الحدائق «الديزني لاندية» الأخرى... ويا لها من «ضاحية جنوبية» لفرح الأطفال ورفاهيتهم.

في الطريق بين لوس أنجليس وديزني لاند في ضاحية «اناهيم» حيث الحديقة، تبدو المرئيات كلها ديزني لاند أخرى كبيرة! ثمة متحف «صدق أو لا تصدق»، ومتحف «المينياتور» أي المصغرات، ومتحف الشمع الذي افتتحته اليزابيت تايلور والمكرس «للفنانين المشاهير»، وحدائق تسلية أخرى على نسق ديزني لاند مثل «بوينا بارك» و«اولد تايم ادفنتشر» وسواهما. بهذا المعنى تبدو ديزني لاند كاليفورنيا امتداداً لروح المكان وليست دخيلة عليه.

الظاهرة التي تلفت النظر في «ديزني لاند» كاليفورنيا هي الزحام الذي لا يصدق. وهو ما يفتقده المرء في «يوروديزني» باريس، وبدرجة أقل في ديزني لاند فلوريدا. هل هو الطقس الكاليفورني البديع والشمس التي تحث الناس على الخروج من بيوتهم إلى الفرح؟ أم شباب الحديقة الديزنية الأولى المتجدد، وهي التي تجاوزت الأربعين من عمرها وما زالت طفلة؟ أم المنشآت الأكبر والأغنى بقطار مستقبلي على سكة واحدة (مونوريل) وألعاب تركز على «دنيا المستقبل» إلى جانب مألوف حدائق الديزني لاند كلها؟ أم أن وجود ديزني لاند في كاليفورنيا الشمس المشرقة، وانغراسها في تربة المكان وروح الناس وايقاعهم النفسي وتاريخهم المحلي هو سر النجاح؟ ألا يفسر ذلك الاقبال المحلي على تلك النزهة مع التاريخ الأميركي في الشارع الرئيسي للحديقة (ماين ستريت) حيث يعيش الأطفال لحظات مع لنكولن وسواه من رموز التاريخ الأميركي؟

★ ★ ★

وإذا كان بعض مثقفي فرنسا قد قام بحملة على يوروديزني بحجة الخوف على التراث الفرنسي، وبدا ذلك مضحكاً بعض الشيء لأن ابتسامة الأطفال لا تقدر بثمن، ويوروديزني ليست مركزاً ثقافياً جاسوسياً بل حديقة فرح للأطفال الصغار والكبار، فإن

بعض مثقفي أميركا تعلموا فيما يبدو من رفاقهم الأوروبيين وها هم يشنّون حملة ضد فرع ديزني لاند الذي يعتزمون تشييده في شمال ولاية فرجينيا (الساحل الشرقي) وتكريسه للتاريخ الأميركي والتراث المحلي.

وقد دافع عن الفكرة بعض المثقفين ومنهم تشارلز كروتامر الذي كتب في مجلة التايم (٦/٦/١٩٩٤) أن إلغاء الفرح غير ممكن بحجة عدم تحويل التاريخ إلى سلعة استهلاكية، وإلا لكان علينا أن نلغي الكتب الفكاهية لصالح الكتب الأدبية!

وديزني لاند هي مرآة أميركا في رأيه، وتمثل تسلية نموذجية للأطفال الصغار (والكبار منهم أيضاً!). وقال إن الذين يخشون على التاريخ من ديزني لاند ثقتهم بتاريخهم ضعيفة. وختم مقاله بقوله: «خففوا ظلكم»، وكان يقصد بالعبارة المثقفين المعترضين.

هذه المحاورات كلها، تضيع في زحمة صراخ الأطفال فرحاً ولعباً في ديزني لاند كاليفورنيا التي يكاد المرء لا يجد فيها موطئاً لقدم إذا تورط بزيارتها في عطلة نهاية الأسبوع. ولكن، رغم الزحام، يشرق الفرح في قلبه وهو يتأمل ابتسامات الأطفال والسعادة بادية على وجوههم، وابتسامة طفل تكفي وحدها لدحر أي نقاش «ثقافي» في غير محله!

١٩٩٤/٨/١٢

بين الشجاعة و «شجاعة الجبناء»

ذات تزلج في سنترال بارك

جالسة بالقرب من حلبة التزلج على الجليد في «السنترال بارك» ـ نيويورك، أتأمل شاباً صغيراً يتزلج على ساق واحدة. يبدو لي درساً في الإرادة والتفـاؤل. يسقط على الأرض. يستعين بيديه وينهض ليتزلج من جديد رغم ساقه الأخرى المقطوعة. تذكرت ابنة الأسرة الأميركية الصديقة التي رافقتها إلى مرتفعات كـولورادو للتزلـج من قبلهم و«الفرجة» من قبلي. وكم فوجئت حين ارتدت ابنة الأصدقاء المعاقة خشبة التزلج في ساقها الوحيدة الباقية لها، وانطلقت تسابق الريح وتصهل فرحاً على الثلج، في حين جلستُ في الركن أتأملها معاقة وقد كبَّلني الخوف!

قالت لي في درب العودة وهي تسخر من خوفي إن مثلها الأعلى صبية أميركيـة تدعى ديانا جولدن أصيبت بسرطان العظام فبتروا قـدمها وهي في الثـانية عشرة من عمرها. لكنها قررت الاستمـرار في رياضتهـا المفضلة وصارت تفـوز في العديـد من المباريات الرياضية حتى انتزعت الجائزة الذهبية الأولى في أولمبياد المعاقين. . وكانت أول امرأة تفوز بها. وتابعت تحديها لعاهة الخوف، فشاركت في تسلق أعـلى جبل بـولاية واشنطن (جبل رينييه) وفازت بالجائزة الأولى، فقلَّدها الرئيس بوش وشاح التفوق لامرأة عام ١٩٩١ في U.S.A، وأثبتت أن العاهة الحقيقية هي الجبن.

★ ★ ★

ما زال الشاب مقطوع الساق يتزلج أمـامي على حلبـة «السنترال بـارك»، وقد انضمت إليه صبية غضة العود مثله، وهما يتسامران ويتضاحكان كعصافـير الحب. . وفرحت بسعادته لأن المعاق في بلادي مرصود غالباً للوحدة والحزن حتى ليكاد يشعر بالذنب عن غلطة القدر معه! . . تذكرت نماذج للشجاعة قرأت عنها وبهرتني. الشاب روجيه كراوفورد، لاعب التنس الذي يمسك المضرب بيد مشـوهة لهـا ثلاث أصـابع ويركض بقدم خشبية! . والشاب فيليب كوريه مشلول الساقين الذي يمارس ريـاضة القفز بالمظلة إلى الأمل، ولكنه يعجز عن الهبوط على الأرض لشلل قدميه فيهبط بمظلته فوق الماء. الأعمى منذ الولادة بـارلي غطس تحت نهر متجلد! وهـا هو تـريفور ويلز

مشلول الجسد لكنه يرسم بفمه، وبأسنانه (بالمعنى الحرفي للكلمة) ويحقق نجاحاً في معارض لندن، متحرراً من آلامه النفسية كمحروم من المشاركة الإبداعية والاجتماعية. وها هم عشرات المعاقين الفرنسيين يطيرون فوق قمة جبل «سان ميشيل» بفضل مساعدة ممرضهم الإنساني وبتمويل من أحد البنوك، ويبدون في طائراتهم الشراعية الطريفة كحلم من أحلام چول ڤيرن.

وها هو المعاق شللاً في القدمين جوزيه غونزالفيه يدخل في تاريخ الرياضة كأول معاق يطير من قمة جبل «المون بلان» بمظلته وبكرسيه الخاص بالمقعدين. إنه أحد الذين حرموا من نعمة المشي فاكتشفوا متعة التحليق.

ومن وطننا العربي يسطع نموذج آخر للشجاعة هو مصطفى إبراهيم، الشاب الجامعي المصري الذي فقد قدميه، لكنه قطع بحر المانش سباحة!..

وقبله عبر السباح خالد حسان المانش بساق واحدة، كما قام بالمغامرة ذاتها خالد شلبي وهو يعاني من ضمور في ذراعه اليمنى. ولا أدري لماذا لا تتطرق السينما العربية والتلفزيونات إلى قصص حياة أولئك الأبطال الحقيقيين ليلهموا الجيل الصاعد بدروس الشجاعة والأمل بعيداً عن المواعظ والميلودراما.

★ ★ ★

الغرب عامة وأميركا خاصة، سبقانا بأشواط في مجال احترام المعاق والتعامل الحضاري معه. والمرء ليس بحاجة إلى أن يكون عميلاً للنظام العالمي الجديد كي يعلن هذه الحقيقة دونما وجل. وأعرف أن الكثيرين سيشهرون على مقولتي تلك سيف التراث، مثبتين أن العرب كانوا الأسبق إلى احترام المعاق وتراثنا يزخر بالأمثلة التي لا أجهلها، لكنني بالمقابل أتحدث عما يدور الآن. فالماضي لا يصنع وسائل نقل جماعية خاصة بالمعاقين ولا مساكن خاصة بهم تسهِّل حياتهم وتساعدهم على الاندماج بالمجتمع كجزء منتج... الماضي صالح لنستوحي منه شرط أن نصنع مستقبلنا بدءاً بحاضرنا.

ولعل الوعي المؤسسي بحقوق المعاق في بلادنا سبق الوعي الشعبي بمراحل. جمعية أصدقاء المعاقين في لبنان مثلاً تقوم بجهود استثنائية. ولكن ما يوازي المساعدات المالية في الأهمية هو الموقف العام للمجتمع من «المعاق». فهو مرصود للشفقة أو للغيتو (أي العزلة)، في حين تبدلت هذه النظرة في الغرب وصارت للمعاقين مجلاتهم الخاصة التي تساهم في ايجاد أعمال لهم وتحلّ مشاكلهم في صيحة أمل جماعية كلها احترام لأدق تفاصيل حقوقهم.

ففي باريس مثلاً، حكمت المحكمة للمعاق جان بول بورغ بتعويض قدره ٢٠ ألف فرنك دفعها فيليب نات صاحب المطعم الذي رفض استقباله، إلى جانب ٥,٠٠٠ فرنك غرامة وستة أشهر سجن مع وقف التنفيذ، واعتذار علني منه. باتريك سيجال يقاضي الآن شركة الطيران التي كادت تحرمه من ركوب طائرتها لمجرد أنه معاق وخلافاً للقوانين الدولية. متاحف العالم المتحضر تفتح أبوابها مجاناً مرة في السنة للمعاقين، والبرامج التلفزيونية لا تخلو من الاحتفاء بشجاعتهم وتقدمهم للجمهور بدلاً من اخفائهم سراً في أركان البيت كعار تتستر عليه القبيلة. تلك كلها أمور لن يؤذينا أن نقلد فيها الغرب أو أن نقوم بها من باب «العودة إلى أصالتنا وتراثنا»، لا فرق. المهم أن نعيها... ونتذكر أن أولمبياد المعاقين أقيم منذ أشهر في برشلونة، لا في عاصمة عربية مثلاً، وافتتحته ملكة اسبانيا برفقة ملكة السويد.. فأين نحن من ذلك كله ومن الدمى المعاقة التي تغزو أسواق نيويورك لتقريب الطفل نفسياً من فئة اجتماعية منسية وتهيئته ليتحسس مشاكلها منذ البداية؟



الأهم من كل ما تقدم التوعية العامة للشركات والمؤسسات والدوائر الرسمية لتشجيعها على استخدام المعاقين بعدما ثبت أنهم عنصر ثراء في العمل يمنح أضعاف ما يمنحه «السليم»، وهي توعية نحن بأمسّ الحاجة إليها في لبنان، حيث يرتع المعاقون انسانياً وينزوي المعاق الشجاع الذي لا تأخذ النظرة الاجتماعية السائدة بيده نحو الضوء، وحيث تسود نماذج «شجاعة الجبناء» في معظم المجالات، فيمارس الجبان غير المعاق جسدياً «شجاعته» على الأضعف منه، ويلعق حذاء الأقوى! وهي «أخلاقية» متفشية في المجالات كلها دون أن يتذكر أحد أن أسلوب التعامل مع المعاقين والأطفال والنساء والشيوخ والمرضى هو مقياس رقي الشعوب... وما أحوجنا في مجتمع «شجاعة الجبناء» إلى تلقي دروس الشجاعة الحقيقية من المعاقين.. والتساؤل في لحظة صدق: من المعاق حقاً؟ هم، أم نحن؟

١٩٩٣/١/٢٩

نيويورك: لأن الأساطير لا تسدد الفواتير

تروي فاليري إليوت زوجة الشاعر الكبير ت. س. إليوت (الفائز بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٤٨) أن زوجها كان يحلو له اختراع أسماء لقطط وهمية مثل «كوكالورم»، و«نوابي برات» القطة الأنيقة، و«تانتوميل»، و«مانجو جيري» وسواها، ويكتب القصائد عن مغامراتها وحكاياها. وحين تثقل على صدره الهموم ويصاب بالأرق يتلو تلك القصائد بصوت خافت في الظلام حتى يهدأ وينام! . . كأن إليوت كان يعود إلى عالم الطفولة من «الأرض الخراب» ويعيدنا معه . . ونحن كعرب ترجمنا قصيدته الشهيرة عن «الأرض اليباب» ولكننا نجهل كتابه الشعري الجميل الذي يضم قصائده تلك عن القطط والكلاب واسمه **كتاب العجوز بوسوم عن القطط العملية**، فهو غير مترجم إلى العربية رغم أنه نقل إلى الدانمركية والألمانية والايطالية واليابانية والسويدية والهنغارية والبولونية . .

ونجهل بالتالي حكاية القط «ميرزا مراد علي بيك» الذي أراده إليوت «قطاً فارسياً أزرق اللون لأن دمه أزرق!» كما روى لزوجته، فنصحته كأي طفل لا يعرف ماذا يفعل بأن يبحث له عن اسم أقصر من ذلك فسماه «ويسكوسكات»، وجاء القط في عيد ميلاد ابن ناشره توم فابر (١٩٣١) مع غيره من القطط لأن إليوت كتب في قصيدته: «يجب أن تلبي القطط الدعوة، حاملة مزاميرها وطبولها لميلاد توماس ايرل فابر» كما تحدث عن ذلك في رسائله إلى الطفل فابر الابن وسواه من الأطفال الذين كان يراسلهم! . .

ولعل القارىء العربي ظل بعيداً عن هذا الجانب الطريف من حياة إليوت وأشعاره لأننا نتوهم أحياناً أن الإبداع هو ارتداء وجه جاد بعيد عن الطفولة . . وإليوت كان طفلاً حقيقياً لأنه عبقري كبير!

هذه القطط التي كان يحلم بها إليوت «تمضي عالياً عالياً» وهي تنشد «رام تام توجر»، وقد عادت إلى الحياة بعدما تقمصت أجساد أجمل بنات أوروبا وأميركا وشبانها، وها هي كل ليلة تركض على مسارح لندن ولوس انجليس وشيكاغو وتورنتو وطوكيو وهلسنكي وبودابست وسيدني وفيينا وهامبورغ وامستردام وباريس ونيويورك حيث شاهدتها للمرة الأخيرة بعد لندن وباريس!

إنه حلم طفولي مبدع لشاعر، شاهده عشرات ملايين المتفرجين في مسرحية موسيقية (ميوزيكل) لقيت نجاحاً خارقاً (تقدم في نيويورك منذ خمسة عشر عاماً. .). بذخ في الأزياء والديكور كلّف الملايين. . ولما كانت الأساطير لا تسدد الفواتير، كان لا بد من الذهاب بحثاً عن الاعلانات ذات اليد المباركة السرية على كل إبداع!. . وها هي إحدى شركات طعام القطط تسدد حوالى مليون دولار من ميزانية المسرحية (في طبعتها الفرنسية!)، والمعروف أن ملايين القطط تشارك البشر مساكنهم في فرنسا وتعاف طعامهم إلى وجبتها الارستقراطية المعلبة الخاصة بها!. .

ما سر نجاح هذه المسرحية إلى جانب «سحر القطط»؟ وكيف استطاعت أن تجذب الملايين من الأطفال ما بين سن الثامنة وحتى الثامنة والثمانين وأنا منهم؟

عوامل عديدة على رأسها تلك الأشعار «السهلة الممتنعة» والتي يقول الملحن «اندرو لويد ويبر» إنه وجدها في معظمها ذات موسيقى داخلية تفرض نفسها، كأن إليوت نفسه لحّنها مثل قصيدة «رام تام توجر». . ثم إن تلك القصائد ذات أبعاد فكرية (لمن يرغب من الراشدين)، فهو يسخر فيها بشكل مبطن من أصحاب القطط البريطانيين ومجتمعهم (حسب رأي تريفور نان)، ولكنها تظل درساً في الأمل والسعادة والحبور. . ومن العوامل الأخرى لنجاح المسرحية التقاء ثلاثة عمالقة في مجال الموسيقى والرقص التعبيري والمسرح هم الملحن اندرو لويد ويبر (ملحن مسرحيتي **المسيح سوبر ستار** و**ايفيتا** الشهيرتين)، وجيليان لين (أستاذة الرقص والكوريوغرافي الشهيرة التي قدمت لنا قبل ذلك رقصات فيلم **كاباريه**) والمنتج مل هاوارد.

ما حكاية المسرحية؟ كل شيء ولا شيء. . تماماً كما يحدث للبشر حقاً. . قطط تتعارف. . تتآلف. . تتشاجر. . تقسو. . تهاجر. . تغدر. . تتصالح. . تعاني الوحشة وتكابد الحب. . تماماً كما في حياتنا اليومية. . ولكن الأهم من ذلك كله هو المناخ الاحتفالي المذهل الذي تخلقه الفرقة في المسرح كله (وسط الناس وفوقهم وتحتهم)، وذلك المزيج السحري المتفجر حياة وإبداعاً المتدفق من الأضواء والرقصات والديكورات والأزياء والأغاني وخفة الدم إلى جانب الثقل الإبداعي. . أبطال المسرحية كلهم يرتدون أزياء قطط وعلى وجوههم «ماكياجها»، وتتدلى منهم أذناب القطط ويجسّدون حيويتها التي تكاد تكون بشرية ويبلغون درجة الروعة حيث يصير الجسد امتداداً لروح العمل الحي المائي الملون المتحرك بعيداً عن أي ابتذال. هذا إلى جانب الروعة التقنية للعرض (المسرح في لندن يدور بأكمله بمقاعد المتفرجين مثلاً!)، ويغتني العرض في كل مدينة بقطط محلية من أبرع الراقصات والراقصين وأعذبهم صوتاً جاء

بعضهم من دار الأوبرا ومن مدرسة الباليه للرقص . .

والمعروف أن ١٢ فرقة قطط تدور حول العالم مجسِّدة حلم إليوت الطفولي وقاطفة النجاح من كل مكان . . وها هـو الشاعـر الشهير الـذي لا تحبه فـرنسا كثيـراً مثلاً، ت.س. إليوت يدخل إليها محمولاً على ظهر قططه الجميلة . . الناقد الفرنسي اوليفييه تود يظن أن الحاجز اللامرئي بين هذا الشاعر وقلوب الفرنسيين يكمن ربما «في روح السخرية المفرطة في أعماله»، ولعـل ذلك بـالذات مـا جعل العمـل ينتصر في قلوب الكثيرين حول العالم وأنا منهم. فالسخرية الذكية لحظة حب استثنائية!

صيف ١٩٩٤

زيارة إلى سيرك بشري أميركي!

حين تحط بك الطائرة في مدينة لاس فيغاس الأميركية تلحظ منذ الوهلة الأولى أنك في مكان يتقن استعارة الرموز الحضارية من الشعوب الأخرى وتتفيهها في آن. ففي المطار تجد النخلة الصحراوية الجميلة التي طالما أحببتها رمزاً للنقاء لكنها هنا ديكورية معدنية، محاطة بماكينات المقامرة التي تلقمها قطعة نقود على أمل الربح. إنه المطار الوحيد في العالم الذي يشبه الكازينو، كأنه مكان للإقلاع إلى الخسارة المؤكدة!

وإذا كنت قد تربيت على كراهية الميسر منذ نعومة أظفارك، فسيكون بوسعك أن تلقي على المدينة نظرة باردة محايدة لا تشوبها هستيريا عشق المقامرة التي تخلّف رعاياها مكسوري الجيوب والقلوب ومهدمي البيوت. وبالتالي سوف تشعر بالضيق أمام منظر مليون دولار عداً ونقداً داخل علبة شفافة تدور على قاعدة ميكانيكية في مدخل أحد كازينوهات القمار للإغراء، والمال يتطاير داخل العلبة وداخل أحلام زوار المدينة مثيراً حمى الذهب.

صحيح أنك «شخص طبيعي» لا يكره المال ولا يتورط في التغزل بمحاسن الفقر كما تفعل بعض الكتابات الساذجة التي تجعل الفقراء جميعاً من الطيبين والأثرياء بالضرورة من الأشرار، لكن المليون دولار حيث هو يبدو دعوة لفقدان الوعي أمام وثن عصري اسمه الدولار!

★ ★ ★

إذا كانت «اللوثة الفرعونية» التي أصابت فرنسا وأوروبا تحمل احتراماً لعراقة تلك الحضارة ـ كما في نظرة متحف المتروبوليتان الأميركي أيضاً إلى عظمة مصر ـ فإن نظرة لاس فيغاس إلى الحضارة الفرعونية تمثل ذروة الابتذال والامتهان والتوظيف المقزز كما في أحد فنادقها الجديدة المشيد على هيئة هرم خوفو بالحجم الطبيعي!

يفتح لك «تحوتمس» باب التاكسي أمام المدخل. نفرتيتي الجالسة خلف الكومبيوتر تعطيك الفاتورة. في مطعم ايزيس تستقبلك كليوباترة بملامح سيريلانكية

وعلى رأسها تاج الأفعى. عشرات من الكليوباترات «الجرسونات» وكل ما حولك يحاول أن يوحي لك بأنك داخل أحد الأهرامات، باستثناء طاولات الميسر وماكينات اللعب المتناثرة حول أبواب «المعابد» الفرعونية التي تحولت إلى بارات. أما «المعبود» هنا فهو المال (الصنم) والملذات العابرة المعلبة في عاصمة الطحالب المضيئة والنيون الملون والجنات الاصطناعية والفخامة رثة الذوق وكاميرات التجسس والكابوس المرفه.

والمقامرة لا تتوقف حتى في المطعم حيث تلاحقك عشرات الشاشات التلفزيونية لكي تستطيع متابعة اللعب وأنت تأكل وتصاب بالقرحة حين تخسر أو تنفجر باكياً فوق صحنك، كما حدث لجارتي على الطاولة القريبة بعدما ذهبت مدخراتها إلى مافيا مص دماء الحمقى الذين تأسرهم هذه الأجواء تاريخية الديكورات ولا يلتفتون إلى المفارقة، وهي أن جوهر الحضارة الفرعونية كان الإيمان بأن حياتنا على هذا الكوكب عابرة بانتظار الانتقال إلى العالم الآخر. أما هنا فيتم توظيف عراقتها كديكورات لـ «عبادة» الدولار وكل بشاعات الحضارة الاستهلاكية المتجمعة في مكان واحد. وحين تلاحظ الساقية (امنحوتب الميسر) أنك تكتفي «بالفرجة» ولا تلعب، تسألك عما دهاك، فتقول لها الحقيقة وهي جهلك المطبق بكل هذه الموائد الممدودة وما يدور عليها من ألعاب، فتعطيك كراساً لتتعلم كيف تلعب (أي كيف تخسر ما تملكه وما تستطيع استدانته!). وتلقي بالدليل في سلة القمامة وأنت واثق أن الجهل نور في هذه الحالة بالذات!

★ ★ ★

كم تعمي حمى القمار بعض العيون عن البشاعات الهائلة في لاس فيغاس. فالفندق الأكبر في العالم مثلاً يبدو منذ مدخله مثل كاراج بشري شاسع، ويقف الفضوليون مثلي أو المنومون بشهوة الذهب في صفوف طويلة للدخول إليه والحصول على غرفة (وقفتي دامت ٤٥ دقيقة!). وتعطيك موظفة الاستقبال خارطة كي تستطيع الوصول إلى غرفتك ولا تضيع في هذا المكان هائل الصخب بين أصوات ماكينات القمار المعدنية والشاشة العملاقة التلفزيونية التي تعرض أمام المنتظرين آخر فنون التكنولوجيا الهوليوودية ليكون التنويم المغناطيسي كاملاً. . . وكي تصل إلى غرفتك أنت مرغم على السير نصف ساعة داخل الكازينو بين المقامرين، وعلى الجانبين مطاعم تفوح منها رائحة كئيبة لطبخ أميركي غير شهي، والسقف مزروع بنجوم اصطناعية، أما النوافذ فملغاة تماماً لأن الشمس تحمل معها الصحو، والصحو ممنوع والحس بالزمن غير مباح إلا عندما تخسر كل ما معك. ولذا يلاحظ الصاحي مثلك أنه ليست في المدينة ساعة واحدة عامة حتى ولا في صالات المقامرة.

ولا يدهشك في أحد الفنادق أن تجد غابة استوائية اصطناعية، فكل ما حولك اصطناعي «ديزني لاندي» لطيف القشرة ومكرّس كي تخسر كـل ما معـك. ولذا لن يدهشك أيضاً أن تسمع في الغابة زقزقة طيور مسجلة على شريط، أما «زمامير» الماكينات في حال الربح أو الخسارة فوحده الهدف، وكل الأقنعة الاستهلاكية الشهية الأخـرى مكرس لخدمته.

ثمة جيش من الساقيات نصف العاريات في ثياب السهرة (والوقت نهار) يرتجفن سراً من برد ماكينات التبريد الخاصة بأعصاب الخاسرين، ونساء بائسات على طاولات خضراء كالدمى. وثمة منظر محزن لن أنساه، يوم غادرت الفندق في السابعة صباحاً للرحيل وفوجئت بعشرات النساء المنهكات والرجال في صالات الكازينو يتابعون اللعب منذ الليلة السابقة دونما نوم!

★ ★ ★

أخطر ما في لاس فيغاس محاولتها «لعب» ورقة الأسرة، ولذا فقد زودت صالات المقامرة بديكورات هوليوودية وحدائق تسلية للأطفال على نسق ديزني لاند، ورفعت شعار: تعال مع أسرتك. فالمرعب أن الأطفال يرون الآباء يلعبون القـمار والأمهات أيضاً، ولا بد لهم من المرور بالكازينو ريثما يستطيعون الوصول إلى الغرف، وبذلك يألفون القمار منذ نعومة أظفارهم كجزء من «المباهج» العائلية وكأسلوب في الحياة كما التلفزيون والسيارة. وهذه الألفة مع ألعاب القمار للصغار والمراهقين تقوم بتربية جيل جديد صاعد مقامر وهو ما لم يحتج عليه أحد بعد هناك. والعلماء والأطباء الذين يقرعون نواقيس الخطر إذا أشعل المرء سيجارة في حضور طفل لم يلحظوا بعد أي هول هو تعوّد أبناء ٢٠ مليون زائر (إلى لاس فيغاس سنوياً) على القمار كجزء طبيعي من الحياة اليومية أو الإجازات الأسبوعية، ناهيك عن زرع «عبادة» المال في دمهم والتعاطي مع الملذات السهلة المعلبة والخواء المرفه والمباهج «الهامبرغرية» كمخدر «حضاري».

وهذا الأمر يخص الأميركان بالطبع. الجانب الذي يخصنا منه هو وجـود آلاف العائلات العربية التي تصطحب أولادها لقضـاء إجازة في لاس فيغـاس وعجائبهـا ـ وبعضها لا يقامر ـ دون الالتفات إلى الجـانب المؤذي لنفسية الفتيـان والصغار، وقـد التقيت بالمئات منهم هناك. والجانب الآخر الذي يخصّنا وهو الأهم يتعلق باستيرادنا لكل قشور الحضارة الغربية عامة، والأميركية خاصة، دون الالتفات إلى نواحيها المشرقة. وإذا كان الكاتب الأميركي كيرت اندرسن يجد في لاس فيغاس علامة على انحـطاط الحضارة الأميركية، فإنه من الأفضل لنا أن ننقل الجوانب الأخرى المشرقـة من تلك

الحضارة كالديمقراطية والحرية واحترام الفرد والمساواة بين الناس والعمل والعلم والبناء، والابتعاد الكلي عن عبادة الفرد.

ومـأساتنـا أننا نتـأثر بصرعـات أميركـا ونستورد معـظمها، وننسى جـوهر تلك الحضارة.

فهل ننحاز إلى أميركا لاس فيغاس ومادونا وميكي ماوس مقابل أميركا «أوراق العشب» والت ويتمان وفولكنر وملفيل وإليوت؟

ومن قال إن الخيار الوحيد لنا كعرب هو بين ميكي ماوس وميكي ماو؟

١٩٩٤/٩/٣٠

نياغارا: شلال صاعد إلى أعلى

الرحيل من نيويورك إلى شلالات نياغارا هو كالرحيل من داخل علبة سردين جهنمية عملاقة محكمة الإغلاق عليك إلى الفضاء الرحب. خروج من زمن الاختناق إلى زمن المدى. هرب من مسيرة النمل وطوابير الدود بين ناطحات السحاب، إلى تحليق العصفور.

تقلك الطائرة من نيويورك إلى مدينة بافالو القريبة من الحدود الأميركية ـ الكندية حيث الشلالات التي يقع جزء منها في أميركا والجزء الأجمل والأبهى في كندا. تستقل السيارة وإذا كنت لبنانياً، لا تنسَ تأشيرة الدخول إلى كندا، وإلا بقيت في الجانب الأميركي وحدك من دون العديد من الجنسيات الأوروبية التي لا تحتاج إلى تعقيدات كهذه. . . وحتى إذا أقسمت أنك ستكتفي من الزيارة بساعة واحدة لا أكثر لمشاهدة الشلالات مكمماً ومقيد اليدين، لن يكون بوسعك تنفيذ ذلك بلا تأشيرة. . . وهذا جزء من عقاب العالم للذين يدمرون أوطانهم أياً كانت الاعتبارات، ويؤوون الإرهاب أياً كانت الأسباب، ويتاجرون بالمخدرات والمحرمات لتمويل «حروبهم المقدسة». . ذلك الواقع المحزن لن ينسيك امتنانك لكندا، الوطن الذي فتح أبوابه لآلاف اللبنانيين المهاجرين إلى حلم الحرية والبحبوحة والرحابة وآواهم ومنح أولادهم فرصة الانتهاء إلى وطن معافى.

ولكن ذلك كله خارج الموضوع!. . ودوماً يقحم جرح لبنان نفسه في لحظات السياحة العذبة (لنعترف أنه لا يقحم نفسه. إنه مقيم، وجزء من كياننا!). حسناً. كنا في طريقنا إلى شلالات نياغارا، تلك التحفة الطبيعية التي تبدو شلالاً شاهقاً في الجزء الأميركي وتتحول إلى معجزة طبيعية مذهلة بهيئة حدوة الحصان في كندا، حيث يتساقط الشلال الشاسع الجبار على نصف دائرة كاملة من الصخور. .

لن يكون بوسعك نسيان فيلم **نياغارا** إذا كنت قد شاهدته صغيراً، وسيخيل إليك أن مارلين مونرو لا تزال تركض في المنحدرات الخطيرة للشلال بجسدها المرمري البديع ونظرتها المسكونة بدهشة الإغراء، وبراءة الجنون العذب. . وتكاد تسمع أغنية

الفيلم، وتدمدم معها: «قل إنك تفتقدني». انتبه إلى وقع قدميك وإلا افتقدك أهلك إلى الأبد!

★ ★ ★

«عروس الضباب» اسم المركب الذي تستقله في مغامرة شبه مدروسة للاقتراب من الشلال قدر الإمكان. يرفض بعض السواح العقلاء هذه المغامرة اللامجدية. تنضم إلى المجانين منهم، فترتدي معطفاً أزرق واقياً من المطر وترفع قبعته فوق رأسك احتماء من رذاذ الماء... وتمضي مع قافلة الزرق مثل قبيلة فضائية راحلة إلى مغاور الدهشة والإثارة. يتحرك القارب فترى الجانب الأميركي المهيب من الشلال الشاهق، ثم يمضي بك صوب حدوة الحصان المائية... ويقترب شيئاً فشيئاً وضجيج الشلالات يصم الآذان.. وفجأة تلحظ أن المركب لم يعد قادراً على التقدم وأن المياه المتدفقة الجبارة تدفعه إلى الخلف، وترى الهوة السحيقة المائية تحت ملايين أطنان الأنهار الشلالية الراكضة شاقولياً مثل نهر من ضوء بين السماء والأرض... يشعر المرء بالخوف داخل هذا القارب ـ الريشة أمام جبروت العناصر، والمياه المتناثرة تغطي وجهه كالمطر، ويمتلىء القلب أمام ذلك الجمال الطبيعي الخارق بالرهبة، مردداً: سبحان الخالق العظيم. يرددها المرء في لحظة وجد للحضور الإلهي في عظمة الكون، ويمتلىء القلب حباً وإيماناً. وفي لحظة الايمان تلك، يخيّل إلى السائح أنه يرى الشلال وهو يصعد إلى الأعلى بدلاً من أن يسقط كما يقضي قانون الجاذبية... شلال ينسكب صوب السماء مضيئاً بالخشوع والذهول كأنه صلوات الركاب أيا كان دينهم لخالق هذا الكون.. لحظة رهافة سماوية يعود منها المرء إلى طينه الأرضي، مذعوراً من ارتجاف المركب الذي يدور في موضعه مرتجفاً في الزلزال المائي ويقفل راجعاً ومعه ضغط دمنا وكولسترول الخوف والسكري... ويتحول المركب إلى استديو للتصوير، ويتم التقاط الصور التذكارية أمام أضخم شلال على كوكبنا... وأتحول من امرأة إلى منطاد يحلق فوق ذلك المهرجان المائي الخارق كأعجوبة.

★ ★ ★

الليل في نياغارا عجينة هدوء وصفاء، والفنادق الشاهقة بدأت تنبت كالفطر حول الشلال. ومن شرفتك تتأمل رقصة الأضواء الملونة على ذلك الجبروت المائي الجميل كله، المدجج بشعاع أحمر أخضر أزرق تتناوب الألوان احتضانه... أجمل ما في المكان هو المدى الفسيح، حيث تركض الأفكار كالأحصنة الوحشية التي طال تدجينها في جادات نيويورك... تستعيد صور رحلتك. تعي أنك بحاجة إلى إجازة من إجازتك، وأن نيويورك بحاجة إلى إجازة من عظمتها وهذيانها ومبانيها التي تتنافس ارتفاعاً لحجب

قرص السماء... كأن تكون هدية روكفلر القادمة إليها لا ناطحة سحاب جديدة بل مساحة فارغة، وفسحة من الأرض غير معمرة مكرسة للفضاء وللتنفس الروحي والأوكسجين النفسي. تهبط من غرفتك لتتمشى على «كورنيش الحدوة» المطل من الأعلى على شلالات نياغارا الكندية.

.. وتسمع فجأة صوت فيروز جميلاً حزيناً.. مثقلاً بالحنين وهو يصرخ في هذا الليل أمام جنون الشلال: خذني ازرعني بأرض لبنان... تظن للوهلة الأولى أنك دخلت مرحلة الهذيان... ولكن لا... ذلك يحدث حقاً. وها هي أسرة لبنانية تحمل معها المسجل وسندويشات العشاء وتستمع إلى فيروز أمام شلالات نياغارا ذات ليلة مقمرة، والصوت الخرافي ينشد: يا هوى يا أهل الهوى، خذني على بلادي.. تلتقي العيون الدامعة هوية الغرباء.. ونتعارف.. ونتحاور.

★ ★ ★

هرباً من جحيم الحرب، هاجرت هذه الأسرة اللبنانية إلى كندا. مقيمة في تورنتو القريبة من نياغارا.. جاءت في نزهة، وربما لا يطيق صبراً على فراق روح لبنان المقطّرة في صوت فيروز. قاسمتهم سندويشات الشاورما بالحمص التي أعدتها أم فادي وسألت زوجها وفلاش السائح الياباني يلتمع على وجوهنا وهو يصور الشلال: إذا كنت تفتقد لبنان إلى هذا المدى، لماذا غادرته؟ قال بصوت دامع: قسماً بأهلي لم أفارق عن رضى/ أهلي وهم ذخري وكل عمادي/ لكن أنفت بأن أعيش بموطني/ عبداً وكنت به من الأسياد. سيدتي، أنا من أولئك الذين لم يعد بوسعهم أن يعيشوا في لبنان ولا بدونه؟ فأين المفر؟

قصة مشابهة لقصص المليون وربع مهاجر لبناني روتها لي أم فادي عن حكايتهم المحزنة مع التهجير والفقر و«التعتير» والقصف والخطف حتى قرروا الرحيل ورفيقهم صوت أميرة الغرباء فيروز. واستقروا في تورنتو منذ عشرة أعوام سعياً وراء حلم الحرية والرحابة في كندا الحنون على اللبنانيين «الطافشين» وألفوا حياتهم السعيدة المريحة ولم يعد بوسعهم فراق كندا وطن «الأولاد» الذين كبروا فيها وألفوها، لكن القلب ينشقّ لوعة ويطير شوقاً إلى لبنان كلما صدحت فيروز:

خذني ازرعني بأرض لبنان...

ذلك عقاب رعايا الشوق، الذين لا يملكون قلوباً مكيفة الهواء، وذاكرة كشاشة تلفزيونية، بضغطة واحدة على زر تنمحي الصور كلها!

١٩٩٢/١/٧

إذا . . .

إذا مررت بلندن «ترانزيت» راجعاً من نيويورك إلى «وكر» غربتك في باريس،

إذا كانت مكاتب الأصدقاء مغلقة، ولم تحمل معك الأرقام الهاتفية لبيوتهم،

إذا قضيت تلك الليلة في حي «النايتسبردج»، وتسكعت وحيداً تحت المطر،

إذا قرأت في كتاب الجدران والريح كما يفعل كل غريب بلله المطر اللندني الحزين ذات ليلة صيف متنكرة بالخريف،

إذا صرت تقرأ أسماء المتاجر وقلبك يركض على غير هدى عبر الزمان والمكان في شوارع مدن أخرى،

إذا خطف انتباهك ذلك الحانوت المظلم حامل الرقم «١٤٤ شارع برومبتون» وسط عشرات الحوانيت الأخرى التي ترقص ضوءاً ورفاهية كعرس،

ستقرأ اسم الدكان الخاوي إلا من الظلام والغبار: «بيت لبنان» ـ معروض للبيع بواسطة ويتلي اند فريزر ـ تلفون أربعة تسعة واحد ثلاثة خمسة. . إلى آخره. . .

من زرع هذا المكان الحزين في درب قلبك المشرد وسط هذا الليل الباكي مطراً وبرداً؟ ولماذا تبدو لك تلك الدكان مكاناً رمزياً يلخص حقيقة موجعة: هذي حال «دكان» لبنان في مزادات الأمم، وعلى الرصيف الثاني ـ فوق مبنى هارودز ـ ترتفع أعلام دول الدنيا، ولبنان ليس من بينها بعدما اختار بعض أبنائه إفقاره وإظلامه وقطع الكهرباء عنه (كحال هذه الدكان المظلمة). . ستتذكر ما اقترفه بعض أبناء هذا البلد الجميل بحق وطنهم (وما يثابرون عليه من مكابرة على جراح الناس من المقيمين والمغتربين)، وكم باعوا علمه في مزادات الأمم وأرضه في بورصات الحلول، وما زالوا يتسولون حلاً، ولن يجدوه حتى يبدلوا ما بأنفسهم. . .

★ ★ ★

إذا مررت بتلك الدكان الرمزية ذات ليلة لندنية ماطرة، ستركض داخل عينيك حكاية شعب ترك تجار الوطنيات والطائفيات يتحكمون بمصيره، ويحولون بيته الذي كان عرساً إلى دكان للبيع. . . وحتى إذا كنت مثلي من الذين رفضوا بعض لبنان الأمس

مطالبين بأن يكون أكثر عدالة وإنسانية وعروبة، فإنك لن تملك إلا الشعور بـالغصة وأنت تتأمل حاله وسط مسرح الليل الباكي، دكاناً ممزقة الأوصال خاوية إلا من الغبار معروضة للبيع. . . وهو الذي كان ذات يوم عرساً عربياً للحرية وأملاً بـوطن عربي نموذجي للتعايش بين الأديان والطوائف والأفكار. . وكنت ترفضه لأنك تريده أفضل، فاحترق كل شيء، ورب يوم بكيت منه بكيت في يوم عليه. . . أولئك الذين ما زلوا يلعبون بمصير بقايا الوطن ويتشدقون بكلمات كبيرة لا يعنون حقاً حرفاً منها، ألا يشفقون على بلدهم من شهواتهم وخداعهم وألاعيبهم ودسائسهم؟ ومتى يتعاملون معه كما فعلت الأم الحقيقية للطفل أمام حكمة سيدنا سليمان؟ متى يصحون من أوهام العظمة؟ لقد رق لحال لبنان القريب والغريب إلا بعض أبنائه الـذين أغرقـوه في الظلام والأوبئة والمجاعات والعطش والغبار، وتركوا الفئران تقاسم المواطن الصابر رزقه وفـراشه. . وتجد نفسك تردد مع الشـاعر السعـودي حسن عبد الله القـرشي: «ما آلم أن يـوصم بالوحشية أرزك يا لبنان / ما أجبن أن يتعدد نيرونو القرن العشرين / ما أشأم أن تتناحر فيك الأديان / أن يعبث مجنون بصنوبرك المزدان / أن تعبد في أرضك بعد الله الأوثان». فمتى يرددها جلادو لبنان المحلّيون؟. . .

تراهم يفعلون إذا مروا ذات ليلة حزن ماطرة بتلك الدكان؟ أم أنهم يرون دونما رؤيا، ويبصرون دونما إدراك، وتلك مأساتنا بهم؟. . .

★ ★ ★

. . . إذا تساءلت يوماً لماذا تزخر بعض المدن العربية بدكاكين ومطاعم وحوانيت ودور سينما ومكتبات ومدارس وملاهٍ تحمل أسماء غربية ولا تجد في العواصم الأوروبية اسماً عربياً واحداً يتربع على لافتة إلا فيما ندر (وكان صاحب المكان عربياً). .

. . . إذا تابعت مسيرتـك تلك الليلة اللندنيـة الحزينـة تحت المطر، وتـذكرت زيارتك الأولى لها منذ ألف عام سيعاود قلبك ذلك الشعور العتيق بكل زخمه وغصاته، يوم تأملتها بعينك الجديدة وفوجئت بأنهم يتمسكون جيداً بأسمائهم التي يطلقونها على كل ما حولهم: هامستيد. كنتْ. هامبتون كورت لا دمشق كورت أو رياض كورت. لادبروك ڤروڤ وليس طرابلس الغرب ڤروڤ أو بغداد ڤروف. الهايد بارك لا تونس بارك أو بيروت بارك. . . يعاودك ذلك الانطباع العتيق ذاته: لماذا تزخر مدننا وحتى قرانا بالأسماء الأعجمية، وتفرض نفسها على حياتنا فنتشبه بها لجلب الزبائن أو الاهتمام، في حين يتباهون هم بأصالة أماكنهم وأسمائهم العتيقة العريقة المنتزعة من صلب أرضهم وتراثهم وتاريخهم؟ تقول لنفسك: ولكن حفظ العراقة العربية لا يكون بمنع استعمال

الأسماء الأعجمية الغربية وحدها، بل بانتفاء الحاجة النفسية إليها... فمداواة الأعراض لا تجدي والأهم مواجهة جوهر المرض..

إن تسمية الكومبيوتر بـ«الحاسوب» مثلاً ليس تعريباً، بل تخريباً للألم الصحي الذي يجب أن نعانيه، وتخديراً لحقيقة أساسية وهي أن الكومبيوتر ليس اختراعاً عربياً وتعريب اسمه لا يجعله كذلك، والحرص على ذاكرتنا العربية لا يكون بمراعاة المظاهر والشكليات فقط، بل الأهم بمواجهة جوهر المأساة.. وهي أننا نمر بحقبة انحطاط وتخلف وأننا تقاعسنا من زمان عن المساهمة في العطاء الحضاري الإنساني، وإصرارنا على استعادة دورنا لا يكون بالمكابرة اللغوية بل بمواجهة الذات وواقعها والاستعداد للدخول إلى العصر والانتماء إلى المستقبل...

★ ★ ★

إذا تابعت جولتك تلك الليلة اليتيمة في لندن، ستلفتك الأسماء العربية للمطاعم والحوانيت ذات الكثافة الخارقة في بعض الأحياء (كما في ادجوير رود). تقود السيارة بهدوء تحت المطر، وتتأملها بغبطة.. من زمان، يوم رحيلك الأول إلى لندن كنت تفتش عن إنسان ينطق بالعربية لتدعوه إلى فنجان قهوة وتحتفل بمجرد حضوره... وتثرثران معاً بالعربية عن أحلامكما بعد انتهاء الدراسة والعودة إلى الوطن...

وإذا قلّبت صفحات دليل لندن للسهر بحثاً عن مسرحية تؤوي غربة قلبك، فسيطالعك في نهاية المجلة الأسبوعية دفتر المخازي العربية في لندن من نمط «جواهر: أصغر وأجمل كتكوتة في لندن ـ ليالي بيروت (أصغر البنات) ـ جمال لبنان (صغيرات ١٩٩٠) ـ أمُّورة القاهرة والأميرة ـ ابتسام الجاذبية، ليالي الحلمية والدلال ـ مشاعل ـ عرائس البحر ـ عيون المهى (دونما خجل من الشاعر!) ـ هيفاء العرب ـ مهرة (أصغر البنات) مع أرقام التلفونات!..

وستقول لنفسك إنه لا مبرر لتضخيم الأمر، ففي المدن الكبيرة كلها مباذل يقدمها أبناء الشعوب على اختلاف أصولهم للأسف. ولكنك ستغص لأن الحضور العربي مقتصر في دليل الفن والثقافة على ما سبق ذكره! ولذا ستتذكر بارتياح حضور الصحافة العربية المهاجرة عامة، كأحد المعالم العربية المتحضرة في الغرب متمنياً أن يرد الله غربتها، وستمر بالسيارة أمام مكاتبها في زيارة رمزية لرفاق الحرف، وزملاء الحرب على التخلف العربي أينما كان... بدءاً بالذات وانتهاء بالعالم الخارجي حيث تطغى شرعة القوة ولا مكان للمتخلفين والمتلهين بـ«الأمُّورات والكتاكيت»!!.. ولا نجاة لنا إلا إذا...

١٩٩٠/٧/١٧

V.I.P

أمام مدخل المطار في المدينة الأوروبية التقينا. مَذْهُولَيْنْ وقفنا وكل منا يحدِّق في صاحبه غير مصدق، فقد كان اللقاء الأخير بيننا على مقاعد الدراسة في الجامعة الأميركية منذ ألف عام.

بادرني بالكذبة التاريخية: يا إلهي... لم تتبدلي! فرددت عليه بـ«أكذب» منها: وأنت أيضاً!

كنت أجر حقيبتي الثقيلة، وكان سائقه الأنيق بالقبعة الرسمية يحمل له حقائبه، فأمره بحمل حقيبتي عني. وتصادف أننا كنا سنستقل طائرة واحدة إلى باريس فطلب مني بطاقة سفري لنجري معاملات الرحلة معاً.

وأشفق عليّ حين وجدها تخص الدرجة السياحية، ولكنه جرّني من يدي إلى الصف الخاص بأهل الدرجة الأولى بعدما أبرز من جيبه عدة بطاقات «وجيهة» بينها واحدة من شركة الطيران تضعه في خانة المحظوظين الـ V.I.P، وهي الحروف الأولى من عبارة «شخصية مهمة جداً» بالانكليزية، وطلب من سائقه الذهاب لشراء أزهار لي!.. وما كاد السائق يغيب حتى رن هاتفه النقال «البي بوب»، فألصقه على أذنه بحامل ذهبي وأخرج من جيبه الكومبيوتر النقال، وغرق في حوار مالي هائل مع محدثه.

★ ★ ★

وتحولت إلى محارة حية عصروا عليها بعض حامض الليمون، إذ ما كادت موظفة الدرجة الأولى ترى بطاقتي السياحية حتى طردتني كمن يكش ذبابة. لم يسمع زميل الدراسة ما حدث (أم تجاهل؟) وكان غارقاً في أرقام البورصة وإصدار الأوامر، يحدّق بي ولا يراني. حملت حقيبتي ووقفت في آخر الطابور الآخر الخاص بالدرجة الثانية ومررت مع بقية عبيد الله من أمثالي. وما كدت أسترخي في قاعة المسافرين حتى أطل من جديد بخاتمه الذهبي الماسي الكبير في إصبعه. قال لي مشفقاً وهو يحدّق في بقية الناس (من غير الـ V.I.P) حولي مرتاعاً كما لو كانوا يحملون الهراوات ويزينون شعرهم بعظام أعدائهم: ماذا تفعلين هنا؟ وجرّني من يدي إلى الصالة الخاصة بالشخصيات المهمة الـ V.I.P

المزروعة بالهواتف والفاكسات (جمع فاكس) والمبطنة بالمخمل الأرجواني الأمبراطوري بعدما أعطاني باقة كبيرة من الأزهار لم أعرف كيف أحملها بيدي الثالثة لأنني كنت أحمل حقيبة آلة التصوير بيد، وأوراقي وبعض الكتب باليد الثانية.

سألني عن أخباري، وقبل أن أجيب سارع إلى الاعتذار عن الحالة «المزرية» التي شاهدته فيها كراكب في الدرجة الأولى، فهو يسافر عادة بطائرته الخاصة التي تعطلت. وروى لي أمجاد شركاته ويخوته وأنا أنصت بفم مشدوه ولا أقول سوى: عظيم عظيم. . . فعاد يؤكد أن الحوار معي ممتع حقاً. وأصر على أن أجلس إلى جانبه في الطائرة ونادى المضيفة وتشاجر معها مصراً على تغيير بطاقتي الحقيرة إلى بطاقة في الدرجة الأولى على نفقته. وحين أعلنوا عن قرب الاقلاع ناولني عدة بزّات أنيقة معلقة كان يمسك بها وطلب مني أن أساعده على حملها «ونسيها» معي!

★ ★ ★

مثقلة بأحمالي، سقطت الأزهار مني على سلم الطائرة فتعثرت بها وكدت أسقط، وجلسنا معاً في مقعدين بالدرجة الأولى.

وصار يحدثني عن بيوته في نيويورك ولندن وجنيف، وشقته في باريس بوجاهتها في الحي الثامن. وسألني كم بيتاً عندي، قلت له: أربع غرف!

ونشر الطاووس في أعماقه ذيله الملون وبدأت حفلة استعراض عظمته أو «الفشورة» أو «التنمير». . وبعدما شرب ما تيسر من الشمبانيا صار يشكو لي من تشرده بين بيوته. ولم أتعاطف كثيراً معه وتساءلت: هل يشكو أم يتبجح؟ ترنح ونحن نغادر الطائرة، وطلب مني أن أساعده في حمل أشيائه، ففعلت وسقطت مني حقيبة الكاميرا على سلم الطائرة. أصر على أن يوصلني إلى بيتي فأدركت أنه لم يقضِ وطره بعد من إدهاشي بثرائه واستعمالي شاشةً لعظمته.

في سيارته الرولز رويس كان يتحدث على هاتفها، والآخر «البي بوب» النقال في جعبته الخاصة المصنوعة من جلد التمساح الثمين، والتلفزيون يساهم بضجيج إضافي عبر الستيريو الموصول به. وعند مشارف باريس تعطلت الرولز رويس في الزحام الخانق، فأمر سائقه باللحاق به عندي بعد تصليح السيارة. وأقلّنا التاكسي. أمام الباب أفهمني أنه لا يحمل نقوداً، فدفعت أجرة السيارة. وفي المصعد اكتشفت أنني خسرت الكاميرا لأن عدستها انكسرت لكثرة ما وقعت.

★ ★ ★

كـان يتحدث عن زوجـاته وحـروبهن، وأولاده، ومطلقـاته والنفقـة، ولم أعد أسمعه. تذكرت عبره عشرات النساء والرجال الـ V.I.P الذين مررت بهم، وأساليبهم الذكية في استعراض «عظمتهم» وبينهم عشرات من متوسطي الحال، والمفلسين الذين يحاولون الظهور بمظهر الـ V.I.P وبعضهم لا يخلو من الطرافة.

منهم مثلاً تلك الصديقة الغارقة في تعبها اليومي مثلي، لكنني لا أكلمها مرة على الهاتف إلا وتقول لي إن خبيرة المساج عندها تقوم بتدليكها (ولعلها تكون مثلي بحالة تدليك لأرض المنزل!).. وذلك الذي استدان لتركيب خط تلفوني لسيارته المكشوفة التي اشتراها بالتقسيط، ليتوقف بها أمامنا مقابل المقهى ويتحدث على هاتفها بيد والهاتف النقال على الأذن الأخرى باليد الثانية.. والهاتفان معطلان!

تذكرت تلك الصديقة التي ظلت تروي لي الأساطير عن فيلتها في جنوبي فرنسا (في سان تروبيه)، وذلك في معرض إعارتها لي لشهر لأكتب فيها وحدي. وحين قبلت تهربت. وفي الصيف رافقت بعض الأصدقـاء لزيـارتها في وكـر بسيط أين منه قصر «البهورة» (أو الفشورة باللهجة اللبنانية). فالناس الـ V.I.P لديهم أساليب ذكية لجذب اهتمامك لسماع ما عندهم، حين يعرضون عليك (كاذبين) أن تستعمل الشاليه خاصتهم في «سان موريتز» مثلاً ليتحدثوا عنه بقية السهـرة باعتبـاره المكان الـذي ستقضي فيه إجازتك في ضيافتهم. أما حبهم المفاجىء لك فهو جزء من حبهم للمرآة التي يتأملون فيها «روعتهم» استعداداً للانتقال إلى مرآة أخرى لتكرار الاستعراض على صفحتها.

وهم يعشقون الحديث معك عن مشاريعهم الوهمية بملايين الدولارات، وتهتم بالأمر مذهولاً معجباً ما داموا سيسلمونك إدارتها!

وإذا التقى رجلان من فئة الـ V.I.P تبدأ حرب الطواويس وتصير الجلسة ممتعة من نمط «يوم اشتريت يختي الثاني في مونتي كارلو...» أو «يوم بعت البنك واشتريت ربع فلوريدا»...

* * *

أما النساء الـ V.I.P فلهن نغمة أخرى لها صلة بالمجوهرات وعشرات الخادمات الفيليبينيات أو الفرنسيات (وهذا أكثر وجاهة) ناهيك عن الفساتين الموقّعة من أشهر مصممي الأزياء، وربما إدارة الشركات الموروثة عن المرحوم.

واستيقظت من أفكاري على صوت «زميلي» المليونير وهو يُجـري عدة مكـالمات هاتفية «خارجية» من هاتفي، ثم دعاني للعشاء في المطعم الباريسي الشهير مؤكداً أنه

سيعتذر عن السهرة مع كارولين ودي دي (يقصد أميرة موناكو والليدي ديانا)، فقلت له إنني متعبة وبوسعه السهر معهما الليلة على أن نتناول عشاءنا معاً في اليوم التالي في مطعم المشاهير الباريسي. ومضى بعدما استدان مني أجرة التاكسي.

واتصلت بصديقتي التي تدّعي باستمرار أنها «تحت المساج والتدليـك» بصفتها خبيرة بحكايا الناس الـ V.I.P ورويت لها ما حـدث. فقالت لي إن زميـلي الجامعي السابق مفلس حتى السجن ومحتال لكنه يستدين لحفظ المظاهر. في اليوم التالي رافقته إلى العشاء إذ زاد سحره في عيني بعدما بهرني بأدائه المسرحي، واعتبرت أكاذيبه مسرحية «مونودراما» لمتفرج واحد. وكان أطرف أدواره حين أدى دور الذي نسي بطاقة الائتمان لدفع فاتورة العشاء، وكنت قد توقعت ذلك وحملت معي ما تبقى من راتبي ودفعت!

وحين عدت إلى البيت، وجدت في صندوقي البريدي فاتورة من شركة الطيران تطالبني بدفع ثمن بطاقة طائرة العودة إلى باريس بالدرجة الأولى برفقة السيد V.I.P وأنا الآن بانتظار فاتورة «هواتفه»!!

١٩٩٤/٣/٣٠

فهرس المحتويات

الأعمال غير الكاملة

زمن الحب الآخر (قصص) - (الطبعة السادسة)

الجسد حقيبة سفر (الطبعة الرابعة)

السباحة في بحيرة الشيطان (الطبعة الخامسة)

ختم الذاكرة بالشمع الأحمر (الطبعة الخامسة)

اعتقال لحظة هاربة (الطبعة الخامسة)

مواطنة متلبسة بالقراءة (الطبعة الرابعة)

الرغيف ينبض كالقلب (الطبعة الثالثة)

ع.غ. تتفرس (الطبعة الرابعة)

صفارة إنذار داخل رأسي (الطبعة الثالثة)

كتابات غير ملتزمة (الطبعة الثانية)

الحب من الوريد إلى الوريد (الطبعة الرابعة)

القبيلة تستجوب القتيلة (الطبعة الثانية)

البحر يحاكم سمكة (الطبعة الثانية)

تسكع داخل جرح (الطبعة الأولى)

مطبعة دار الكتب ساحة رياض الصلح بناية اللعازارية تلفون: ٦٤٠٠٣٩ (٠١)



□ في هذا الكتاب تتابع المؤلفة رحلتها الأبجدية مع أدب الرحلات، وبعد كتابها «الجسد حقيبة سفر» الذي اقتصرت رحلاته على مدنٍ في أوربا الغربية وأخرى عربية، نرافق غادة السمان هذه المرة شرقاً لنزور بانكوك ومانيلا وسينغافورة وهونغ كونغ وسواها، ثم نرحل غرباً إلى نيويورك وواشنطن ولوس انجليس وهوليوود ولاس فيغاس واورلاندو وميامي وغيرها من مدن الولايات المتحدة.

□ وتحاول المؤلفة أن تتعرف على التضاريس الروحية للناس في البلدان التي تزورها، وعلى جغرافيا قلوبهم ومناخاتهم النفسية والروحية. فالرحيل حوار صامت مع الحضارات الأخرى.

منشورات غادة السمان